
د. هـ. لورنس
روايتان
ترجمة: زغلول فهمي
العذراء والغجري
و"المرأة التي جمحت"
أقلام عربية
للنشر والتوزيع

العذراء والغجري

المرأة التي جمحت



لورانس، ديفيد هربرت، 1885-1930

العذراء والغجري: المرأة التي جمحت/ تأليف د.هـ.لورانس، ترجمة زغلول فهمي – القاهرة أقلام عربية للنشر والتوزيع، 2017، 251 ص 14.5x 21.5 سم.

1- القصص الإنجليزية

أ- فهمي، زغلول (مترجم)

ب- العنوان 823

العنوان: العذراء والغجري المرأة التي جمحت

المؤلف: ديفيد هربرت لورانس

المترجم: زغلول فهمي

طبعة أقلام عربية الأولى 2018

رقم الإيداع: 2017/23976

العنوان: 1 كريم الدولة – أمام جروبي – طاعت حرب

تليفاكس: +20225740228 موبايل: +201011745806

 info@daraqlam.com

 Aqlam Arabia Bookstore

www.daraqlam.com

العذراء والغجري

المرأة التي جمحت

تأليف

د.هـ. لورانس

ترجمة

زغلول فهمي





تقديم

د.هـ. لورنس

ولد لورنس سنة 1885 لأبٍ من عمال المناجم. وأمٍّ من سيدات الطبقة المتوسطة الصغيرة بقرية مجاورة لمدينة نوتنجهام. وكان أبوه شرسًا قاسي الطباع، يدمن الشراب كثير الشجار متذمِّرًا من أهله ومن الحياة، في حين كانت أمه على النقيض من ذلك تمامًا. فقد أتاحت لها أسرتها المتوسطة نصيبًا من التعليم وغرست في نفسها الخلق الكريم والمبادئ السامية، كما كانت إلى جانب ذلك طموحًا تريد أن ترقى بزوجها وبأسرتها إلى الحياة الميسورة المحترمة. ولكن جميع محاولاتها لإصلاح الأب باءت بالفشل الذريع فبقي على حاله لم يتغير. وآبت هي باليأس من إصلاحه بعد أن رزقت منه بثلاثة أطفال فعاش كل منهما في غربة عن الآ خر.

وأخيرًا جاء لورنس إلى الوجود وشَبَّ في هذا الجو الشاذ وشهد ما بين أمه وأبيه من صراع دائم في كل شيء فلم يكن أمامه إلا أن يَخُصَّ أمه بكل حبه، تلك الأم التي ضحَّت بسعادتها من أجل المحافظة على كيان الأسرة. ووجدت الأم في حب لورنس عزاءً عن حب أبيه، فتجردت له، وفنيت فيه، وعلَّمته من فنون الحَدْب ألوانًا.

ثم ذهب لورنس إلى المدرسة في نوتنجهام ليتلقى تعليمه حيث حقق نجاحًا باهرًا، فدخل مدرسة نوتنجهام العالية ثم الجامعة ولكنه تخرَّج في الجامعة مريضًا من كثرة ما بذل من جهد في التحصيل، كما خرَّب الالتهاب الرئوي صحته. ثم اشتغل معلمًا في مدرسة إلزامية ببلدة كرويدون.

وفي سنة 1909 أي عندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره نشر أشعارًا باسمه في "المجلة الإنجليزية". وفي سنة 1910 توفيت أمه، وكانت هذه "كارثة كبرى" فقد كان لورنس شديد التعلق بها، حتى إنه فكر في الانتحار ولكنه عدل عن ذلك. وفي سنة 1911 نشر أول قصة له وهي "الطاووس الأبيض"، ثم قصة "الأبناء والعشاق" سنة 1912. وفي نفس هذه السنة تعرَّف على سيدة ألمانية تدعى "فون ريختوفن" واتخذها زوجًا له، وقد تعرض في ذلك أيضًا لزوابع نفسية عنيفة فقد كانت هذه السيدة مرتبطة برباط الزواج فتحررت منه لتقترن بلورنس. ثم نشبت الحرب العالمية الأولى وتركت في روحه جراحًا لم يبرأ منها قط. كان لورنس غير لائق للخدمة العسكرية فلم يُجنَّد في الحرب، فظل في إنجلترا شقيًّا بنظرة الناس إليه لزواجه من امرأة ألمانية، وشقيًّا بانهيار تلك الحضارة العظيمة التي عاشت ألفي عام ثم تحولت في النهاية إلى حضارة بنادق، حضارة موت وتخريب، فقد كان يقول: "إن أوربا تنتحر بلا ريب"، كما كان يقول: "إن الأحياء منا يطلبون الموت، وخليق بالأحياء أن يطلبوا الحياة". ومن هنا كان

سخطه على المدنية وإيثاره النظرة الساذجة. ولذلك راح يبحث عن الأحياء الذين يطلبون الحياة، بين الهمج والهنود الحمر والإسكيمو.

فما إن وضعت الحرب العالمية أوزارها، حتى بادر إلى الخروج من إنجلترا سنة 1919 وظل في منفاه المختار حتى مات سنة 1930. رحل إلى إيطاليا ولكنه وجد أنها جزء من أوربا حيث هَرِمَ الناس ولم تتبقَّ منهم إلا تشنجات الموت الأخيرة. فنزح عن أوربا كلها وقصد إلى بلاد أستراليا ليدرس (البوشمن) ويرى بنفسه مدى سعادتهم بين أحضان الطبيعة. ثم نزح إلى أمريكا ليدرس الهنود الحمر وعاش في المكسيك زمنًا حيث كتب قصة "الثعبان المجنح". ثم عاد لورنس إلى أوربا المتحضرة عودة اليائس بعد أن فُجِع في أوهامه، إذ أنه كان يتصور وجود حضارات عديدة بين الهمج فلم يجد شيئًا من ذلك بل رأى أن أوربا على شيخوختها أشد قوة وفتوة من أهل الفطرة التي زالت فعلًا منذ آلاف السنين. وهكذا عاد لورنس إلى أوربا ليبكي حطام العالم أجمع.

كان لورنس يقول إن أسفاره هذه إنما كان الدافع لها البحث عن الحقيقة، ولكن الواقع أنها كانت نوعًا من الهرب من نفسه، فقد كان يبحث عن توازنه العقلي والنفسي. أخذ يبحث عن مجتمعات طوباوية (مثالية) لا وجود لها إلا في خياله. وقد احتدمت في نفسه صراعات عنيفة مدمرة، فكان حله لها على طريقة أي رجل ضعيف الإرادة، ضعيف

التفكير، وذلك بالفرار من النفس ومن مشكلات الحياة الإنسانية... وهو حل لا جدوى منه إلا لفترة وجيزة، ثم لا يلبث أن يعود إليه بعد ذلك اختلاله النفسي. إن مشكلات الحياة الإنسانية مشكلات واقعية ومادية لا يُجدي فيها الهرب من الواقع ولا يزيلها سوى تغيير المادة.

إن أدب لورنس كله لا يتجاوز أن يكون ترجمة كاملة لحياته النفسية والعاطفية، ولا شك أنه في مقدمة الأدباء المنتجين الذين ملئوا الدنيا بفنهم، ولكنه عُرف عنه منذ بدء حياته الأدبية أنه كاتب منحلٌّ لا يُصور سوى الإحساسات الجنسية حتى صودرت بعض كتبه لاعتبارها أدبًا مكشوفًا مثل "قوس قزح" و"عشيق ليدي تشاترلي"، ولكن الناس في فهم لورنس لم يحكموا بظواهر الأمور. فقد سجَّل لورنس فتوحات جديدة في تحليل العلاقة بين الرجل والمرأة ووضع أسسًا جديدة للفلسفة الفردية والاجتماعية مستمدة من اختباره الجنسي واختبار جيله في آن واحد. وكان مركب أوديب هو الذي جعل لورنس يتخصص في تحليل الحياة الجنسية حتى وضع لها فلسفة مشهورة. فقد كان لورنس صريع هذه العقدة التي شلت قواه وسامته العذاب الأليم. وقد كشف فرويد عن هذه العقدة وهي جزء لا يتجزأ من نظريته في نمو الحياة الجنسية داخل اللاوعي. ولا مناص من فهم ذلك، لفهم أدبه، فكل ما كتب لورنس ترجمة دقيقة أمينة لنموه النفسي أو على الأصح لشلله النفسي. إنه تحليل لكل ما قاساه من صراعات باطنية بين الرغبات والمحرمات.

وقارئ لورنس يعلم أن أمه هي التي حطمت حياته كل هذا التحطيم. إذ أنها لمَّا يئست من إصلاح أبيه وجدت فيه عزاء عن شقائها وحرمانها فأقبلت عليه وانقطعت له وعاشت من أجله واختَّصته بحبها ووهبته كل ما تجمَّع لها من عواطف إيجابية. فكان حبها له جنونًا واضحًا لا هو بالأمومة المألوفة ولا هو بالجنس الصريح، ولكنه مركب قوي من هذين معًا. كانت جائعة إلى الحب الذي لم تجده في زوجها فاندفعت إلى حب ابنها الذي كان أشبه بالتعب المدمر. وما كان يمكن أن يكون قوة لزوجها أصبح لوالدها سُمًّا يتلفها إتلافًا. وبذلك حطمت حياته من حيث لا تدري، فقد فشل في أول تجربة له في الحب ودوَّن ذلك في قصته المشهورة: "الأبناء والعشاق".

لذلك كان لورنس يؤمن بأن رسالته في الحياة هي أن يصف الحب للناس وأن يعلمهم إيَّاه. ولا شك أنه نجح في ذلك نجاحًا عظيمًا، فهو أول من فضَّ مغاليق الجنس من الفنانين وتركه عاريًا أمام الناس.

العذراء والغجري

(1)

عندما هربت زوجة القس مع شاب مفلس لم تقف الفضيحة عند حد. وكانت ابنتاها الصغيرتان لا تتجاوز سنهما السابعة والتاسعة على التوالي. وكان القس زوجًا مثاليًّا بحق. فقد وَخَط الشيب شعره حقًّا، ولكن شاربه ما زال أسود اللون. ووجهه وسيم الملامح وقلبه ما زال يملؤه جوًى خفي نحو زوجته الحسناء الجامحة.

لماذا ولَّت؟ ولماذا جمحت في نوبة من النفور العنيف كأنما أُصيبت بمسٍّ من الجنون؟

لم يُحر أحد جوابًا. ولكن الأتقياء وحدهم زعموا أنها امرأة ساقطة، في حين آثر بعض النساء الصالحات أن يلزمن الصمت. فقد كُنَّ على علم بالحقيقة.

ولكن الفتاتين الصغيرتين لم تعرفا شيئًا قط. بل استقر رأيهما لإحساسهما بالمهانة، على أن أمهما إنما أقدمت على ذلك لأنها رأت أنهما لا تستحقان الاهتمام.

وحملت تلك الريح الشريرة التي لا تجلب خيرًا لأحد، أسرة الأبرشية على جناحها. ويا لهول المفاجأة! إذ بهذا القس الذي برز

إلى حد ما في كتابة المقالات والمساهمة في موضوعات الجدل، والذي أثارت قصته عطف هواة الكتب ممن يجهلون الحياة، إذا به يتقاضى معاشه من أبرشية "بابلويك" وهي إحدى أبرشيات الشمال. حيث خفف الله من قوة ريح الكوارث فحطت رحالها.

وكانت تلك الأبرشية الجديدة عبارة عن منزل من الحجر قبيح المنظر يقع عند مدخل القرية بالقرب من نهر بابل. وهناك فيما وراء تقاطع الطريق بالنهر قامت محالج القطن الحجرية الكبيرة القديمة التي كانت فيما مضى تُدار بالماء. ثم ينحرف الطريق إلى أعلى التل حيث ينتهي إلى شوارع القرية الحجرية المكشوفة.

وقد طرأ تغيُّر حاسم على أسرة الأبرشية عند انتقالها إلى هناك. فقد اصطحب القس الذي صار عندئذ راعي الكنيسة أمه العجوز وشقيقته وأخًا من المدينة. وعندئذ لشد ما اختلف الوسط الذي تعيش فيه الفتاتان عما كان عليه في منزلهما القديم.

وكان راعي الكنيسة وقتذاك في السابعة والأربعين من عمره. ولقد بدا عليه الحزن العميق بعد فرار زوجته، ولكنه حزن لا يتسم بكثير من الوقار. وقد حالت النساء المشفقات عليه بينه وبين الانتحار. ولكن شعره كاد يستحيل إلى البياض وقد بدا حزينًا زائغ البصر. وما كان عليك إلا أن تنظر إليه لتعرف مدى وقع الحادث الرهيب عليه ومدى الظلم الذي لحق به.

ومع ذلك فثمة رنة كاذبة كانت تكشف عن ذاتها في زاوية ما من زوايا نفسه، حتى إن بعض النساء اللائي عطفن عليه من أعماقهن وهو قس أحسسن نحوه بنوع من الكراهية الخفية وهو راعٍ للكنيسة. فإنه كان يوحي على الرغم من كل شيء، بإحساس ذاتي خفي بعدله وتقواه.

وتقبلت الفتاتان بالطبع حكم العائلة على طريقة الأطفال الغامضة، فصارت الجدة التي جاوزت السبعين من عمرها وحلَّ الضعف ببصرها، الشخصية الأولى في الدار. أما شؤون المنزل فكانت تتولاها العمة سيسي، تلك المرأة التقية التي شحب لونها وتجاوزت الأربعين من عمرها، ولم تفتأ تنخر في نفسها دودة داخلية. وأما العم "فرد" وهو رجل أشهب الوجه في الأربعين من عمره فكان يعيش في دناءة لنفسه فحسب. كما كان يذهب إلى المدينة كل يوم. وبالطبع كنت شخصية راعي الكنيسة تلي شخصية الجدة من حيث مكانتها في الدار.

وكانت الجدة تُدعى باسم "الأم" وهي امرأة تتسم بالمهارة والغلظة الجسمانية. وقد درجت طيلة حياتها على أن يكون لها ما تريد متوسلة إلى ذلك بمداجاة نواحي الضعف في الرجال. وما لبثت أن عرفت طريقها. فقد كان القس لا يزال "يحب" زوجته الخاطئة ولن يبرح "يحبها" حتى الموت. ولذا وجب الصمت! فقد كانت مشاعر

القس مقدسة، وكانت تلك الفتاة الطاهرة التي تزوجها وعبدها تحتل من قلبه مكانًا قدسيًّا.

وفي نفس الوقت كانت تهيم في عالم الشرور امرأة أخرى سيئة السمعة خانت راعي الكنيسة وهجرت طفلتيه الصغيرتين. وكانت عندئذ ترزح تحت نير شاب حقير لن يلبث بلا ريب أن يجلب لها المذلة التي تستحقها. ليكن هذا مفهومًا في وضوح ولنلزم الصمت بعد ذلك! فقد كانت عروسه الصغيرة زهرة الثلج البيضاء النقية لا تزال نضرة متفتحة تحتل من قلبه مكانًا مطهرًا مرموقًا. تلك الزهرة البيضاء لم تذبل بعد. أما المخلوقة الأخرى التي هربت مع ذلك الشاب الحقير فلا شأن لها به.

وصارت "الأم" _التي كانت تعيش في منزلها الصغير أرملة متضائلة الشخصية قليلة الأهمية إلى حد ما_ صارت تحتل الآن المكانة الأولى في الأبرشية حيث رسَّخت من جديد جثمانها الهرم ولن تنزل أبدًا عن ذلك العرش. كانت بدهائها تتنهَّد احترامًا لما يكنه القس من إخلاص لزهرة الثلج البيضاء النقية، وهي تتظاهر في الوقت نفسه بالاستنكار. وكانت في احترام أريب لحب ابنها العظيم تتحاشى أن تنطق بكلمة واحدة تهجو بها تلك الحَسَكَة التي تترعرع في دنيا الشرور، والتي كاد يُطلق عليها ذات يوم اسم "مسز آرثر سايول" وبذلك أصبحت لا تحمل اسم القس امرأة ما. كانت زهرة الثلج

البيضاء النقية نضرة متفتحة على الدوام دون أن تحمل اسمًا. بل إن الأسرة نفسها لم تكن تذكرها إلا باسم "المرأة التي تدعى سنثيا".

كان كل ذلك بمنزلة الماء لطاحونة "الأم"، فقد كان يؤمِّنها ضد زواج آرثر مرة أخرى. لقد وضعت يدها على أضعف نقطة فيه وهي حبه الخفي لذاته. فقد تزوج زهرة الثلج البيضاء التي لا تعرف الذبول. فما أسعد هذا الرجل! وقد أسيء إليه. فما أشقاه! لقد تألَّم. آه! أي قلب محب! فقد غفر لها! نعم فإن زهرة الثلج البيضاء قد غُفر لها. بل لقد خصَّها بشيء في وصيته عندما يكون ذلك الوغد ـ ولكن صه! فلنحجم حتى عن التفكير عن قرب فيما يمس "المرأة التي تدعى سنثيا" تلك الحَسَكَة الرهيبة التي تعيش في العالم الخارجي الفاسد! ولندعْ هذه النُّوارة البيضاء تزدهر فوق ربى الماضي بعيدًا عن المنال. أما الحاضر فأمره يختلف.

ونشأت الطفلتان في ذلك الجو الذي يسوده الكتمان والتقديس الناكر للذات. فقد كانتا أيضًا تريان زهرة الثلج فوق رُبى لا سبيل إلى الوصول إليها. كما كانتا تدركان أن متوَّجة في روعة منفردة تسمو على حياتهما حيث لا سبيل إلى المساس بها.

وفي الوقت نفسه كانت تنبعث من العالم القذر أحيانًا ريح عفنة شريرة محملة بالأثرة والشهوة المنحطة، ريح "المرأة التي تُدعى سنثيا" تلك الحسكة الرهيبة وذلك عندما تنجح تلك المرأة فعلًا من

وقت لآخر في إبلاغ الفتاتين رسالة صغيرة. وعندئـذ كانـت "الأم" ذات الـشعر الفضي يرتج كيانها بالكراهية. فلو أن تلك "المرأة التي تُدعى سنثيا" عادت إلى زوجها لتلاشت "الأم" من الوجود، فكانـت تنبعـث منهـا نحـو الفتـاتين نفثـة خفية من الكراهية، فهما طفلتا حسكة الشهوة العفنـة المـدعوَّة سـنثيا التـي لشد ما كانت تحتقر "الأم" في رثاء وعطف.

وقد اختلطت في ذهن الفتاتين بكل هذا ذكرى واضحة للغاية عن منـزلهما الحقيقي، وأبرشية الجنوب، وأمهـما سـنثيا التـي كانـت عـلى سـحر جمالهـا، لا يمكن الاعـتماد عليهـا كثـيراً. فقـد كانـت في ذلـك المنـزل مـصدر وهـج عظـيم ومبعث فيض من الحياة وكأنها شمس خطرة سريعة لا تفتأ تشرق وتغيب. ولم تبرح الفتاتان تربطان بين وجودهـا في المنـزل وبـين التـألق الـذي لا يخلـو مـن الخطر، كما تربطان بينها وبين سحر الجمال الذي تشوبه الأَثَرة المخيفة.

أما الآن فقد تلاشى ذلـك الـسحر، وتجمـدت عـلى قبرهـا كإكليـل الخـزف نُوارة الثلج البيضاء، كما اختفى خطـر القلـق وعـدم الاسـتقرار، وكـذلك تلـك الأثرة بما فيها من خطورة غريبة أشبه بالسباع والنمور. وسـاد الآن الاسـتقرار التام حيث يمكن أن يهلك الإنسان وهو آمن مطمئن.

ولكـنهما كانتـا تـشبَّان عـن الطـوق. وكلـما ازداد نمـوهما تجـسم ارتبـاكهما واشـتدت حـيرتهما. وكانـت "الأم" كلـما طعنـت في الـسن عشي بصرها حتى لزم أن يقودهـا أحـد في أرجـاء المنـزل. كانـت نـؤومَ

الضحى لا تستيقظ من نومها إلا قرابة الظهر. ولكنهـا سـواء عـشي بـصرها أو لزمت الفراش فقد ظلت سيدة المنزل.

وفضلًا عن ذلك فإنها لم تكن تلزم الفـراش بـل كانـت تتبـوأ عرشـها كلـما وُجد الرجال في المنزل. فلم يسمح لها دهاؤها بالاسـتـسلام للتراخـي وبخاصـة لوجود من ينافسها.

وكانت إيفيت صغرى الفتـاتين هـي أقـوى منافـساتها. فقـد ورثـت عـن "المرأة التي تدعى سنثيا" شيئًا من بهجتها الغامضة غير المبالية. ولكنها كانـت أسلس قيادًا. فربما أمسكت الجدة بزمامها في الوقت المناسب. ربما!

وهام القس حبًّا بإيفيت ودللها بشغف والهٍ وكأنه يقول لنفـسه: "ألـست رجلًا رقيق القلب متسامحًا؟!" كان يروقه أن يكون ذلك رأيه في نفـسه. وقـد وقفت "الأم" على أدق نواحي الضعف فيـه، عرفتهـا فاسـتغلتها بتحويلهـا إلى أوسمة له ولشخصيته. كان يبغي أن تكـون لـه في نظـره شخـصية فاتنـة كـما تبغي النساء اقتناء الثياب الجميلـة. وكانـت "الأم" في مكـر ودهـاء تـزين لـه عيوبه وتجمل مثالبه. فقـد أرشـدتها أمومتهـا إلى نـواحي الـضعف في نفـسه فأخفتها له بالأوسمة والنياشين في حين أن المرأة التي تدعى سنثيا...!

ولكن فلنحجم عن ذكرها في هـذا الـصدد. فـإن القـس في نظرهـا كـاد أن يكون شخصًا أحدب الظهر أبله معتوهًا.

والغريب أن الجدة كانت بينها وبين نفسها تبغض لوسيل كبرى الفتاتين أكثر من بغضها إيفيت المدللة. فقد كانت لوسيل بقلقها وسرعة انفعالها تحس بوقوعها تحت سيطرة الجدة أكثر من إيفيت شقيقتها المدللة الغامضة.

وكانت العمة سيسي من الناحية الأخرى تمقت إيفيت. بل تمقت حتى مجرد اسمها. فقد ضحت العمة سيسي بحياتها من أجل "الأم" وكانت تدرك ذلك كما كانت "الأم" تعلم أنها تدرك ذلك. ولكن تلك التضحية أصبحت تقليدًا على مر السنين، وأقر الجميع ومن بينهم "سيسي" نفسها ذلك التقليد الذي يقوم على التضحية. وطالما صلَّت العمة "سيسي" من أجل ذلك مما يدل أيضًا على أنها كانت تراودها مشاعرها الخاصة في زاوية ما من زوايا نفسها. ويحي عليها! لقد افتقدت نفسها وفقدت حياتها وجنسها. وكانت عندئذ تزحف نحو الخمسين. فتندلع في نفسها أحيانًا ألسنة خضراء غريبة من سعير الغضب وعندئذ تخرج عن وعيها.

ولكن الجدة كانت تسيطر عليها تمامًا ولم يكن للعمة سيسي من هدف في الحياة سوى رعاية "الأم".

وكانت العمة سيسي تندلع فيها أحيانًا لهُبٌ خضراء من الكراهية الجهنمية نحو الشباب جميعًا. فتأخذ المسكينة في الصلاة محاولة أن تستغفر السماء. ولكن هيهات أن تغفر هي لما حِيق بها فكان وقود النار أحيانًا ينبثق متدفقًا في عروقها.

لم تكن "الأم" كما تبدو روحًا دافئة كريمة. كلا، لم تكن كـذلك. بـل هكـذا كانت تبدو فحسب في مكر ودهـاء. وأخـذت تلـك الحقيقـة تتكـشف رويـدًا للفتاتين. فقد ضمت تلك العجوز تحت قلنسوتها الرقيقة التـي تقـادم عليهـا العهد وتحت شعرها الفضي وثوبهـا الحريـري الأسـود الـذي يغطـي جـسدها القصير اللحيم البارز إلى الأمام، كانت تضم قلبًا مـاكرًا، ولا تفتـأ تنـشد فـرض سلطانها الأنثوي. ومن خلال ضعف الرجـال الراكـدين الآسـنين الـذين تولـت تربيتهم كانت تحتفظ بسطوتها على كرِّ السنين من السبعين إلى الثمانين ومن الثمانين إلى التسعين وهي دور حضانتها الجديدة.

فقد كـان في الأسرة تقليـد كامـل "للـولاء"، ولاء كـل فـرد للآخـر وبخاصـة "للأم". فلا شك أن الأم كانت محور الأسرة. ولم تكن الأسرة إلا امتـدادًا لـذاتها. فكان مـن الطبيعـي أن تفـرض عليهـا سـلطانها. أمـا أبناؤهـا وبناتهـا فكـانوا لضعفهم وانحلالهم يدينون لها طبعًـا بـالولاء، فـماذا ينتظـرهم خـارج نطـاق الأسرة سوى الخطر والمهانة والعار؟ ألم يمـر القـس بتلـك التجربـة في زواجـه؟ ولذلك وجب الحذر! الحذر والولاء في مواجهة العالم! فليكن "في داخل نطـاق الأسرة" ما شئتم من كراهية وحزازات. أما في مواجهة العالم الخارجي فـلا بـد أن يكون هناك سور عنيد من التآلف والانسجام.

(2)

ولكن الفتاتين لم تشعرا بعبْء اليد الهرمة العجفاء التي أناخت بها جدَّتُهما على حياتهما إلا بعد عودتهما نهائيًّا من المدرسة. فعندئذ كانت لوسيل تناهز الحادية والعشرين من عمرها. أما إيفيت فقد أتمت التاسعة عشرة. وقد تلقتا تعليمهما في مدرسة مشهورة للفتيات ثم قضتا السنة النهائية من دراستهما في لوزان. وكانتا لا تخرجان عن المألوف في شيء فهما شابتان طويلتان نضر وجهاهما في حساسية وقصر شعرهما واتسمت طباعهما بخشونة الشباب وعدم المبالاة.

قالت إيفيت أثناء وقوفهما على ظهر قارب المانش لتراقبا صخر دوفر الرمادية وهي تدنو منهما:

ــ إن ما يبعث على السأم الشديد في بابلويك، هو خُلُوها من الرجال! لم لا يصادق أبي بعض الرجال المرحين؟ أما العم "فرد" فإنه لا يُطاق!

وقالت لوسيل في مزيد من الفلسفة:

ــ لا يمكنك مطلقًا أن تتنبئي بما سيطرأ على القرية من أحداث.

فقالت إيفيت:

ـ أنت تعلمين جيدًا ماذا ينتظرنا. جوقات التراتيل في أيام الآحاد التي أبغض منها الجوقات المختلطة. فأصوات الفتيان "جميلة" في غيبة النساء. وكذلك مدرسة الأحد وجمعية الصداقة للفتيات وحفلات السمر وكل من يسأل عن صحة الجدة من العجائز العزيزات؟ أما الشباب المهذب فقلما تجدينه.

فقالت لوسيل:

ـ لست أدري! فهناك أسرة فريملي. وأنت تعلمين أن "جري سومركوتس" يهيم بك حبًا.

فصاحت إيفيت رافعة أنفها الحساس إلى أعلى:

ـ "ولكني أمقت الذين يلاحقونني! فهم يبعثون في نفسي الملل. فلشد ما يثقلون عليَّ".

ـ إذا كنت لا تطيقين أن تكوني معبودة إذن فماذا تبغين؟ فحبذا لو كان الإنسان معبودًا. أنت تعلمين أنك لن تقترني بأحد منهم. فلِمَ لا تسمحين لهم بملاحقتك ما داموا يجدون في ذلك ما يرفه عنهم.

فصاحت إيفيت قائلة:

ـ ولكني أريد أن أتزوج.

ـ حسنًا. عليك إذن أن تسمحي لهم بملاحقتك إلى أن تجدي بينهم من يمكنك الزواج به.

ـ لا ينبغي مطلقًا أن أتزوج بهذه الطريقة فإني لا أنفـر مـن شيء نفـوري ممن يلاحقـونني. فلـشد مـا يبعثـون في نفـسي الملـل! كـما أنهـم يـشعرونني بقسوتي.

ـ وهذا هو إحساسي عنـدما يُلحُّـون عـليَّ. ولكـنهم عـن بعـد يبـدون لي ظرفاء إلى حد ما.

ـ أريد أن أقع في حب عنيف.

ـ هذا محتمل جدًّا! ولكنني لا أرغـب في ذلـك! فـإن نفـسي تأبـاه! وربمـا راودك ذلك الشعور إن تحقق فعلًا ما تريدين. علينا أولًا أن نستقر قليلًا قبل أن نبحث عما نريد.

فصاحت إيفيت رافعة أنفها الغض الحساس:

ـ ولكن ألا تكرهين العودة إلى بابلويك؟

ـ كلا، ليس هذا شعوري تمامًا فإني أعتقد أننا سنشعر بالملـل إلى حـد مـا. ولكنـي أتمنـى لـو اشـترى أبي سـيارة، حتـى لا نـضطر إلى إخـراج دراجتينـا القديمتين. ألا تحبين أن تذهبي إلى تانزي مور؟

ـ ما أجمل هذا! مع أنه لشد ما يرهقنـي أن أدفـع دراجتـي القديمـة إلى أعالي تلك التلال.

كانت السفينة تقـترب مـن الـصخور الرماديـة وقـد أصـاف الجـو، ولكنه مع ذلك كان يومًا غائمًا. فارتدت كلتـا الفتـاتين سـترتها ورفعـت ياقتها الفرائية وجذبت قبعتهـا الـصغيرة الأنيقـة حتـى غطـت أذنيهـا.

ولشد ما اتسمت الفتاتان بالطابع الإنجليزي لطول قامتيهما النحيلتين ونضارة وجهيهما الساذجين اللذين يوحيان رغم ذلك بثقة بالنفس تجاوزت الحدود في عُنجهية تميزت بها طالبات المدارس، ولشد ما بدا عليهما التحرر مع أنهما كانتا في الواقع ترسفان في الأغلال وقد تعقدت نفسيتهما أشد التعقيد، ولشد ما بدا عليهما الإقدام والخروج عن التقاليد في حين أنهما كانتا في الحقيقة تحافظان عليها إلى حد كبير يحدوهما انطواء شديد وكأنما احتبست كلتاهما طي نفسها. لقد بدتا أشبه بقاربين طويلين قويين جريئين انطلقا لتوهما من المرفأ ليجوبا بحار الحياة الشاسعة في حين أنهما كانتا في الواقع حياتين صغيرتين مسكينتين تسيران على غير هدى وهما تنتقلان من مرسًى إلى آخر.

ولشد ما خاب رجاؤهما عند دخولهما الأبرشية. فقد بدت قبيحة يكاد يميل لونها إلى القتامة، وقد شاع فيها ذلك الجو الرطب الذي تتميز به وسائل الراحة البالية عند الطبقة المتوسطة، تلك الوسائل التي لم تعد توفر الراحة بل صارت قذرة خانقة. فبدا لهما ذلك المنزل الحجري الصلب مفتقرًا إلى النظافة دون أن تعرفا لذلك سببًا. وبدا الأثاث العتيق البالي قذرًا على صورة ما. لم يكن هناك شيء جديد حتى الطعام الذي يقدم في الوجبات، كان يتسم بطابع كئيب بشع من القذارة التي لشد ما ينفر منها الشباب العائدون من الخارج. وكان الطعام يتألف من الشواء البقري والكرنب ولحم الضأن البارد والبطاطس "البيوريه" الممهوكة والمخللات الحامضة والحلوى الرديئة.

كما كانت الجدة التي "تهوى القليل من لحم الخنزير" تُعَدُّ لها ألوان خاصة من الطعام، كالحساء الدسم والخبز وقطعة صغيرة من الحلوى لذيذة الطعم. أما العمة سيسي ذات الوجه الشاحب فإنها كانت لا تأكل شيئًا قط. بل تجلس إلى المائدة وتتناول بطاطسة واحدة مقشورة مسلوقة لا غير، ثم تضعها أمامها على صحفتها. وأما اللحم فكانت لا تأكله ألبتة. ثم تواصل جلستها في كآبة أثناء تناول الطعام في حين تلتهم الجدة نصيبها وتغطيه بسيل من لعابها، وعندما لا يسقط شيء على بطنها المنتفخ يكون ذلك من حسن حظها. ولم يكن الطعام شهيًّا في حد ذاته. وكيف يمكن أن يكون كذلك والعمة سيسي نفسها تكره الطعام وتكره تناوله، ولا يمكنها مطلقًا أن تحتفظ بخادم لمدة ثلاثة شهور؟ وكانت الفتاتان تأكلان في نفور. ولكن لوسيل كانت تتحمل ذلك في شجاعة. أما إيفيت فكان أنفها الرقيق ينبئ بنفورها. ولم يكن يلقي النكات بعدما يمسح بفوطته شاربه الرمادي الطويل سوى راعي الكنيسة وقد ألم برأسه المشيب. كان هو أيضًا يزداد ثقلًا وجمودًا فقد كان يقضي سحابة يومه جالسًا في مكتبه ولا يمارس الرياضة أبدًا. ولكنه كان لا يفتأ يلقي النكات السريعة الساخرة وهو قابع هناك في كنف "الأم".

وكان الريف بتلاله الوعرة ووديانه العميقة الضيقة. ينبض بقوة غلابة نابعة من ذاته رغم كآبته. وعلى مسافة عشرين ميلًا كانت تقوم تلك الحركة الصناعية السوداء في الشمال. أما قرية بابلويك فكانت منعزلة إلى حد ما بل تكاد تكون تائهة، ولشد ما قست فيها

الحياة! فكان كل ما فيها حجريًّا صلبًا على صورة تكاد تكون شاعرية، ولكنها قاسية عنيفة في نفس الوقت.

وحدث كل شيء وفقًا لما كانت تتوقعه الفتاتان، فقد عادتا إلى جوقة الترتيل. وقدَّمتا يد المساعدة إلى دائرة الأبرشية. ولكن إيفيت أضربت تمامًا عن الانضمام إلى مدرسة الأحد أو رابطة الأمل أو جمعيات الصداقة للفتيات، وفي الواقع فإنها أضربت عن الاشتراك في جميع الأعمال التي تتولى شؤونها عوانس عنيدات وكهول أغبياء متعنتون كما تجنبت واجبات الكنيسة ما أمكنها ذلك. وكانت تهرب من الأبرشية ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا. حيث تجد في أسرة فريملي الكبيرة المرحة غير المنظمة التي تقيم في المنزل الريفي سندًا قويًّا لها. ولم تفتأ إيفيت تقبل في الحال كل دعوة توجه إليها لتناول وجبة في خارج الدار أو حتى لتناول الشاي في منزل أحد العمال إذا ما دعتها إحدى النساء. بل إنها في الواقع كانت تجد في ذلك بعض الإثارة. فكانت تهوى التحدث إلى العمال الذين غالبًا ما كانوا يمتازون برءوس قوية جميلة للغاية. ولكنهم بالطبع كانوا يعيشون في عالم آخر.

وهكذا مرت الشهور. وكان "جري سومر كوتس" لا يزال يلاحقها. كما كان هناك غيره أيضًا من أبناء المزارعين وأصحاب المصانع الصغيرة. وفي الواقع فإن إيفيت كان ينبغي أن تقضي وقتًا ممتعًا فإنها لم تفتأ تدعى إلى حفلات الرقص ويجيئها الأصدقاء

بـــسياراتهم فـــترافقهم إلى المدينـــة لحـــضور الحفـــل الـــراقص المُقـــام في الفندق الرئيسي في المساء أو في قصر الـرقص الجديـد الفخـم المعـروف باسـم "بالي".

ومع ذلك فقد كانت تبـدو دائمًـا وكأنهـا منومـة تنويمًـا مغناطيـسيًّا، فلـم تشعر قط بالحرية لتكتمل لها بهجتها. بل ثمة ضيق لا يطاق كـان يعتمـل في أعماق نفسها ولا يفتـأ يتفـاقم لاعتقادهـا أنـه "لا ينبغـي" لهـا أن تـشعر بـه ولإحساسها نحوه بالكراهية. ولم تعرف قط مصدر ذلك الضيق.

أما في المنزل فكانت في الحقيقـة سريعـة الانفعـال شـديدة الوقاحـة مـع العمة سيسي. وفي الواقع فإن مزاح إيفيت العنيف أصبح مـضرب الأمثـال في الأسرة.

أما لوسيل التي كانت دائمًا أكثر ميلًا إلى الناحية العملية فقـد حـصلت في المدينـة عـلى وظيفـة سـكرتيرة خاصـة لرجـل كـان في حاجـة إلى مـن يـتكلم الفرنسية بطلاقة ويعرف الاختزال. وكانت تروح وتغدو كل يوم بنفس القطار الذي يستقله العم "فرد". ولكنها لم ترافقه قط في السفر، فقـد كانـت لوسـيل تركب دراجتها إلى المحطة سواء أكان الجو صحوًا أو مطيرًا في حين يقطـع هـو المسافة مشيًا على الأقدام.

وقـررت الفتاتـان أنهـما تنـشدان الحيـاة الاجتماعيـة التـي تتـسم بـالمرح الحقيقـي. ولـشد مـا أحـستا بالاسـتياء لأن الأبرشـية كانـت لا تـصلح مطلقًـا

لاستقبال أصدقائهما. فكان الطابق السفلي لا يحوي سوى أربع غرف، المطبخ حيث تعيش الخادمان الساخطتان وغرفة الطعام المعتمة ومكتبة القس وغرفة الجلوس الفسيحة "البسيطة" الكئيبة. وكانت في غرفة الطعام مدفأة بالغاز. ولم تكن هناك نار حامية قوية على الدوام إلا في غرفة الجلوس. وذلك بالطبع لأنها مملكة الجدة.

وكانت الأسرة تجتمع في تلك الغرفة حيث كان العم "فرد" وراعي الكنيسة يلاعبان الجدة دائمًا في المساء بعد العشاء بفوازير الألفاظ المتقاطعة.

ـ والآن يا أماه هل أنت مستعدة للعب؟ "ن" ثم فراغ وفراغ وفراغ وفراغ ثم "و": موظف سيامي.

ـ ماذا؟ ماذا؟ "م" فراغ وفراغ وفراغ ثم "و"؟ فقد كانت الجدة تشكو وقرًا بأذنيها.

ـ لا يا أماه. ليست "م"! إنما "ن" ثم فراغ وفراغ وفراغ ثم "و": موظف سيامي.

ـ "ن" وفراغ وفراغ ثم "و" موظف صيني.

ـ سيامي.

ـ ماذا؟

ـ سيامي؟ سيام!

فقالت السيدة العجوز بصوت عميق عاقدة يديها على بطنها المستدير:

ـ موظف سيامي؟ والآن. ماذا يمكن أن يكون ذلك؟

وراح ولداها يقترحان الحلول فتعلق عليها قائلة: "آه! آه"؟ وكان القس يمتاز بمهارته المدهشة في حل فوازير الألفاظ المتقاطعة. أما "فرد" فكان يحفظ بعض المفردات الفنية.

فقالت العجوز عندما حار الجميع في الحل: "لا شك أنه يتعذر حلها".

وفي أثناء ذلك كانت لوسيل جالسة في إحدى زوايا الغرفة وقد وضعت يديها على أذنيها متظاهرة بالقراءة، في حين راحت إيفيت بانفعالية تعمل في رسومها أو تهمهم بألحان مدوية مثيرة لإدخال عنصر جديد في موسيقا الأسرة، وفي حين أن العمة سيسي لم تفتأ تتناول قطعًا من الشوكولاتة. جلست على مسافة بعيدة منهم وهي تضع في فمها قطعة أخرى ثم تتصفح من جديد مجلة الأبرشية. ثم رفعت رأسها فرأت أنه قد حان الوقت لإحضار الدواء للجدة.

وعندما ذهبت، فتحت إيفيت النافذة في ضيق وسخط. فإن جو الغرفة كان لا يتجدد مطلقًا حتى خيل لها أنها تفوح برائحة الجدة. وكانت الجدة بسمعها الثقيل تسمع كل شيء كبنات عِرس عندما لا يُراد لها أن تسمع.

قالت:

ـ هل فتحت النافذة يا إيفيت؟ لعلك تذكرين أن في الغرفة من هم أسنُّ منك.

ـ إن الجو خانق! لا يتحمل! ولا عجب إن كنا جميعًا لا نفتأ نصاب بنزلات البرد.

فارتجفت العجوز قليلًا ثم قالت:

ـ إني واثقة أن الغرفة فسيحة للغاية. كما أن نارًا حامية تشتعل في المدفأة. وثمة تيار واحد من الهواء كفيل بأن يودي بنا جميعًا.

فزأرت إيفيت قائلة:

ـ ليس هناك تيار على الإطلاق بل نسمة من الهواء الطلق.

فارتجفت العجوز مرة أخرى قائلة:

ـ حقًّا!

واتجه القس في هدوء إلى النافذة حيث أوصدها دون أن ينظر في أثناء ذلك إلى ابنته. فقد كان يكره أن يعارضها. ولكنها يجب أن تعرف ما يضر وما ينفع!

وتستمر فوازير الألفاظ المتقاطعة التي هي من خَلق الشيطان نفسه إلى أن تتناول الجدة دواءها ويحين موعد نومها. وعندئذ تتم مراسيم

الفراق! فيقف الجميع وتتقدم الفتاتان إلى العجوز العمياء لتقبلهما ثم يمد القس إليها ذراعه ومن خلفهما تسير العمة سيسي ممسكة بشمعة في يدها.

ولكن الساعة قد بلغت التاسعة وكان يجب أن تأوي الجدة إلى فراشها قبل ذلك. فإنها تتقدم حقيقة في العمر. ولكنها عندما ترقد في فراشها لا تستطيع النوم حتى تأتي العمة سيسي.

قالت الجدة:

ـ أتعلمين أنني لم أنم وحدي قط؟ فلم تمر ليلة واحدة دون أن تضمني ذراع "الأب" لمدة أربع وخمسين سنة. وعندما وافاه الأجل حاولت أن أنام وحدي. ولكنني أؤكد لك أن قلبي كاد يثب من بين ضلوعي ورقدت في فراشي تنتابني نوبة من الخفقان. لكِ أن تعتقدي ما شئت. ولكنها كانت تجربة رهيبة بعد حياة زوجية مثالية استمرت أربعًا وخمسين سنة! كان بودي أن أصلي لأموت قبله. ولكن "الأب" لا. لا أعتقد أنه كان يمكنه أن يتحمل الصدمة.

وهكذا فإن العمة سيسي كانت تنام مع الجدة. ولكنها كانت تكره ذلك. وتقول إنها لا تستطيع النوم مطلقًا. ولم تفتأ تزداد شحوبًا على شحوب ويزداد الطعام في المنزل سوءًا على سوء. كان لا بد أن تجرى جراحة للعمة سيسي.

ولكن الأم كانت تنهض من نومها كعادتها حوالي الظهيرة وترأس المائدة عند تناول الغداء وهي في متكئها وقد برز بطنها إلى الأمام

وتدلي وجهها في هدوء أسفل جدار هامتها المرتفع وهو يهتز مائلًا إلى الحمرة يحيط به جلال رهيب. وقد شخصت عيناهـا الزرقـاوان دون أن تبـصرا شـيئًا. أما شعرها الأبيض فكان يقل تـدريجيًّا وكـان في مجموعـه شـائنًا إلى حـد مـا. ولكن القس كان يلقي بنكاته في مرح على مسامعها وهي تتظاهر بالاستنكار. ولكنها لشد ما كانت راضية وهي جالسة في انبعاجها الهرِم تطلق الـريح مـن معدتها عقب الوجبات وتضغط بيدها على صدرها وهي تتجشأ في رضًا بـدني مبتذل.

ولشد ما كان يقلـق الفتـاتين عنـدما تـدعوان أصـدقاءهما مـن الـشباب إلى المنزل وجود الجدة دائمًا كوثن رهيب من اللحم الهرم مستأثرة بانتبـاه الجميـع. ولم يكن بالمنزل سوى غرفة واحدة يجلس فيها الجميع. كما تجلس فيها العجوز التي تحرسها العمة سيسي في يقظة وحِدَّة. ولذا وجب أولًا أن يقدم كل زائر إلى الجدة، وكانت على استعداد لملاطفتهم فقد كانت تميل إلى الصحبة. وكان لا بـد أن تعرف كل زائر ومسقط رأسه وظروف حياته جميعًا. وعندئـذ ـوقـد صـارت على علم بكل شيء ـ يمكنها أن تتولى الحديث وتوجه دفته.

ولم يكن ثمة ما يمكن أن يثير سخط الفتاتين أكثر من ذلك. فكان الأصدقاء يتعجبون قائلين: "أليست مسز سايول العجوز مثار العجب؟! فلشد ما تبـدي اهتمامًا بالحياة وهي تناهز التسعين من عمرها".

فتقول إيفيت:

ـ لا شك أنها تهتم بشئون الناس إذا كانت هذه هي الحياة.

ثم لا يلبث أن يراودها على الفور شعور بالذنب. فإنه لمما يدعو إلى العجب قبل كل شيء أن يحظى المرء بصفاء الذهن على هذه الصورة وهو يناهز التسعين من العمر! كما أن الجدة لم تلحق الأذى "فعلًا" بأحد قط. بل الأحرى أنها كانت لا تفتأ تعترض الطريق. وربما كان من القسوة إلى حد ما أن نُحس بالكراهية نحو الناس لشيخوختهم واعتراضهم الطريق.

وما لبثت إيفيت أن شعرت بالندم فرقَّت لها. وأشرقت الجدة بذكريات الصبا في تلك البلدة الصغيرة في بكنجهام شير، فراحت تثرثر وتثرثر ولشد ما كانت أنيسة مسامرة. كما كانت تثير العجب إلى حد ما.

وفي المساء انضمت إليهم لوتي وإيلا وبوب فريملي مع ليو وذريل.

وما إن سمح لهم بالدخول حتى تتابعوا إلى غرفة الجلوس حيث كانت الجدة تجلس بالقرب من النار وقد ارتدت قبعتها البيضاء.

ـ أقدم لك يا جدتي مستر وذريل.

ـ مستر ماذا قلت؟ يجب أن تعذرني يا بني فإن سمعي ثقيل إلى حد ما!

ومدت الجدة يدها للشاب المحرج وحملقت فيه صامتة دون أن تراه. وسألته قائلة:

ـ إنك لست من أبناء دائرة أبرشيتنا؟

فصاح قائلًا:

ـ وينجتون!

وقالت إيلا في صوت خفيض:

ـ نريد أن نقوم غدًا بنزهة إلى بونسول هدّ في سيارة ليو، يمكننا أن نندس فيها جميعًا.

فسألت الجدة:

ـ هل قلت بونسول هدّ؟

ـ نعم!

وساد الصمت.

ـ أقلت إنكم ذاهبون في سيارة؟

ـ نعم! في سيارة مستر وذريل.

ـ أرجو أن يكون سائقًا ماهرًا. فما أخطر هذا الطريق!

ـ إنه ماهر للغاية.

ـ ألا يحسن القيادة؟

ـ بلى! فما أبرع القيادة!

ـ إن كنتم ذاهبين إلى "بونسول هدّ" فأعتقد أنني يجب أن أحملكم رسالة إلى الليدي لوث.

وكانت الجدة لا تفتأ تقحم اسم تلك السيدة التعسة كلما وُجدت في مجمع من الناس.

فصاحت إيفيت قائلة:

ـ كلا. فلن نسلك هذا الطريق.

فقالت الجدة:

ـ أي طريق؟ لا بد لكم من أن تذهبوا عن طريق هينور.

فجلست الجماعة كلها كالبط المحشو على حد تعبير بوب وهم يتململون في مقاعدهم.

ودخلت العمة سيسي، ثم جاءت الخادم بالشاي حاملة تلك الكعكة الأزلية المشتراة من السوق. ثم جيء بصحفة ملئت بالكعك الصغير الطازج الذي أرسلت العمة سيسي في طلبه فعلًا من الخباز.

ـ الشاي يا أماه!

فأمسكت العجوز بمسندي متكئها. ونهض الجميع وقوفًا في حين خاضت هي طريقها في بطء عبر الغرفة معتمدة على ذراع العمة سيسي حتى بلغت مكانها من المائدة.

وعادت لوسيل من عملها في المدينـة أثنـاء تنـاول الـشاي وقـد نـال منهـا الإعياء. فظهرت علامات سوداء أسفل عينيهـا. ومـا إن رأت كـل ذلـك الجمـع حتى أطلقت صيحة فرح.

وما كادت الضجة تهدأ ويعود الحرج سيرته الأولى حتى قالت الجدة:

ــ إنك لم تذكري لي قط يا لوسيل اسم المستر وذريل. أليس كذلك؟

فقالت لوسيل:

ــ لا أذكر.

ــ لا يمكن أن تكوني قد ذكرته لي، فالاسم غريب على سمعي.

وتناولت إيفيت في ذهول كعكة أخرى من الصحفة التي كادت عندئذ أن تفرغ. وأحست العمة سيسي بالغضب الأخـضر ينـصهر في قلبهـا فقـد كانـت تصرفات إيفيـت الغامـضة التـي لا تعبـأ بمـشاعر الآخـرين تكـاد تـدفعها إلى الجنون. فالتقطت صـحفتها التـي لا تحـوي سـوى قطعـة واحـدة كانـت قـد أخذتها لنفسها وقالت في أدب لافح لاذع وهي تقدمها إلى إيفيت:

ــ ألا تأخذين قطعتي؟

فقالت إيفيت مفزوعة وهي في غموضها المحنق:

ــ شكرًا!

ثم تناولت تلك القطعة أيضًا متظاهرة بعدم الاكتراث وأردفت تقول وكأنها قد عاودت التفكير في الأمر:

ـ إن كنت لا ترغبين فيها حقًّا.

عندئذ اجتمعت لها في صحفتها كعكتان. فابيض وجه لوسيل حتى صارت كالشبح وهي منحنية فوق قدر الشاي. وجلست العمة سيسي وقد ارتسم على وجهها تعبير أخضر للاستسلام التام. ولشد ما كان الحرج أليمًا.

ولكن الجدة التي تبوأت عرشها بجثمانها الضخم دون أن تعي شيئًا مما يدور حولها، قالت في وسط ذلك الإعصار.

ـ إن كنت ذاهبة غدًا بالسيارة يا لوسيل إلى "بونسول هدّ" فأرجو أن تحملي مني رسالة إلى الليدي لوث.

فقالت لوسيل وهي ترمق العجوز العمياء بنظرة غريبة عبر المائدة، وكانت الليدي لوث تمثل عند الأسرة رأس الملك شارل وكانت الجدة لا تفتأ تقدمها لتثير بها اهتمام الزائرين.

ـ حسنًا!

ـ فلشد ما كانت رقيقة في الأسبوع الماضي، حين أرسلت إليَّ مع سائقها كتابًا لفوازير الألفاظ المتقاطعة.

فصاحت إيفيت قائلة:

ـ ولكنك عندئذ أسديت لها الشكر.

ـ أحب أن أبعث إليها برسالة.

فصاحت لوسيل قائلة:

ـ يمكننا إرسالها بالبريد.

ـ كلا. بل أريدك أن تحمليها إليها. فعندما زارتني الليدي لوث في المرة الأخيرة...

وكان الشباب يجلسون كحشد من الأسماك الصغيرة التي تفتح أفواهها الخرساء وتغلقها فوق سطح الماء، على حين واصلت الجدة حديثها عن الليدي لوث. وكانت العمة سيسي كما لاحظت الفتاتان لا تزال عاجزة عن الكلام بل تكاد تكون غائبة عن الوعي وقد استبدت بها نوبة من الغضب الشديد بسبب الكعكة، وربما كانت المسكينة مشغولة بالصلاة.

ونزلت رحمة السماء عندما رحل الأصدقاء، ولكن الفتاتين كانتا عندئذ زائغتي البصر. وفجأة تمثلت لعيني إيفيت ـوهي تنظر حولهاـ قوة العزم الصلبة التي لا تكل عن فرض السيطرة ممثلة في جدتها العجوز التي تتظاهر بالأمومة. فقد كانت تجلس جامدة في مقعدها وقد برز جثمانها إلى الخلف دون أن يبدو عليها انفعال ما. وقد ترقَّط إلى حد ما وجهها الهرم المهتز المائل إلى الحمرة وهو في شبه غيبوبة

ولكنه صارم قاسٍ. كان أشبه بقناع يخفي وراءه شيئًا صلبًا لا يلين. إنه ذلك الجمود الثابت لسطوتها البغيضة. ولكنها لن تلبث أن تفتح فاها الهرم لتقف على كل صغيرة وكبيرة عن ليو وذريل. بيد أنها كانت وقتذاك مستغرقة في سبات هرمها وشيخوختها. ولكن فمها لن يلبث أن يفتح، ولن يلبث ذهنها أن يخفق مستيقظًا ثم تأخذ في التحري عن كل صغيرة وكبيرة، بما لديها من نهم في الحياة لا يعرف الشبع، في حياة غيرها من الناس. كانت أشبه بذلك الضفدع الهرم الذي راقبته إيفيت وهي مأخوذة، وقد ربض على حافة خلية النحل أمام مدخلها الصغير الذي كان يخرج منه النحل، ولم يفتأ يلتهم كل نحلة تخرج منه مندفعة في الهواء بنهشة شيطانية خاطفة كالبرق من فكيه الممدودين ثم يبتلعها إحداهما تلو الأخرى، حتى بدا وكأنه في مقدوره أن يأتي على الخلية بأسرها ويستوعبها في جوفه المغضن الهرم البارز المنتفخ. لقد ظل ذلك الضفدع أجيالًا يلتهم النحل كل ربيع ساعة اندفاعه في الهواء سنة بعد سنة.

ولكن البستاني الذي نادته إيفيت تملكه الغضب الشديد فقتل الضفدع بحجر. ثم قال وهو يهوي به عليه:

ـ قد تصلح لالتهام القواقع. ولكنك لن تفرغ خلية النحل في أحشائك.

(3)

كان اليوم التالي كئيبًا ملبدًا بالغيوم، ولشد ما ساءت الطرق، فقد ظل المطر ينهمر مدة أسابيع، ومع ذلك قامت الصغيرتان برحلتهما، دون أن تحملا رسالة الجدة. فقد انسلَّتا إلى الخارج أثناء قيامها عقب الغداء برحلتها البطيئة إلى الطابق العلوي. فإنهما ما كانتا لتذهبا إلى بيت الليدي لوث مهما كان الثمن. فقد صارت أرملة ذلك الطبيب الحاصل على وسام النبالة شيئًا بغيضًا في حياتهما رغم أنها مخلوق غير مؤذٍ بالفعل.

جلس في السيارة ستة من المتمردين الصغار، ولشد ما شمخوا بأنوفهم في اعتداد بالذات، والسيارة تخوض بهم الأوحال في حفيف، ومع ذلك كانت تبدو عليهم أيضًا سيماء الضيق. فلم يكن في حياتهم، قبل كل شيء، ما يتمردون عليه في الحقيقة. إذ أتيحت لهم الحرية التامة في تحركاتهم. وسمح لهم آباؤهم بأن يفعلوا تقريبًا كما يشاءون. فلم يكن في الواقع قيد يراد تحطيمه أو قضيب سجن يطلب قطعه، أو مزلاج يُبغى كسره، بل كانت مفاتيح حياتهم في أيديهم تتدلى ساكنة بلا حراك. فإن تحطيم قضبان السجن كان في نظرهم أيسر بكثير من فتح أبواب الحياة التي لم تستكشف بعد. هذا هو ما يتبينه الجيل الصغير في شيء من الأسى.

حقًّا كانت هناك تلك الجدة. ولكنك لا تستطيع فعلًا أن تقول لهذه الجدة العجوز المسكينة: "فلترقدي أيتها العجوز وتموتي"! قد تكون مصدرًا للإزعاج. ولكنها في الحقيقة لم تأتِ شرًّا قط. فلا يحق لهم أن يبغضوها.

وهكذا انطلق الشباب في رحلتهم محاولين أن يكونوا في أسعد حالاتهم النفسية. حقًّا كان في وسعهم أن يفعلوا ما شاءوا. ولذلك لم يكن هناك بالطبع ما يفعلونه سوى أن يجلسوا في السيارة ويتناولوا غيرهم بكثير من النقد ويستعرضوا شهامة غزلية سخيفة تبعث على الملل إلى حد ما. حقًّا ليت هناك فقط بعض "الأوامر المشددة" التي يمكن عصيانها أو التمرد عليها! ولكن لا شيء، فيما عدا رفض الفتاتين حمل الرسالة إلى الليدي لوث. وسوف يوافق القس على ذلك لأنه كان لا يشجع أيضًا "رأس الملك شارل".

وفي أثناء سيرهم خلال القرى القاتمة الحزينة، راحوا ينشدون فقرات متقطعة إلى حد ما من أحدث الأغاني التي قصد بها أن تكون مضحكة. وكانت الغزلان في المرعى تجري في جماعات على مقربة من الطريق، جماعات من الظباء من مختلف الأنواع تجمعت هادئة في ظلام المساء، تحت أشجار البلوط، قريبًا من الطريق، وكأنها تنشد صحبة البشر بما فيها من إثارة.

وأصرَّت إيفيت على الوقوف والنزول من السيارة للتحدث إليها وخاضت الفتيات بأحذيتهن الروسية خلال الحشائش المبتلة في حين راحت

الغزلان تراقبهن بعيون واسعة غير مذعورة. وركض الأيِّل بعيدًا في هدوء رافعًا رأسه إلى الخلف بسبب ثقل قرنيه. أما أنثاه فقد رفعت أذنيها الكبيرتين ولم تنهض من مكانها تحت الشجرة ومن حولها صغارها التي لم تكبر بعد حتى كادت الفتيات أن يلمسنها. ثم سارت الأم بعيدًا في خفة رافعة ذيلها عن أليتيها المرقطتين، وراحت صغارها تركض خلفها في خفة وهدوء.

فصاحت إيفيت قائلة:

ـ أليست هذه الغزلان غاية في الرقة والرشاقة؟! وإنك لتعجبين كيف يمكنها أن ترقد في راحة تامة على هذا العشب المبلل الشنيع.

فقالت لوسيل:

ـ أعتقد أنها لا بد أن ترقد بعض الوقت. كما أن العشب تحت الشجرة جافٌّ إلى حد ما.

ثم نظرت إلى حيث رقدت الغزلان فرأت العشب مدعوسًا.

وذهبت إيفيت إلى هناك حيث مدَّت يدها لتختبر ملمس العشب ثم قالت في شك:

ـ نعم! أعتقد أنه دافئ إلى حد ما.

وتجمعت الغزلان مرة أخرى على مسافة بضع ياردات حيث وقفت بلا حراك في ظلام المساء. وفيما وراء النهر المندفع ـ يعلوه ذلك الجسر المسوَّر ـ ظهر عن بعد أسفل منحدرات الحشائش

والأشجار، بيت الدوقة حيث كان يتصاعد الدخان الأزرق من مدخنة أو اثنتين. ومن خلفه ظهرت غابات تميل إلى اللون القرمزي.

ووقفت الفتيات يراقبن المنظر في صمت، وقد رفعت كل منهن بإحدى يديها ياقة سترتها الفرائية حتى أذنيها في حين تدلت اليد الأخرى من طرف ذراع طويلة. وكانت أحذيتهن الروسية الواسعة تحميهن من العشب المبلل. وعلى مسافة بعيدة ظهر البيت الكبير بشكله المربع ولونه الرمادي المائل إلى الصفرة. كما انتشرت الظباء على مقربة منهن في جماعات صغيرة تحت الأشجار الهرمة. ولشد ما بدا كل شيء هادئًا طبيعيًّا حزينًا.

وقالت إيلَّا:

ـ إني لأعجب أين يقيم الدوق الآن.

فقالت لوسيل:

ـ ليس هنا. أعتقد أنه في الخارج حيث الشمس المشرقة.

ودوَّى من الطريق صوت نفير السيارة ثم سمع صوت ليو وهو يقول:

ـ هيا بنا أيها الأصدقاء! يحسن بنا أن نتحرك إن كنا نريد الوصول إلى "الهيد" ثم إلى "آمبرديل" لتناول الشاي.

فتزاحموا مرة أخرى في داخل السيارة بأقدامهم المقرورة، وانطلقت بهم عابرة المرعى ومارةً في طريقها ببرج الكنيسة الصامت.

ثم خرجت من البوابات الكبيرة وعبرت الجسر مخترقة قرية وود لنكن الحجرية الرطبة الواسعة التي يشقها النهر. ثم سارت السيارة مدة طويلة في أوحال الوادي ورطوبته وظلامه تعلوها في معظم الأحيان صخور خالصة. ويحف بها من أحد الجانبين صخب الماء وضجيجه ومن الجانب الآخر صخور وعرة أو أشجار قاتمة.

وظلوا على تلك الحال يسيرون في ظلام الأشجار التي تتدلى أغصانها من فوقهم إلى أن بدأوا يرقبون التل وعندئذ زاد ليو من سرعة السيارة التي جاهدت لتصعد في بطء خلال الأوحال الرمادية المائلة إلى البياض حتى اخترقت قرية "بول هيل" الواقعة على المنحدر حول الصليب القديم بدرجاته التي تفوح منها تلك الرائحة الخلابة لكعك الشاي الساخن ثم تجاوزتها وهي تصعد تحت الأشجار التي تتساقط منها قطرات الماء مارَّة بالمنحدرات الوعرة حيث تنمو نباتات الديشار، وهي لا تفتأ تواصل طريقها إلى أعلى التل حتى قل عمق الأرض وانتهت الأشجار وأصبحت المنحدرات على جانبي الطريق عارية إلا من العشب القاتم والأسوار الحجرية المنخفضة ثم أشرفوا على "الهيد".

وساد الصمت بعض الوقت. وقد امتد العشب على جانبي الطريق ثم ظهر سور حجري منخفض، ومن بعده ذلك المنحنى المرتفع الذي يؤدي إلى قمة التل تحف به الجدران الحجرية الجافة الخفيضة. ومن فوقهم امتدت السماء الملبدة بالغيوم.

وانطلقت السيارة تسير فوق القمم العارية تحت السماء الرمادية الواطئة. وصاح ليو قائلًا:

ـ هل تمكث هنا لحظة؟

فصاحت الفتيات:

ـ نعم! بالطبع!

وتسللوا إلى خارج السيارة مرة أخرى ليلقوا نظرة على المكان الذي كانوا يعرفونه جيدًا. ومع ذلك فكلما جاء زائر إلى "الهيد" خرج من سيارته ليلقي عليه نظرة.

وكانت التلال أشبه بمفاصل الأصابع وفيما بينها وهاد ضيقة وعرة مظلمة. وثمة قطار يتصاعد منه البخار في الأعماق كان يتجه في بطء نحو الشمال حيث بدا كشيء صغير في العالم السفلي. وكانت ضوضاؤه يتردد صداها مرتفعًا إلى أعلى على صورة غريبة. ثم بلغ سمعهم ذلك الصوت الكئيب المألوف لأعمال النسف في أحد المحاجر.

وسرعان ما تحرك ليو الذي كان لا يعرف الاستقرار.

قال:

ـ هل نرحل؟ في آميرديل أتريدون أن تتناولوا الشاي أم في مكان آخر قريب؟

فأجمعوا على تناوله في مشرب "الماركيز جرانثام" في آمبرديل.

ــ حسنًا. وبأي طريق نعود؟ عن طريق كودنور عبر كروسهيل أم عن طريق آشبورن؟

فواجهوا المشكلة المعهودة. ثم قرروا نهائيًّا أن يسلكوا طريق كودنور. وانطلقت السيارة في شهامة وشجاعة.

وكانوا عندئذ فوق قمة العالم على ظهر قبضة اليد. وكانت الأرض عند هذا الارتفاع عارية أيضًا كظهر اليد تحت قبة السماء وقد امتدت من حولهم خضرة قاتمة كئيبة. وخلا المكان إلا من شبكة من الجدران الحجرية القديمة التي كانت تقسم الحقول على حين تقطعها هنا وهناك أطلال مناجم الرصاص ومصانعه القديمة. وثمة مزرعة حجرية تكاد تكون عارية كانت تقف منتصبة فيها ستُّ شجرات يابسة حادة. وظهرت عن بعد قرية صغيرة أشبه برقعة من الحجر الرمادي القاتم. وفي بعض الحقول كانت الأغنام الرمادية القاتمة تقتات في صمت وكآبة. ولكن المكان ساده الصمت والسكون فلم يسمع به صوت أو تبدو فيه حركة. كان ذلك هو سقف إنجلترا وكان حجريًّا عاريًا ككل سقف ومن ورائه في أسفل بدت مقاطعات إنجلترا.

وخاطبت إيفيت نفسها قائلة: "وأشهد المقاطعات الملونة". ولكنها لم تكن هنا ملونة على أية حال. وظهر فجأة أمامهم سرب من الغربان لم يدروا من أين جاء. وكانت من قبل تسير في أحد الحقول

العاريـة المـسمدة لتلـتقط طعامهـا. وواصـلت الـسيارة طريقهـا المرتفـع بـين العشب والجدران الحجرية. وقد خيم الصمت على الـشباب وهـم يتطلعـون إلى شـبكة الأسـوار الحجريـة البعيـدة تحـت الـسماء بـاحثين عـن المنحنيـات الهابطة في الطريق التي تشير إلى وهاد خفية منخفضة.

وكانت تتقـدمهم عربـة خفيفـة يقودهـا رجـل واحـد وبجانبـه تمـشي في مشقة امرأة نَصَف، قويـة البنيـة، تحمـل صُرَّة عـلى ظهرهـا. ولقـد لحـق بهـا الرجل الذي يقود العربة حتى صار يحاذيها.

وكان الطريق ضيقًا. فضغط ليو على النفير بشدة. فتلفـت سـائق العربـة حوله، ولكن المرأة ظلت تمشي إلى الأمام في سرعة وثبات دون أن تدير رأسها.

ووثب قلب إيفيت في صدرها. فقد كان سـائق العربـة غجريًّـا مـن ذلـك الصنف الأسود الذي يمتاز بوسامته ومرونة جـسده. ظـل جالـسًا عـلى عربتـه وهو لا يفتأ يستدير إلى الخلف محملقًا في ركـاب الـسيارة مـن تحـت حافـة قبعته. وقد استرخت جِلسته ووقُحت نظرته لما فيها من عدم اكتراث. كان لـه شارب أسود رفيع أسفل أنفه الدقيق المستقيم، وقد عُقـد حـول عنقـه منـديل حريري كبير اختلط فيـه اللونـان الأحمـر والأصـفر، ثـم خاطـب المـرأة بكلمـة فأطرقت لحظة كاملة لتستدير وتنظر إلى ركاب السيارة التي كانت عندئـذ قـد دنت منهما تمامًا. وعاد ليو فضغط على النفير بطريقة آمـرة. فاسـتدارت المـرأة

التي عقد حول رأسها منديل اختلط فيه اللونان الأبيض والرمادي، استدارت في حدة لتمشي في محاذاة العربة التي استقر قائدها أيضًا في مقعده وقد رفع العنان وهز كتفيه الخفيفتين المسترخيتين ولكنه مع ذلك لم ينتحِ جانبًا.

وأطلق ليو من النفير صوتًا صارخًا وهو يضغط على الفرملة ليهدئ من سرعة السيارة بالقرب من ظهر العربة. فاستدار الغجري على الصوت وهو يضحك بوجهه الأسمر من تحت قبعته الخضراء القاتمة وفاه بشيء لم يسمعه أحد كاشفًا عن أسنانه البيضاء أسفل خط شاربه الأسود ثم أتى حركة بيده السمراء المسترخية.

فصرخ ليو قائلًا:

ـ أفسحا لنا الطريق إذن!

ورد عليه الرجل بأن جذب عنان حصانه برقة حتى أوقفه بانحراف إلى جانب الطريق. وكان الحصان قويًا أسمر اللون. أما العربة فكانت متينة أنيقة المظهر مطلية باللون الأخضر الداكن. ولم يجد ليو بدًّا ـ وقد تملكه الغضب ـ من أن يضغط على الفرملة ويوقف السيارة أيضًا.

وقال الغجري الذي يقود العربة وهو يضحك بوجهه كله فيما عدا عينيه السوداوين اليقظتين اللتين أخذتا تنتقلان من وجه إلى آخر ثم تلكأت نظرتهما عند وجه إيفيت الغض الرقيق:

ـ ألا تريد الآنسات الجميلات أن يسمعن الطالع؟

وما إن التقت عينا إيفيت بعينيه السوداوين وَهْلةً قصيرة وهما تتفرسان هنا وهناك بنظرة سوية وقحة غير عابئة بالناس من أمثال بـوب وليـو حتـى اشتعلت النار في صدرها. ثم حدثت نفسها قائلة:

ـ إنه أقوى مني، فهو لا يعبأ بشيء!

فهتفت لوسيل في الحال قائلة:

ـ نعم. دعونا نسمع الطالع!

فقالت الفتيات في صوت واحد:

ـ نعم!

فصاح ليو قائلًا:

ـ وماذا عن الوقت؟

فصاحت لوسيل قائلة:

ـ لا تعبأ بالزمن الهرم! فهناك دائمًا من يملك ناصيته.

فقال ليو في بطولة مخاطبًا الجماعة:

ـ حسنًا. إن كنتم لا تبالون بموعد عودتنا فأنا أيضًا لا أبالي!

كـان الرجـل الغجـري يجلـس مـسترخيًا عـلى حافـة عربتـه وهـو يراقب الوجوه. عندئذ وثب في هـدوء مـن فـوق ذراع العربـة وقـد تـصلبت

ركبتاه قليلًا. كان من الواضح أنه تجاوز الثلاثين من عمره بقليل، كما كان وسيمًا أنيقًا على طريقته الخاصة. فقد كان يرتدي سترة صيد ذات صفين من الأزرار تصل إلى عجزه فقط وقد صنعت من الصوف الخشن ذي اللونين الأخضر القاتم والأسود، وسراويل سوداء ضيقة إلى حد ما. وحذاء أسود، وقلنسوة خضراء قاتمة، وقد أحاط بعنقه ذلك المنديل الكبير ذو اللونين الأصفر والأحمر. كان أنيق المظهر على صورة غريبة كما كان ملبسه في طرازه الغجري باهظ النفقات. كما كان وسيمًا يضغط على ذقنه إلى الداخل في غرور الغجر القديم. أخذ يقود حصانه الأسمر القوي بعيدًا عن الطريق استعدادًا للتقهقر بعربته. وكان واضحًا عندئذ أنه لم يعد يهاب هؤلاء الغرباء.

ولأول مرة رأت الفتيات مخبأ عميقًا في جانب الطريق به عربتان من عربات القوافل يتصاعد منها الدخان. فهبطت إيفيت من السيارة بسرعة. وفوجئ الجميع بمحجر مهجور حُفِر داخل منحدر في جانب الطريق. وفي ذلك العرين الذي ظهر فجأة، وكان أشبه بالكهف، وقفت ثلاث عربات معطلة بسبب الشتاء. كما قام في داخل المحجر عند نهايته مأوًى من فروع الشجر كان يستخدم كحظيرة للحصان. ومن فوق تلك العربات كان الصخر الرمادي الخام يرتفع عاليًا ثم ينحرف متجهًا نحو الطريق. أما الأرض فقد تكدست عليها شظايا الأحجار التي نبتت بينها الحشائش. كان مخيمًا شتويًّا مريحًا خفيًّا.

وقد دخلت المرأة النَّصف التي تحمل الصُّرَّة إحدى العربات وتركت بابها مفتوحًا فظهر فيه طفلان يختلسان النظر إلى الخارج وقد بدا للعيان رأساهما الأسودان. وأطلق الرجل الغجري صيحة نداء قصيرة وهو ينسحب بعربته إلى داخل المحجر، فجاء رجل في منتصف العمر ليساعده على فصل الحصان عن العربة.

كما صعد الغجري نفسه الدرج ليدخل أحدث العربات وكان بابها موصدًا. وقد أوثق في أسفلها كلب أبيض اللون مرقط في لون الكبد لم يفتأ يندفع إلى الأمام. وما إن اقترب منه ليو وبوب حتى زمجر في صوت خفيض.

وفي نفس اللحظة هبطت الدرج امرأة غجرية سمراء الوجه عُصِب رأسها بمنديل أو وشاح قرمزي وتدلى من أذنيها قُرط ذهبي كبير وهي تهز إزارها الأخضر المهدَّب الفضفاض. كان وجهها وسيمًا بطابعه الأسمر الطويل الجريء ولكنه ذئبي إلى حد ما. فبدت كإحدى نساء الغجر الإسبانيات الجريئات وهي تخطر في مشيتها. قالت وهي تتفرس في الفتيات بعينيها الجريئتين الضاريتين:

ــ أُسعدت مساء!

ــ أيُّ حسناء صغيرة تحب أن تسمع الطالع، فلتمد لي يدها.

كانت امرأة طويلة القامة يشرئب عنقها إلى الأمام بطريقة مفزعة كالنذير. راحت تنقل عينيها بنشاط جم من وجه إلى آخر بحثًا عما

تنشد في غير شفقة أو عطف. وفي تلك الأثناء ظهر عند قمة درج العربة ذلك الرجل الذي كان من الواضح أنه زوجها وهو يدخن غليونه حاملًا بين ذراعيه طفلًا صغيرًا أسود الشعر. وقف معتمدًا ساقيه المرنتين وهـو يقـف عَرَضًـا إلى جماعة الشباب وكأنه على مسافة بعيدة منها، وقد ارتفعت أهدابـه الـسوداء الطويلة عن عينيه الممتلئتين المغترتين الوقحتين السوداوين. وكان يتدفق مـن نظرته على صورة غريبة شيء ما أحسَّت بـه إيفيـت. أحـسَّت بـه في ركبتيهـا. ولكنها تشاغلت عنه بالكلب الأبيض المرقط بالحمرة.

وسألت لوتي فريملي قائلة عنـدما ازورَّ إلى الخلـف _عـلى مـضضٍ إلى حـد ما_ هؤلاء الستة من الشباب المسيحيين ذوي الوجوه النضرة بعيدًا عن المـرأة الوثنية الطريدة.

ــ كم تريدين أن ندفع لك لو قرأت الطالع لنا جميعًا؟

فقالت المرأة بذكاء:

ــ جميعكم؟ سيداتي وسادتي جميعكم؟

فصاح ليو قائلًا:

ــ أنا لا أريد أن تقرئي لي الطالع! هيا ابدئي!

فقال بوب:

ــ ولا أنا أيضًا. الفتيات الأربع فقط.

فقالت المرأة الغجرية وهي تتفرس فيهن بذكاء بعد ما ألقت نظـرة عـلى الشبان:

ـ سيداتي الأربع؟ ثم حددت الأجر قائلة:

ـ تدفع لي كلٌّ منكن درهمًا واحدًا مع زيادة زهيدة لحسن الطالع، زيادة زهيدة.

ثم ابتسمت بطريقة لم تكن مغرية متملقة بقدر ما كانت ذئبية مخيفـة. وأحس الجميع بقوة إرادتها ثقيلة كالحديد تحت مُخمل ألفاظها.

فقال ليو:

ـ حسنًا. فليكن الأجر درهمًا عن كل فتاة. ولكن لا تطيلي الحديث.

فصاحت فيه لوسيل قائلة:

ـ بل نريد أن نسمع كل شيء...

وتناولت المرأة مقعـدين خـشبيين خفيـضين مـن تحـت إحـدى العربـات ووضعتهما بالقرب من العجلة. ثم جذبت لوتي فريملي السمراء الطويلـة مـن يدها وطلبت إليها أن تجلس. وقالـت لهـا وهـي تتطلـع إلى وجههـا بطريقـة غريبة:

ـ أتبالين لو سمع الجميع؟

فاحمر وجهها في عصبية في حين أمسكت المرأة الغجرية بيدها وربتت على راحتها بأصابع صلبة تبدو عليها القسوة.

فقالت:

ـ إني لا أعبأ بذلك.

وتفحصت المرأة الغجرية راحة يدها وهي تتابع أساريرها بسبابتها السوداء الصلبة. ولكن المرأة بدت نظيفة.

وراحت تقرأ لها الطالع في بطء على حين وقف الجميع ينصتن إليها دون أن تنقطع صيحاتهن:

ـ آه هذا جيم باجالي! آه! إنني لا أصدق ذلك! آه هذا غير صحيح! شقراء تعيش تحت شجرة! ومن تكون هي؟ إلى أن أسكتهن ليو بتحذير قوي قائلًا:

ـ تمالكن شعوركن يا فتيات! فأنتن تفشين كل شيء.

وانسحبت لوتي خجلة مرتبكة ثم جاء دور إيلا. وكانت أكثر هدوءًا وذكاءً وهي تحاول أن تقرأ ألفاظ الكهانة. وظلت لوسيل تصيح قائلة "آه! يالله"! ووقف الرجل الغجري على قمة الدرج هادئًا رابط الجأش دون أن يبدو عليه تعبير ما ولكن عينيه الجريئتين ظلتا تحدجان إيفيت حتى أحست بهما على وجنتها وعلى عنقها ولم تجرؤ على أن ترفع إليه بصرها. ولكن فريملي كان يتطلع إليه أحيانًا فيرى وجه

ذلـك الرجـل الغجـري الوسـيم، ويتلقـى مـن عينيـه الـسوداوين المتكبرتـين المغترتـين، نظـرة سـوية غريبـة تنطلـق مـن عينيـه اللتـين تنتميـان إلى قبيلـة المتَّـضعين، تنطـق بكبريـاء المنبـوذين، وتحـدي الطريـد الـذي يـسخر مـن الخاضعين للقانون ثم يمضي في طريقه. وظـل الرجـل الغجـري طيلـة الوقـت واقفًا هناك وطفله بين ذراعيه متفرجًا في غير اهتمام.

كانت لوسيل تستمع إلى المرأة وهي تقرأ كفَّها قائلة:

ــ لقد عبرت البحر وهناك التقيـت برجـل، رجـل كـستنائي الـشعر ولكنـه أسنُّ منك بكثير.

فصاحت لوسيل قائلة وهي تدير عينيها نحو إيفيت:

ــ آه! يا لله!

ولكن إيفيت كانت شاردة مضطربة لا تكاد تعي شيئًا، في إحـدى حـالات نومها المغناطيسي. ثم أردف صوت المرأة قائلًا:

ــ ستتزوجين بعد بضع سنين ـليس الآن بل بعد بضع سنين_ وربما بلغت أربعًا من السنين ـولكن الثراء ليس من نصيبك بل الوفرة_ ما يكفي حاجتـك من كل شيء_ كما أنك ستقومين برحلة طويلة.

فصاحت لوسيل قائلة:

ــ مع زوجي أم بدونه؟

ــ معه.

وعندما جاء دور إيفيت تطلعت إليها المرأة جرأة وقسوة، وهـي تتفـرس طويلًا في وجهها حتى قالت إيفيت في لهجة عصبية:

ـ لا أحسبني راغبة في سماع الطالع. لا. لن أسمع الطالع! لا! لا أريد ذلك حقًّا!

فقالت المرأة الغجرية في قسوة:

ـ أتخشين شيئًا؟

فقالت إيفيت متململة:

ـ لا. ليس هذا.

ـ ألديك سر ما تخشين أن أذيعه؟ هلمي! أتريدين دخول العربة حيـث لا يسمعنا أحد؟

كانت المرأة توعز إليها عـلى صـورة غريبـة في حـين ظلـت إيفيـت مـصرَّة عنيدة. وحينئذ كانت سيماء التمرد تضفي على وجهها الغض الـواهن الرقيـق صرامة غريبة ثم قالت فجأة:

ـ نعم! نعم! لا أرى مانعًا من ذلك!

فصاح الآخرون: "يا لله! لا تفسدي علينا لهونا".

فصاحت لوسيل قائلة:

ـ لا أظنك تحسنين عملًا بذلك؟

فقالت إيفيت بلهجتها الطفولية القاسية:

ـ بلى! سأفعل ذلك. وسأدخل العربة.

فصاحت المرأة الغجرية بشيء ما للرجل الواقف على الدرج. واختفى لحظة في داخل العربة ثم عاد إلى الظهور هابطًا الدرج حيث أوقف الطفل على قدميه المزعزعتين وأمسك به من يده. كان متأنقًا في هندامه، بحذائه الأسود اللامع وسراويله السوداء الضيقة وسترته الصوفية الخضراء المحكمة. أخذ يمشي في بطء إلى جانب طفله الذي كان يتعثر في خطاه متجهًا إلى الحظيرة المقامة بين جُبَّيْن من الصخور الرمادية حيث كان الغجري الكهل يقدم إلى الحصان الأسمر طعامه من الشوفان، وقد تناثرت بعض الحشائش الجافة على الأرض المكسوة بشظايا الأحجار. وفي أثناء مروره لم يفتأ يحدج إيفيت مباشرة في عينيها بنظرة المنبوذ التي كانت على الرغم من جرأتها تنطوي على الغدر والخيانة. واصطدمت نظرته بشيء صلب في داخلها. أما السطح الخارجي لجسدها فقد بدا وكأنه تحول إلى ماء. ومع ذلك فإن معالم وجهه الغريبة الصافية وأنفه المستقيم الصافي ووجنتيه وصدغيه قد انطبعت جميعها على شيء صلب في داخلها. كما تحددت تحت سترته الخضراء كافة معالم جسده الغريب الأسمر في صفائه الرقيق الذي كان أشبه بسخرية حية.

وبدا لها وهو يخطر أمامها في بطء معتمدًا عجزه المرن أنه أقوى منها. فمن بين جميع الرجال الذين رأتهم في حياتها كان هو دون سواه يفوقها قوة من نوع قوتها وإدراكًا من صنف إدراكها.

وهكذا سارت يحدوها الفضول في أثر المرأة الغجرية وهي تصعد الـدرج، وإزار سترتها البنية الأنيقة يتأرجح ويكاد يكشف عن ركبتيها من تحت ثوبهـا الأخضر الشاحب. وكنت ساقاها طويلتين جميلتين واسـعتي الخطـى ولكـنهما أقرب إلى النحول منهما إلى السمك. وقد ارتدت جوارب صوفية رقيقة غريبـة الزخرف ذات لون بني شاحب تبدو فيها ساقاها وكأنهما ساقا حيوان رقيق.

وما إن بلغت قمة الدرج حتى وقفت برهة ثم التفتـت نحـو الجميـع في مرح وسرور قائلة بطريقتها التلقائية الساذجة المتعالية:

ــ لن أستبقيها طويلًا.

وقد فُتحت ياقة سـترتها الفرائيـة الرماديـة فكـشفت عـن عنقهـا الرقيـق وثوبها الأخضر الشاحب. وضغطت قبعتها البنية الصغيرة المجدولة على رأسها حتى بلغت أذنيها محيطة بوجهها النضر الرقيـق. وكانـت تـوحي بـشيء مـن الرقة ولكن في سيطرة وعدم اكتراث. أدركت أن الرجـل الغجـري قـد اسـتدار لينظر إليها. كما أحست بقفاه الأسمر الصافي وشـعره الأسـود المـشذَّب. أخـذ يراقبها وهي تدخل بيته.

لم يعرف أحد قط ما قالته لها الغجرية. ولكن الجميع أحـسوا أنـه طال انتظارها. وأخذ ضوء الشفق يخبو رويدًا رويدًا مقتربًا مـن ظلمـة الليـل ومـال الجـو إلى الرطوبـة والـبرودة. وراح الـدخان ينبعـث مـن مدخنة العربة الثانية حاملًا إليهم رائحة الطعام الدسم. كـان الحـصان

قد تناول طعامه وتدثر ببطانية صفراء ثم ظهر عن بعد رجلان من الغجر يتحدثان بأصوات خافتة. وران على المحجر الخفي المنعزل إحساس غريب بالسرية والسكون.

وأخيرًا فتح باب العربة وظهرت إيفيت منحنية إلى الأمام وهي تخطو هابطة الدرج بساقيها الطويلتين السحريتين النحيلتين. وقد اكتنفها عند ظهورها في ضوء الشفق صمت سحري مطرق. قالت في غموض دون أن تنظر إلى أحد منطوية بقوة على سرها الخاص خلف عنادها الغامض الرقيق.

ــ هل بدا لكم أنني تأخرت؟ علَّكم لم تشعروا بالملل! أليس الشاي لذيذًا الآن! هل نذهب؟

فقال بوب:

ــ ادخلي السيارة! وسأدفع أنا الأجر.

وإذا بالمرأة الغجرية تهبط الدرج فيتأرجح إزارها الصوفي الأخضر اللامع الفضفاض. وقد انتصبت قامة تلك العبهر[1] وارتسم الظفر على وجهها الذئبي الأسمر. كما انزلق جانبًا فوق شعرها الأسود المجدول منديلها القرمزي الكشمير المحلى بالورود الحمراء. أخذت تحملق في الشباب على ضوء الشفق في عنجهية جريئة.

---

[1] الطويلة الممتلئة الجسم.

ووضع بوب في يدها خمسة دراهم.

فقالت له مستحثة متملقة كالذئب الذي يتحايل على فريسته:

ـ زدني قليلًا جزاء حسن الحظ من أجل سيدتي الصغيرة, أعطني شيئًا يجلب لك الحظ.

فقال بوب في هدوء وهم يتجهون صوب السيارة:

ـ إني نقدتك درهمًا لذلك. يكفي هذا.

ـ قطعة صغيرة من الفضة! قطعة صغيرة فقط لتسعد في الحب!

فإذا بإيفيت عند دخولها السيارة تدور إلى الخلف بإحدى حركاتها المفزعة المفاجئة التي تأتيها بأطرافها الطويلة ثم تخطو نحو المرأة الغجرية مادة ذراعها الطويلة لتدس شيئًا في يدها ثم تدخل السيارة حانية قامتها.

وانبعث صوت المرأة الإيحائي في شيء من السخرية قائلًا:

ـ النجاح والثراء للحسناء الصغيرة. إني أباركها.

ودوَّى صوت المحرك ثم دوَّى مرة أخرى على صورة أعنف وانطلقت السيارة. وأضاء ليو الأنوار ثم ما لبث أن اختفى المحجر والغجر في ظلام الليل.

وهتف صوت إيفيت عندما تحركت السيارة قائلًا:

ـ طابت ليلتكم!

ولكن صوتها لم يسمع سواه مغردًا وقحًا لعدم اكتراثـه. وحملقـت الأنـوار الكاشفة في الطريق الحجري.

ثم صاحت لوسيل قائلة على الرغم من إرادة إيفيت الـصامتة التـي تـأبى أن تُسأل:

ـ إيفيت. عليك أن تخبرينا بما قالته لك العرافة.

فقالت إيفيت في حرارة مصطنعة:

ـ ليس شيئًا مثيرًا على الإطـلاق. بـل ذلـك اللغـو العـادي المـألوف. رجـل أسمر يرمز إلى حسن الحظ. ورجل أشقر يرمز إلى سـوئه. ثـم وفـاة في الأسرة. ولو أن جدتي هي المعنية بذلك لهان الخطب. كما أنني سـأتزوج عنـدما أبلـغ الثالثة والعشرين وعندئذ يتوفر لي الحب والمال ثم أرزق بطفلين. كلها أحـلام جميلة ولكنها كما تعلمين تنطوي على كثير من المبالغة.

ـ ولكن لماذا أجزلت لها العطاء؟

ـ حسنًا. هكذا أردت! فلا بد أن تأخذي نفسك قليلًا بمظاهر العظمة مـع هؤلاء الناس.

(4)

ثارت في الأبرشية ضجة عنيفة حول إيفيت وصندوق النافذة. فقد حدث بعد الحرب أن عقدت العمة سيسي آمالها على نافذة زجاجية ملونة في الكنيسة خُصِّصت كنُصب تذكاري لشهداء الأبرشية. ولكن معظمهم كانوا من المنشقين، فأقيم النُّصب على شكل ضريح صغير قبيح أمام مصلَّى ويزليان.

ولكن ذلك لم يُثبط من همة العمة سيسي، بل أخذت تتصيد السلع وتقيم الأسواق الخيرية وتدفع الفتيات إلى تقديم استعراضات مسرحية للهواة، كل ذلك من أجل نافذتها الثمينة. ولمَّا كانت إيفيت مشغوفة بالناحية التمثيلية والاستعراضية من المشروع، فقد تولت الإشراف على المسرحية المضحكة "ماري في المرآة"، وجمعت حصيلتها التي كان عليها أن تدفعها لصندوق النافذة عند تسوية الحسابات. وكانت كل فتاة تحمل حصالة لذلك الغرض.

وعندما رأت العمة سيسي أن مجموع المبالغ يكاد عندئذ يكفي الغرض طلبت فجأة حصالة إيفيت التي لم تكن تحوي سوى خمسة عشر درهمًا. فكانت لحظة من الرعب الأخضر.

ـ وأين بقية المبلغ؟

فقالت إيفيت في غير اكتراث:

ـ لقد اقترضته. ولكن المبلغ ليس جسيمًا إلى هذا الحد.

فسألتها العمة سيسي وكأن الجحيم قد فغر فكيه في ثُؤباء:

ـ وماذا عن الجنيهات الثلاثة والدراهم الثلاثة عشر التي جمعت من تمثيلية "ماري في المرآة"؟

ـ بالضبط! اقترضتها. ويمكنني سدادها.

مسكينة العمة سيسي! لقد انفجرت في نفسها خُراجة الحقد الخضراء وثار شجار شاذ مرعب جعل إيفيت ترتجف من الخوف والكراهية العصبية. بل إن القس نفسه لم تأخذه بها رحمة أو شفقة، إذ قال لها في فتور:

ـ لم لم تخبريني أنك في حاجة إلى النقود؟ هل سبق أن رفضت لك طلبًا في حدود المعقول؟

فتلعثمت إيفيت قائلة:

ـ خُيِّل... خُيِّل لي أن الأمر غير ذي أهمية.

ـ وماذا فعلت بالنقود؟

فقالت إيفيت وقد اتسعت عيناها في ذهول واربد وجهها.

ـ أعتقد أنني أنفقتها.

ـ أنفقتها؟ فيم؟

ـ لا يمكنني الآن أن أذكر كل شيء. فقد ابتعت بعض الجوارب وغيرها من الحاجيات كما تبرعت بجزء منها.

مسكينة إيفيت! فقد أخذت مظاهر عظمتها وبذخها ترتد إليها بما تحمل من عواقب وخيمة. إذ غضب القس وبدا شرسًا مكشرًا عن أنيابه، واكتسى وجهه بابتسامة ساخرة صفراء. كان يخشى أن تكون ابنته قد بدأت تنمو في نفسها بعض المعايب العفنة الفاسدة التي كانت تتصف بها "المرأة التي تُدعى سنثيا".

فقال لها في سخرية بهيمية باردة كشفت عن إلحاده المطلق في أعماق قلبه:

ـ أتتظاهرين بالبذل والعطاء من مال غيرك؟

كشف القس عن قلب دنيء خاوٍ من الإيمان الدافئ والفخر بالحياة. فقد تجرد تمامًا من كل إيمان بابنته.

فشحب وجه إيفيت وتولاها الذهول. وانكمشت شعلة كبريائها الواهنة الثمينة التي حاول الجميع إخمادها، انكمشت بعيدًا كما ينكمش اللهب عند تعرضه لريح باردة فيبدو كأنه قد خمد. أما وجهها الذي ابيض لونه عندئذ ولم يزل كزهرة الثلج، زهرة غروره الثلجية

البيضاء، فقد بدا وكأنه فقد الحياة. ولم يبقَ بـه سـوى ذلـك الـذهول الـصافي الغريب.

فحدثت نفسها قائلة:

ــ إنه لا يؤمن بي فأنا في نظـره لا أعنـي شـيئًا في الحقيقـة. لا أعنـي شـيئًا سوى العار. العار في كل شيء. العار في كل شيء.

لو أنها سُفعت بلهيب الانفعال أو الغضب فربما أخرجهـا عـن طورهـا أو طواها في غماره ولكنـه مـا كـان لـيحط مـن قـدرها كـما فعـل إنكـاره إياهـا وموقفه النهائي منها الذي تمثل في ابتسامة ساخرة صفراء.

فقد ساوره الخوف قليلًا في سكون الفكـر العقـيم. كـان يحتـاج قبـل كـل شيء إلى "مظهر" الحب والإيمان والحياة المرحـة ولكـن لي يجـرؤ مطلقًـا عـلى مواجهـة تلـك الـدودة الـسميكة التـي كانـت تتحـرك في قلبـه: دودة إنكـاره وإلحاده.

سألها قائلًا:

ــ بماذا تدافعين عن نفسك؟

فلـم تـزد عـلى أن تطلعـت إليـه بوجههـا الهامـد الـشبيه بزهـرة الـثلج فأشاعت في نفسه الخوف وبثت فيها إحساسًا بالذنب لا حيلة له فيهـا. فقـد كانت تلك "المرأة التي تُدعى سنثيا" تنظر إليه يراودها ذلـك الخـوف الخـدر الأبيض ـالخوف من إنكاره المذلـ الـذي يـسكن قلبـه كالـدودة. كـان يعلـم

أن قوام قلبه دودة سميكة رهيبة. ولشد ما كان يخشى أن يقف أحد على تلك الحقيقة حتى لا تعذبه كراهيته لكل من يعلم ذلك ويزورُّ عنه.

وما إن رأى إيفيت وهي تزورُّ عنه حتى غيَّر من أسلوبه في الحال وتقمص شخصية الرجل الدنيوي الساخر، المرح.

فقال:

ــ آه حسنًا. عليك أن تردي المبلغ يا بنيتي. هذا هو كل ما هنالك. وسأمدك به خصمًا من مرتبك. ولكني سأتقاضى منك فائدة شهرية قدرها 4% فإن الشيطان نفسه يجب أن يدفع فائدة على ديونه. أما عن المستقبل فإياك أن تأخذي نقودًا لا تخصك فإن كان لا يمكنك أن تثقي بنفسك. فإنه لمما يشينك أن تخوني الأمانة.

ظلت إيفيت في مكانها مسحوقة مهينة مغتصبة. وراحت تزحف هنا وهناك مجررِّة خلفها أذيال كبريائها. لقد نفرت من كل شيء. حتى من نفسها. فلماذا لمست ذلك المال الأجذم! وتقلص بدنها كله وكأنه قد تدنس. لم كل هذا؟ لم؟ لم كل هذا؟

لقد اعترفت بينها وبين نفسها بأنها أخطأت بإنفاقها النقود، وقالت محدثة نفسها:

ــ لا شك أنني ما كان يجب أن أفعل ذلك. فهم محقون تمامًا في غضبهم.

ولكن ممَّ اقشعر بدنها على هذه الصورة الرهيبة؟ ولماذا أحسَّت أن مرضًا ما قد انتقلت إليها عدواه؟

وراحـت لوسـيل المـسكينة، التـي لـشد مـا اغتمـت مـن أجلهـا، تعظهـا قائلة:

ــ ما أسخفك يا إيفيت في تعريض نفسك لسخريتهم جميعًا كـان يمكنـك أن تدركي أنهم سيكشفون الأمر. وكان في وسعي أن أجمع لك النقـود، وأوفـر عليك كل هذه المتاعب. فما أشنع ذلـك! ولكنـك تـأبين دائمًـا أن تفكـري أولًا فيما تقودك إليه أعمالك! أيخيل لك أن العمة سيسي تقول لك كـل هـذا؟! يـا للشناعة! ماذا تقول أمك لو أنها سمعت بهذه القصة؟

وكنت الفتاتان كلما تعرضتا لأزمة عنيفة تذكران أمهـما وتزدريـان أبـاهما وسلالة سايول الحقيرة بأسرها. فلا شك أن أمهما كانت تنتمي إلى عالم أسمى، ولو أنه أشد خطورة "ولا أخلاقية"، فلا جدال في أنـه أكـثر أنانيـة رغـم لفتاتـه اللامعة. وقل اكتراثًا للأمور وأسرع إلى الاحتقار، ولكنه لا يمعن في التحقير على هذه الصورة.

كانت إيفيت تعتقد دائمًا أنها ورثت عن أمها بدنها الغض الرقيق. أما أفراد أسرة سايول جميعًا فقد تجلَّد صِفاقُهم بعض الشيء في مكان مـا وعلـق بـه القَـذَر. ولكـنهم لا يتخلـون عنـك مطلقًـا. في حـين أن "المرأة الجميلة التي تُدعى سنثيا" قد تخلت عن القس بفـضيحة كـما

تخلت عـن طفلتيـه الـصغيرتين. طفلتيهـا الـصغيرتين؟ لقـد تعـذر علـيهما أن تصفحا عنها تمامًا.

وعلى أثر تلك الضجة لم تدرك إيفيت إلا في غموض قدسية ذاتها الأخـرى، قدسية بدنها الحساس النظيف لحمًا ودمًا وقد استطاع أفراد أسرة سايول بمـا يسمونه "قوة خلقية" أن يدنسوه. كانوا يرغبون دائمًا في تدنيسه. فقد أنكـروا الحياة في حين أن "المرأة التي تدعى سنثيا" ربمـا لم تنكـر منهـا سـوى أخلاقهـا فحسب.

وقد استولى على إيفيت الذهول والعبوس والارتباك. ودفـع القـس المبلـغ إلى العمة سيسي. ولشد ما أغضبها ذلك. فإن خُراجة سورتها التي لا حيلة لهـا فيها ما زالت تقيح. وكان بودها أن تعلن في مجلة الأبرشية عـما اقترفتـه ابنـة أخيها من إثم. لشد ما آلم تلـك المـرأة المحطمـة ألا تـستطيع إذاعـة الخـبر في العالم أجمع. إنها الأنانية! الأنانية! الأنانية!

ثم سلم القس لابنته حسابها الصغير معه، دينها لـه مـضافًا إليـه الفائـدة وخصم المبلغ من مرتبها الصغير. ولكنه وضع جنيهًا لحسابها كغرامة عليـه أن يدفعها لاشتراكه في الجرم.

فقد قال مازحًا:

ــ بوصفي والد المذنبة فإني أدفع غرامة قدرها جنيه واحد. وبـذلك أبـرئ نفسي من الذنب.

كان القس يجود دائمًا بماله، ولكنه خيل له أنه ببذلـه المـال يمكنـه بـصفة مطلقة أن يدَّعي الكرم. في حين أنه كان يـستغل مالـه بـل عطـاءه في إحكـام قبضته عليها.

ولكنه ترك الموضوع يطويه النسيان. ولشد ما كان القس عندئـذ منـشرح الصدر، هذا إذا بنينا حكمنا على المظاهر. فقد خيـل لـه أنـه مـا زال في أمـان من الخطر.

ومع ذلك فقد تعذر على العمة سيسي أن تشفي غلتهـا. وذات ليلـة أوت إيفيت إلى فراشـها في سـاعة مبكـرة وهـي تـشعر بالتعاسـة، وكانـت لوسـيل مدعُوَّة إلى حفلة في الخارج فإذا بباب غرفتها يفتح في هـدوء وهـي راقـدة في فراشها تؤلمها أطرافها اللينة الهزيلة في نوع من الخدر والـدَّنس فـرأت العمـة سيسي واقفة هناك وهي تميل بوجهها الأخضر الشاحب إلى الأمام مـن خـلال فتحة الباب فجفلت إيفيت في فزع.

وفحَّت العمة سيسي قائلة بوجهها المخبول:

ـ أيتها السارقة الكذوب! أيتها الأنانية المتوحشة! أيتها المنافقـة الـصغيرة! أيتها الكذابة الأشرة! أيتها الأنانية المتوحشة! أيتها الجشعة المتوحشة!

لـشد مـا نـضح قناعهـا الأخـضر الـشاحب كـما نـضحت كلماتهـا المجنونة بالكراهية الشاذة غير الشخصية مما جعل إيفيت تفتح فاها لتطلق صرخات مخبولة. ولكن العمـة سيـسي أغلقـت البـاب بـنفس

الطريقة الفجائية التي فتحته بها ثـم اختفـت. فقفـزت إيفيـت مـن فراشـها وأدرات المفتاح. ثم زحفت عائدة إليه وقد أوشك خوفها من الـشذوذ القـذر أن يُفقدها وعيها وأصابها شلل كبريائهـا المحطمـة بخـدر نـصفي. وفي وسـط ذلك كله ارتفعت إلى حلقها فقاعة من الضحك المذهول. فلشد ما كـان ذلـك مثيرًا للسخرية على صورة قذرة!

لم يكن سلوك العمة سيسي في نظر الفتاة بالغ الإسـاءة. فقـد كـان خياليًّـا إلى حد ما قبل كل شيء. ولكنها جرحت بلا شك... في أطرافها، وفي بـدنها، وفي جنسها. نعم جُرحت. جُرحت وتخدرت وكـادت تنهـار. ولم يعـد ينـبض فيهـا شيء سوى أعصابها التي لم تفتأ تتذبـذب في تنابـذ واخـتلال. ومـع ذلـك فـإن حداثة سنها لم تمكنها من إدراك ما كان يدور حولها.

لم يسعها إلا أن ترقد في فراشها وتتمنى لو كانت غجرية تعيش في مُخـيَّم أو قافلة ولا تطأ قدمها المنازل ولا يخطر ببالها وجود الأبرشـيات ولا تـرى الكنـائس مطلقًا. فلـشد مـا نفـرت مـن الأبرشـية حتـى تجمـد قلبهـا. فقـد كرهـت تلـك البيوت بوسائلها الصحية وحماماتهـا وبـشاعتها الخارجـة عـن المـألوف. كرهـت الأبرشية وكل ما تنطوي عليه من معانٍ، فقد عفنت فيها تلك الحياة الآسنة كلها _حياة المجاري_ حيث كانت تلك الكلمة لا تـذكر مطلقًـا ولكـن رائحتهـا تبـدو وكأنها تفوح من وسطها لكـل ذي سـاقين مـن سـكان الـدار ابتـداءً مـن الجـدة

حتى الخدم. وإذا كان الغجر لا يملكون حمامات فإن حياتهم على الأقل خِلوٌ من المجاري والهواء طلق متجدد. أما في الأبرشية فإن الهواء لا يتجدد مطلقًا بل يظل راكدًا حتى في نفوس الناس إلى أن يعفن.

وأضرمت البغضاء النار في قلبها وهي راقدة على الفراش بأطرافها المخدرة. وتذكرت كلمات المرأة الغجرية عندما قالت لها: "هناك رجل يهواك أسمر اللون لم يعرف قط الحياة في المنازل. أما الآخرون فإنهم يطئون قلبك بالأقدام. ولن يبرحوا يطئونه حتى يخيل لك أنه مات. ولكن الرجل الأسمر سينفخ في الشرارة الأخيرة ليحيلها من جديد نارًا حامية. وسوف ترين كيف تتأجج هذه النار".

وأحست إيفيت وهي تنصت إلى حديث المرأة أن هناك بعض الخداع فيما تقول. ولكنها لم تبالِ بذلك. فلشد ما كرهت الحياة داخل الأبرشية بما فيها من عفن، كُرهًا طفوليًّا باردًا لاذعًا. لقد أحبت تلك المرأة الغجرية الضخمة السمراء بوجهها الذئبي وقرطها الذهبي الكبير المعلق في أذنيها ووشاحها القرمزي المعصوب حول شعرها الأسود المموج وسترتها البنية المخملية المحكمة وإزارها الأخضر الفضفاض. أحبت يديها السمراوين القويتين الصلبتين اللتين ضغطتا بقوة كمخالب الذئب على راحتها اللينة الناعمة. أحبتها. أحبت خطرها وأحبت جرأتها الكامنة. أحبت جنسها الخفي العنيد الذي كان

على الرغم من "لاخلقيته" يتحلى بكبرياء عنيدة متحدية. فلا تستطيع قوة أن تُخضع تلك المرأة. إنها خليقة بأن تحتقر الأبرشية وأخلاقيات الأبرشية احتقارًا مطلقًا! وهي خليقة بأن تخنق الجدة بيد واحدة، وخليقة أيضًا بأن تحتقر رجالًا كأبيها القس وعمها "فرد" احتقارها "لروفر" كلب نيوفوندلاند الهرم البدين ذي الرؤالة. إنه احتقار أنثوي عميق ساخر لتلك الكلاب المستأنسة التي تسمي نفسها رجالًا.

أما الرجل الغجري نفسه! وهنا ارتعدت إيفيت فجأة وكأنها تمثلت عينيه النجلاوين الجريئتين مركزتين عليها وقد ارتسم فيهما إيعاز سافر بالرغبة. وقد جعلها ذلك الإيعاز السافر الصارخ بالرغبة، ترقد في فراشها مستسلمة فاقدة القوى وكأن مخدِّرًا قد صبها في قالب جديد مصهور.

لم تعترف إيفيت لأحد قط بأنها تبرعت للمرأة الغجرية بجنيهين من صندوق النافذة المشئوم. ماذا يحدث لو علم أبوها والعمة سيسي بذلك وتقلبت إيفيت متلذذة في فراشها. فقد أطلقت ذكرى الرجل الغجري الحياة في أطرافها وبلورت في قلبها كراهيتها للأبرشية ولم تعد عندئذ تحس بالعُنَّة والعجز بل بالقدرة والنشاط.

وعندما روت إيفيت بعد ذلك للوسيل الفاصل التمثيلي الذي لعبته العمة سيسي عند مدخل غرفة نومها غضبت لوسيل وصاحت قائلة:

ـ عليها اللعنة! بوسعها الآن أن تنسى هـذا الموضـوع فأظننـا قـد سـمعنا عنه ما يكفي! يا للسماء! إنه ليخيل لك وكأن العمة سيـسي طـائر مـن الجنـة بلغ حد الكمال! فقد نسي أبي الموضوع وهو من شأنه هـو قبـل كـل شيء إن كان لأحد أن يهتم به. فلتخرس إذن العمة سيسي.

وفي الواقع أن القس بنسيانه ذلك الموضـوع وعودتـه إلى معاملـة إيفيـت ذات الشخصية الغامضة غير المباليـة وكأنهـا مخلـوق ذو حقـوق خاصـة هـو الذي جعل مرارة العمة سيسي لا تفتأ تنضح بـصفراء الحقـد. فقـد كـان مـما يوشك أن يدفعها إلى الجنون أن إيفيـت كانـت لا تحـس بمـشاعر غيرهـا مـن الناس في معظم الأحيان، وبالتالي فإنها كانت لا تهتم بهـم. فلـماذا ينبغـي أن تعيش تلك المخلوقة الصغيرة التي ولدت لأم آثمة مميـزة عـن غيرهـا دون أن تحس بوجود الآخرين حتى ولو كانوا تحت بصرها؟

وحينئذ كانت لوسيل سريعة الانفعال حتى بدت وكأنها قد فقـدت توازنهـا إلى حـد مـا منـذ دخولهـا الأبرشـية. يـا للمـسكينة! فلـشد مـا زاد تفكيرهـا ومسئوليتها! كانت تتحمل جميع الأعباء الإضافية من تفكير في الأطبـاء والـدواء والخدم وما إلى ذلك من أمور. كما كانت تكدح بإخلاص طيلة النهـار في عملهـا في المدينة حيث تعمل في غرفة مضاءة بنور صناعي منذ العاشرة صباحًا حتـى الخامسة مساء. ثم تعـود إلى المنـزل حيـث تتـوتر أعـصابها إلى مـا يقـرب مـن الجنون من جرَّاء فضول جدتها الملِّح الرهيب وشيخوختها المتطفلة.

كان من الواضح أن العاصفة التي أثيرت حول صندوق النافذة قد هدأت، ولكن الجو ما زال خانقًا متوترًا. وظل الطقس رديئًا. فكانت لوسيل تلازم الدار في أصيل عطلة نصف اليوم ولم تكن تستغله فيما يعود عليها بالخير. وذات يوم كان القس في غرفة مكتبه وكانت لوسيل تعاون إيفيت في صنع ثوب لها. أما الجدة فكانت تأخذ نصيبها من الراحة على إحدى الأرائك.

وكان الثوب من المخمل الحريري الأزرق وهو قماش فرنسي يلائم إيفيت للغاية. وقد أعادت لوسيل قياسه على شقيقتها إيفيت فلشد ما ضايقها عدم انسيابه أسفل الذراعين.

فصاحت إيفيت وهي تمد ذراعيها الطويلتين الرقيقتين الطفلتين اللتين مال لونهما إلى الزرقة من شدة البرد.

ـ "لا تبالي بذلك فلشد ما تدققين يا لوسيل! إن الثوب لا عيب فيه مطلقًا.

ـ إن كان هذا هو كل ما أجنيه من تقدير بعد ما بذلته من جهد مضنٍ في ساعات فراغي لأصنع لك ثيابك، فالأجدر بي إذن أن أصنع شيئًا لنفسي!

فقالت إيفيت بصراحتها المعهودة التي تثير الأعصاب وهي ترفع مرفقيها العاريين لتتفرس في المرآة الطويلة من فوق كتفها:

ـ أنت تعلمين يا لوسيل أنني لم أطلب إليك ذلك مطلقًا! كما تعلمين أنه لا يسعك إلا أن تشرفي على حياكته.

فصاحت لوسيل قائلة:

ـ حقًّا! لم تطلبي إليَّ ذلك مطلقًا! وكأني لم أفطن إلى غرضك عندما بدأت تتنهدين وتتململين.

فقالت إيفيت في دهشة غامضة:

ـ أنا؟ متى تنهدتُ وتململتُ؟

ـ لا شك أنك تعرفين ذلك.

ـ أنا؟ لا. لا أعرف ذلك! متى حدث هذا؟

وكانت إيفيت يمكنها أن تبث في أسئلتها الشاردة الرقيقة نغمة خاصة تبعث على الضيق.

فقالت لوسيل بصوتها الغاضب المدوِّي إلى حد ما:

ـ لن أضع يدي في هذا الثوب حتى تقفي في سكون وتمسكي عن الكلام.

فقالت إيفيت وكأنها تقف على جمر النار.

فصاحت لوسيل في وجه أختها وقد أومضت عيناها فجأة ببريق الغضب قائلة:

ـ والآن يا إيفيت! اصمتي في الحال! فلماذا يفرض علينا جميعًا أن نتحمل مزاجك المستبد اللعين؟

فقالت إيفيت وهي تتلو في بطء لتخلع ثوبها الـذي لم يـتم صـنعته بعـد وتعود إلى ارتداء ثوبها القديم:

ــ أنا لا أدري شيئًا عن مزاجي.

ثم عاودت الجلوس إلى المائدة في ذلك المساء المعتم، وقد بدا على وجهها عنـاد صـبياني ثـم أخـذت تحيـك القـماس الأزرق. وقـد تنـاثرت في الغرفـة قصاصات زرقاء وألقي المقص عـلى الأرض وأُفرغـت عـلى حافـة البيـان مـرآة أخرى كانت مهددة بالسقوط.

أما الجدة التي اسـتغرقت عـلى الأريكـة الكبـيرة الـوثيرة في شـبه غيبوبـة أسمتها "إغفاءة" فقد استيقظت وارتدت قبعتها على الفور.

ثم قالت في بـطء وهـي تتحـسس شـعرها الأبـيض النحيـل لتتحقـق مـن تنسيقه:

ــ إني لا أجد الهدوء لأغفو.

فقد بلغت سمعها أصوات غامضة.

ثم جاءت العمة سيسي وهي تبحث في حقيبة عن قطعة من الـشيكولاتة قائلة:

ــ لم أرَ في حياتي مثل هذه الفـوضى! يحـسن بـك يـا إيفيـت أن تجمعـي بعض هذه القصاصات.

فقالت إيفيت:

ـ حسنًا. بعد دقيقة واحدة.

فسخرت منها العمة سيسي وهي تندفع فجأة لتلتقط المقص قائلة:

ـ أي أبدًا!

وساد الصمت لحظات قليلة ثم دفعت لوسيل بيديها في بطء خلال شعرها وهي تقرأ في كتاب.

فألحت العمة سيسي قائلة:

ـ يحسن بك أن تزيلي كل شيء يا إيفيت.

فأجابت إيفيت وهي تنهض مرة أخرى لترتدي الثوب الأزرق من فوق رأسها هازَّة ذراعيها الطويلتين من خلال فتحتي الثوب. ثم ذهبت لتقف بين المرآتين متأملة نفسها مرة أخرى.

وفيما هي تفعل ذلك إذا بها تدفع المرآة الأخرى التي كان وضعها على البيان مهددًا بالسقوط فتنزلق على الأرض في دويٍّ إلى حد ما، ولكنها لم تتحطم لحسن الحظ غير أن الجميع جفلوا مذعورين.

فهتفت العمة سيسي قائلة:

ـ لقد هشمت المرآة!

فانبعث صوت الجدة الحاد قائلًا:

ـ هشمت المرآة! أية مرآة! ومن الذي هشمها؟

فقالت إيفيت في هدوء:

ـ أنا لم أهشم شيئًا، فالمرآة لم تمس بسوء.

فقالت لوسيل:

ـ يحسن بك ألا تضعيها هناك مرة أخرى.

وحاولت إيفيت أن تضع المرآة في مكان آخر وهي تهز كتفيها هزة خفيفة معبرة عن ضيقها بكل تلك الضجة. ولكنه لم تنجح في ذلك.

ثم قالت في غضب:

ـ لو كانت في غرفتي نار للتدفئة لما لزم أن يضج من حولي جمع من الناس عندما أرغب في الحياكة.

فسألتها الجدة قائلة:

ـ أية مرآة هذه التي تحركينها هنا وهناك؟

فقالت إيفيت في وقاحة:

ـ إحدى مرايانا التي نُقلت من الأبرشية.

فقالت الجدة:

ـ لا تكسريها في هذه الدار مهما كان مصدرها.

وكانت الأسرة تكره ذلك الأثاث الذي يخـصُّ "المـرأة التـي تُـدعى سـنثيا". فأودع معظمه المطبخَ وغرف الخدم.

فقالت إيفيت:

ـ أن لا أؤمن بخرافات المرايا وما إلى ذلك.

فقالت الجدة:

ـ ربما كنت لا تؤمنين بذلك. فمن لا يتحمل مسئولية أعماله لا يعبأ عادة بما يحدث.

فقالت إيفيت:

ـ لعـلي أسـتطيع أن أقـول إنهـا مـرآتي الخاصـة قبـل كـل شيء حتـى لـو هشمتُها فعلًا.

فقالت الجدة:

ـ وأنا أقول إن هذه الدار لن تُكسر فيها المرايا ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا بغض النظر عمن تخصُّه. سيسي. هل استقام وضع قبعتي؟

فاتجهت إليها العمة سيسي وعدَّلت من وضع قبعتهـا. عـلى حـين أخـذت إيفيت تترنم في صوتٍ عالٍ مثيرٍ بلحنٍ ناشز.

فقالت العمة سيسي:

ـ والآن هل تسمحين يا إيفيت بتنظيف المكان؟

فصاحت إيفيت قائلة في غضب:

ــ أف! يا للإزعاج! لشدَّ ما يضجرني أن أعيش مع قوم لا ينقطع ضجيجهم وعجيجهم لأتفه الأسباب.

فقالت العمة سيسي في صوت منذر بالشر:

ــ هل لي أن أسأل من تقصدين؟

وأنذر الجو بنشوب شجار آخر. ورفعت لوسيل رأسها وفي عينيها شزرٌ غريب. لقد غلي في عروق الفتاتين دم "المرأة التي تُدعى سنثيا".

فقالت إيفيت المحنقة:

ــ طبعًا لك أن تسألي! إنك تعلمين جيدًا أنني أقصد أهل هذا المنزل اللعين.

فقالت الجدة:

ــ حسنًا على الأقل أننا من أصل لا يتنصَّفه الفساد.

فساد الصمت المكهرب لحظة. ثم قفزت لوسيل من مقعدها الخفيض وكان الشرر يتطاير من عينيها. وهتفت قائلة وهي تصبُّ جام غضبها على رأس المرأة العجوز ذات الجلال المبرقش:

ــ اخرسي!

فأخـذ صـدر المـرأة العجـوز يـضطرب جياشًـا بعواطـف لا يعلـم بهـا إلا اللـه. وساد الصمت ولكنـه كـان عندئـذ بـاردًا كـالثلج كـذلك الـذي يعقُـب الصاعقة.

وهجمت العمة سيسي على لوسيل وهي ممتقعة الوجه وراحت تـدفعها في عنف وغضب قائلة بصوت أجش:

ــ اذهبي إلى غرفتك! اذهبي إلى غرفتك!

ولم تفتـأ تـدفع لوسـيل إلى خـارج الغرفـة، وقـد ابـيض وجههـا واتقـدت عيناها، فانقادت لها لوسيل في حين راحت العمة سيسي تصرخ فيها قائلة:

ــ الزمي غرفتك حتى تعتذري عن ذلك! تعتذري "للأم" عن ذلك!

فسمعت لوسيل في الممر حيث كانت العمة سيسي لا تفتأ تـدفعها وهـي تقول بصوت واضح النبرات:

ــ لن أعتذر!

فراحت العمة سيسي تدفعها إلى أعلى الدرج في مزيد من الجنون.

ووقفت إيفيت في غرفة الجلوس بقامتهـا المديـدة وهـي مذهولـة وقد بدت على مظهرها الإسـاءة التـي لحقـت بكرامتهـا ولكنهـا كانـت مذهولة في نفس الوقت مما أضفى عليها تعبـيرًا غريبًـا للغايـة. كانـت

ذراعاهـا لا تـزالان عـاريتين في ثوبهـا الأزرق الـذي لم يـتم صـنعه بعـد. وقـد أفزعها هي أيضًا إلى حد ما تطاول لوسيل على جلال المشيب. ولكنها أحـست كذلك بغضب هادئ لما ارتكبته الجدة من قذف في دم الأمومـة الـذي يجـري في عروقهما.

قالت الجدة:

ــ لا شك أنني لم أقصد إساءة.

فقالت إيفيت في فتور:

ــ حقًّا؟

ــ طبعًا لا، لم أزد على قولي إننا إن تشاءمنا من كسر المرايا فلا يعني ذلـك أننا فاسدون.

وكاد يتعذر على إيفيت أن تصدق أذنيها. ألم تخطئ الـسمع؟ أكـان ذلـك ممكنًا! أم أن الجدة وهي في مثل السن تكذب في صفاقة؟

أدركت إيفيت أن العجـوز تكـذب في صـفاقة وبـرود. ولكنهـا سرعـان مـا صدقت روايتها المكذوبة.

ثم ظهر القس الذي كانت لديه فسحة من الوقت للراحة. فسأل قـائلًا في بهجة وحذر:

ــ ما خطبكن؟

فقالت إيفيت في بطء:

ـ لا شيء! لقد أمرت لوسيل الجدة بالصمت وهي تقول شيئًا ما... فقادتها العمة سيسي إلى غرفتها! إنها زوبعة في فنجان! ولكن لوسيل تجاوزت الحد قليلًا في هذه المرة.

ولم تستطع العجوز أن تسمع ما قالته إيفيت.

فقالت:

ـ يجب أن تتعلم لوسيل في الحقيقة كيف تتحكم في أعصابها. سقطت المرآة فانزعجتُ. وقلت ذلك لإيفيت. فعلقت بكلام عن الخرافات وأهل هذا المنزل اللعين. فقلت لها إن كان أهل هذا المنزل يكترثون لكسر المرايا فلا يعني ذلك أنهم فاسدون. وعندئذ صرخت فيَّ لوسيل وأمرتني بالصمت. إنه لمن المخجل حقًّا أن يفقد هؤلاء الأطفال السيطرة على أعصابهم. فأنا أعلم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون كذلك.

وجاءت العمة سيسي أثناء ذلك الحديث فانعقد لسانها في أول الأمر ثم بدا لها بعد ذلك أن الجدة لم تذكر سوى الحقيقة.

ثم قالت:

ـ لقد حظرت عليها مغادرة غرفتها حتى تقدم اعتذارها إلى الأم.

فقالت إيفيت في هدوء وترفع وهي قابضة على ذراعيها العاريتين:

يساورني الشك في أنها ستعتذر.

فقالت العجوز:

ــ وأنا لا أريد اعتذارًا. فهو انفعال فحسب. لست أدري مصير هؤلاء الفتيات إن كانت أعصابهن الآن على هذه الصورة! يجب أن تتعاطى لوسيل مقويًّا كالفيبروفات. أعتقد يا سيسي أن آرثر يريد أن يتناول الشاي.

وجمعت إيفيت قصاصاتها وأدوات الحياكة لتصعد بها إلى غرفتها ثم عادت تترنم بلحنها في حدة ونشاز إلى حد ما. ولكنها كانت ترتجف في أعماق نفسها.

فقال لها أبوها في مرح:

ــ أتصنعين مزيدًا من الثياب؟!

فردت عليه قائلة في حكمة وهي تتبختر صاعدة الدرج وقد وضعت ثوبها على إحدى ذراعيها:

ــ نعم مزيدًا من الثياب!

كانت تريد أن تخفف عن لوسيل وتسألها كيف كان يبدو عندئذ انسياب الثوب الأزرق.

وتوقفت عند أول بسطة في الدرج كما كانت تفعل في معظم الأحيان لتحدِّق خلال النافذة المطلة على الطريق والجسر. فقد كان يبدو أنها لا تفتأ تتخيل أن شخصًا ما سوف يُقبل نحوها بحذاء النهر منشدًا تيراليرا! أو شيئًا لا يقل حكمة عن ذلك شأنها في هذا شأن الليدي أوف شالوت.

(5)

أشرفت الساعة على موعد الشاي وكانت زهور الثلج تنمو بالقرب من ممر الحديقة القصير الممتد من جانب الدار إلى البوابة، وهناك على الحشائش الرطبة المنحدرة نحو النهر كان البستاني يعمل متباطئًا في أحواض الزهور الدائرية المبتلة. وفيما وراء البوابة امتد الطريق الأبيض الموحل الذي لا يلبث أن يعبر الجسر الحجري مباشرة ثم يلتف إلى أعلى نحو القرية الشمالية الحجرية الوعرة التي تعلو المصانع الحجرية القاتمة بمنازلها المتراصة ودخانها المتصاعد. وكانت إيفيت تراها في الوادي الضيق أمامها وقد امتدت مداخنها طويلة مستقيمة.

وكانت الأبرشية تتبطن الوادي الوعر على أحد جانبي نهر بابل. أما القرية فكانت تقوم عن بعد في أعلى التل فيما وراء الأبرشية على الجانب الآخر من النهر السريع. ومن خلف الأبرشية كان التل يرتفع في وعورة تكسوه غابة صغيرة قاتمة من أشجار اللاريس العارية التي يختفي خلالها الطريق. وفي مواجهة الدار مباشرة من ناحية الأبرشية كانت ضفة النهر ترتفع وعرة شجراء إلى أن تبلغ المراعي الجرداء المنحدرة التي ترتفع بدورها تدريجيًّا على جوانب التل الشجيرة التي تتخللها صخور رمادية ناتئة.

ولكن إيفيت كانت لا تستطيع من طرف الدار إلا أن ترى الطريق فيما وراء الحائط المسور بالغار وهو يلتف نحو الجسر ثم يعود فيرتفع ملتفًّا حول كتف التل نحو المجموعة الأولى من المنازل الصلدة في قرية بابلويك فيما وراء الأسوار الحجرية الجافة المحيطة بالحقول الوعرة.

كانت لا تفتأ تتوقع أن ترى شيئًا مقبلًا نحوها في طريق بابلويك المنحني، ولذلك كانت لا تفتأ تتلكأ عند بسطة النافذة. وغالبًا ما كانت تأتي عربة أو سيارة أو لوري محمل بالأحجار أو عامل أو أحد الخدم. ولكن لم يظهر لها قط شخص ينشد تيرراليرا! بحذاء النهر حتى خيل إليها أن هذه الأيام قد ولت ولن تعود.

ومع ذلك ظهر يومئذ عند منحنى الطريق الأبيض المائل إلى اللون الرمادي حصان أسمر يخطر في شجاعة ونشاط هابطًا التل فيما بين الحشائش والأسوار الحجرية الخفيضة يقوده رجل مقلَّس يعتلي مقدم العربة الخفيفة. وكان الرجل يتمايل مسترخيًا مع اهتزازات العربة في حين يخطر الحصان هابطًا التل في غسق المساء الساكن. وكانت تبرز من مؤخر العربة مكانس طويلة من الغاب والريش مالت رءوسها على أعوادها.

واقتربت إيفيت من النافذة واضعة الستائر خلف ظهرها وهي تقبض بقوة على عضديها العاريين.

وعند أسفل المنحدر أخذ الحصان يَجِدُّ في خطوه النشيط نحو الجسر الذي جلجلت فوقه العربة واهتزت المكانس مختلطة على حين ظل السائق يتمايل وكأنه في حلم. كان المنظر أشبه بالرؤيا التي يراها النائم.

ولكنه ما إن عبر الجسر وأخذ يسير بمحاذاة سور الأبرشية حتى رفع بصره إلى المنزل الحجري القاتم الذي بدا كأنه قد ارتد بعيدًا عن البوابة عند أسف التل. وحركت إيفيت يديها بسرعة على ذراعيها. وبنفس السرعة لمحها الرجل من تحت هامة قلنسوته. وكان وجهه الأسمر الضاري يقظًا متنبهًا.

وإذا به يوقف العربة عند البوابة البيضاء وهو لا يزال شاخصًا ببصره إلى أعلى نحو نافذة البسطة على حين ظلت إيفيت قابضة على ذراعيها الباردتين المرقطتين تحدق فيه من النافذة وهي شاردة الذهن.

أشار إليها برأسه في حركة دقيقة سريعة وقاد حصانه إلى جانب الطريق فوق الحشائش. ثم كشف الغطاء المشمع عن العربة في لدونة ويقظة واختار بعض الأدوت ثم جذب مكنستين طويلتين أو ثلاثًا من الغاب أو الريش وغطى العربة مرة أخرى. واتجه نحو الدار متطلعًا إلى إيفيت وهو يفتح البوابة البيضاء.

فأومأت إليه برأسها واندفعت إلى غرفة الحمام لترتدي ثوبها مؤملة أن تكون إيماءتها قد خفيت عليه حتى لا يتأكد من أنها فعلت

ذلك. وفي تلك الأثناء سمعت روفر الأحمق المسن وهو يزأر بصوت أجش عميق يتخلله نباح تريكسي الأبله الصغير.

وقد وصلت إلى باب غرفة الجلوس في نفس اللحظة التي جاءت فيها الخادم.

فقالت إيفيت للخادم:

ـ هل هو الرجل الذي يبيع المكانس؟ حسنًا!

ثم فتحت الباب وهي تقول:

ـ هناك رجل يبيع المكانس يا عمتي. فهل أفتح له الباب؟

فقالت العمة سيسي التي كانت تجلس مع القس والأم إلى مائدة الشاي. وقد استُبعدت الفتاتان من تلك الوجبة على سبيل التغيير:

ـ أي نوع من الرجال هو؟

فقالت إيفيت:

ـ رجل يقود عربة.

فقالت الخادم:

ـ إنه من الغجر.

فكان من الطبيعي أن تنهض العمة سيسي في الحال إذ أنها لا بد أن تراه.

كان الرجل الغجري يقف عند الباب الخلفي أسفل الضفة الوعرة القاتمـة التي تنمو فيها أشجار اللاريس. وقد بدت المكـانس واضحة في إحـدى يديـه على حين تدلت من يده الأخرى أدوات مختلفة من النحاس الأحمر والأصـفر اللامع، مقلاة وشمعدان وصحاف من النحاس المطـروق. وكـان الرجـل نفـسه أنيقًا يكاد يبـدو خليعًـا في قلنـسوته الخـضراء القاتمـة وسـترته الخـضراء ذات الصفين المكسوة بالمربعات. ولكنه لشدَّ ما كان رقيقًـا هادئًـا متكـبرًا في نفـس الوقت يحدوه شيء من الترفع والتنازل.

قال وهو ينظر إلى العمة سيسي بعينين سوداوين فاحـصتين فطنتـين وقـد بث في صوته رقة هادئة للغاية:

ــ هل تطلبين شيئًا اليوم يا سيدتي؟

فرأت العمة سيسي كم كان وسـيمًا وقـد تقوسـت شـفتاه في ليونـة أسـفل خط شاربه الأسود حتى اعتراها الاضطراب لرؤيته. وكان أقل أثر للخـشونة أو التهجم من جانبه كفيلًا بأن يجعلها تغلـق البـاب في وجهـه باحتقـار. ولكنـه استطاع أن يبث في مظهره الذكوري إيحاء هينًا دقيقًا بالخضوع جعلها تتردد.

قال إيفيت:

ــ ما أجمل الشمعدان! هل صنعته أنت؟

وتطلعـت إلى الرجـل بعينيهـا الطفلتـين الـساذجتين اللتـين كانتـا كعينيـه قادرتين على التعبير المزدوج.

ـ نعم يا سيدتي!

ثم نظر إلى عينيها لحظة وفي عينيه ذلك الإيحاء السافر بالرغبة الذي كان يبدو وكأنه يسحرها ويسلبها إرادتها. وبدا وجهها الرقيق وكأنه في سبات.

فتمتمت قائلة في غموض: "ما أجمله"!

وبدأت العمة سيسي تسومُه الشمعدان، كـان يتـألف مـن سـاق نحاسـية قصيرة سميكة تقوم في كأس كبيرة مزدوجة. وراح الرجل يصغي إليهـا في أنـاة وترفع دون أن ينظر مطلقًا إلى إيفيت التي استندت إلى البـاب وهـي تراقبـه في تأمل وتفكير.

وعندما دخلت العمة سيسي لتعرض الشمعدان على القـس وتـسأله رأيـه فيما إذا كان يستحق الشراء إذا بإيفيت تسأله قائلة:

ـ كيف حال زوجتك؟

فحدثها الرجل بملء عينيه وقد تغضنت شـفتاه بابتـسامة لا تكـاد تظهـر للعيان ولكنها لم ترتسم في عينيه بـل اشـتد فـيهما الإيحـاء حتـى صـار بريقًـا وحشيًّا.

فتمتم قائلًا بصوت أليف خافت مدغدع:

ـ بخير. ومتى تأتين من تلك الطريق مرة أخرى؟

فقالت إيفيت في غموض:

ـ لست أدري.

قال:

ـ أقبلي في أحد أيام الجُمع حينما أكون هناك.

فحملقت إيفيت من فوق كتفه وكأنها لم تسمعه. وعادت العمة سيسي بالشمعدان والنقود لتدفع له ثمنه. فاستدارت إيفيت في غير اكتراث وهي تترنم بأحد ألحانها المتقطعة متخلية عن الأمر كله، في شيء من الجفاء.

ومع ذلك وقفت عند نافذة البسطة متخفية في هذه المرة لتراقب الرجل عند رحيله. فقد كانت تريد أن تعرف إن كان ذلك الرجل يسيطر عليها حقًّا. ولم تقصد عندئذ أن تلفت نظره إليها.

رأته وهو يهبط إلى البوابة حاملًا مكانسه وأوانيه ومتجهًا إلى عربته حيث دسها بعناية مثبتًا عليها غطاء المشمع، وما هي إلا وثبة بطيئة لا جهد فيها من خاصرتيه المرنتين حتى اعتلى العربة من جديد. وما كاد يلمس الحصان الأسمر بالعنان حتى انطلق يجري في الحال في حين راحت عجلات العربة تطحن الطريق إلى أعلى التل وما لبث الرجل أن اختفى دون أن ينظر خلفه. اختفى كالحلم الذي لم يكن سوى حلم ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تتخلص منه.

قالت محدثة نفسها وقد خاب رجاؤها حقًّا إلى حد ما لأنها كانت ترغب في الخضوع لسيطرة شخص ما أو شيء ما: "كلا! لا سيطرة عليَّ مطلقًا"!

ثم ذهبت لتناقش لوسيل المجهدة الشاحبة في الأمر وتلومها على إثارتها زوبعة في فنجان. قالت لها معاتبة: "وماذا يهم لو أمرتِ الجدة بأن تلزم الصمت! فينبغي أن يُنهى كل شخص عن الكلام إذا ما أغلظ القول. ولكنها لم تقصد ذلك كما تعلمين. كلا لم تقصد ذلك. كما أنها لشد ما تشعر بالأسف لما قالته. ولا سبب هناك مطلقًا لإثارة ضجة. هلمي فلنتزي بأبهى ثيابنا ولنتهادَ إلى أسفل كالدوقات لتناول العشاء. فلنثأر لأنفسنا عن هذا الطريق. هيا يا لوسيل"!

كانت بشاشة إيفيت الغامضة ومجانبتها الكدر على صورة شاذة مبهمة تتميزان بشيء غريب محير يشبه إحاطة الوجه بنسيج العنكبوت. كما كان ذلك يشيع البهجة والسرور، ولكنه أشبه بالسير خلال ضباب الخريف عندما تهب على وجهك جدائل من خيوط العنكبوت الهائمة في الهواء. فلا تدري تمامًا أين تسير.

ومع ذلك نجحت في إقناع لوسيل، وأخرجت الفتاتان أبهى ثيابهما. فارتدت لوسيل ثوبًا يتألف من اللونين الأخضر والأبيض الفضي واتشحت إيفيت بثوب بنفسجي باهت تحلَّى بخيوط حريرية في لون الفيروز. ووضعت كلتاهما قليلًا من أحمر الشفاه ومساحيق

الوجه كما انتعلتا أجمل خفافهما. عندئذ أخذت رياض الفردوس تتفتح. وهمهمت إيفيت وهي تنظر إلى نفسها وقد حاكت المركيزات الصغيرات فيما اكتست به من مظهر أشد ما يكون ارتياحًا وانطلاقًا. فقد مال حاجباها وزُمَّت شفتاها على صورة غريبة. كما بدت للعيان منفصلة عن كل اعتبار دنيوي ومحلقة في سحابة نسجتها من ذخيرتها ذات الألوان اللؤلئية. كان ذلك مسليًّا ولكنه لم يكن مقنعًا.

قالت في أدب ورقة: "لا شك أنني جميلة يا لوسيل وما أروع حسنك الآن وقد بدت عليك تلك النظرة المعاتبة. فلا شك أنك بأنفك هذا تفوقينني أرستقراطية! كما أن العتاب الذي يبدو الآن في عينيك يضفي عليك مظهرًا جذابًا. فما أروع حسنك! ما أروع حسنك! ولكن ألا توافقينني على أنني أفوقك جاذبية إلى حد ما"؟ ثم استدارت نحو لوسيل في بساطة ماكرة معقدة.

لشدَّ ما كانت ساذجة بسيطة فيما قالته. فقد عبرت تمامًا عما يدور بخلدها. ولكنها لم تُشر قط إلى إحساسها الذي كان يشغلها أيضًا وما أشد اختلافه، إحساسها بأنها قد استُطلعت لا من الخارج بل من الداخل، من داخل ذاتها الأنثوية الخفية. كانت ترتدي أبهى ثيابها وتتجلى في أروع مظاهرها لا لسبب إلا لتقاوم ما أحدثه فيها الغجري من تأثير عندما نظر إليها ولم يرَ شيئًا من قسامة وجهها أو جمال أسلوبها، لم يرَ فيها سوى سرِّ عُذْرتها الغامض القوي المختلج.

وما إن دق ناقوس العشاء حتى أخذت الفتاتان تهبطـان الـدرج في كامـل أبهتهما ولكنهما تريثتا حتى بلغت سـمعهما أصـوات الرجـال. ثـم تهادتـا إلى الطابق السفلي حيث دخلتا غرفة الجلـوس، وقـد راحـت إيفيـت تعـدل مـن مظهرهـا بطريقتهـا المرحـة الغامـضة دون أن يفارقهـا ذهولهـا. أمـا لوسـيل فكانت خجولًا تجيش الدموع في مآقيها.

فهتفت العمة سيسي التـي كانـت لا تـزال ترتـدي سـترتها البنيـة الداكنـة المنسوجة قائلة: "يا إلهي! يا لها مـن رؤيـا مفاجئـة! إلى أيـن تتخـيلان أنكـما ذاهبتان"؟

فقالت إيفيت في سـذاجة: "سـنتناول العـشاء مـع الأسرة... ولقـد ارتـدينا أبهى ملابسنا احتفاء بهذه المناسبة".

فضحك القس بصوت عالٍ، وقال العم فرد: "إنه لشرف عظيم للأسرة".

كان كلا الكهلين على جانـب كبـير مـن الـشهامة والرقـة، وهـو مـا كانـت تنشده إيفيت.

فقالت الجدة:

ــ أقبلا لأتحسس ثيابكما، هيا! هل هي أجملها جميعًا؟ لشدَّ ما يخجلنـي ألا أستطيع رؤيتها!

فقال العم فرد:

ـ علينا الليلة يا أماه أن نـصحب الآنـستين الـصغيرتين إلى مائـدة العـشاء ونقوم نحوهما بواجب الحفاوة. فهل ذهبت أنت في صحبة سيسي؟

فقالت الجدة:

ـ بالطبع. فلا بد أن يتمتع الشباب والجمال بالصدارة.

فقال القس مسرورًا:

ـ حسنًا. الليلة فقط يا أماه!

ثم قدم ذراعه إلى لوسيل، وسارت إيفيت في صحبة العم فرد.

ولكن الوجبة كانت مع ذلك ثقيلة مملة. فقد حاولـت لوسـيل أن تكـون مرحـة أنيـسة. ولـشد مـا كانـت إيفيـت ودودًا بطريقتهـا الغامـضة المبهمـة. ولكنها لم تفتأ تسائل نفسها بإبهام في عقلها الباطن قائلـة: "لمـاذا لا نعـدو أن نكون جميعًا كقطع الأثاث الهامدة؟ لماذا خلا كل شيء من الأهمية"؟

"لماذا خلا كل شيء من الأهمية"؟ هذا هو السؤال الـذي لم يفتـأ يـتردد في نفسها ويطفو مرارًا فوق سطح وعيها كفقاعة صغيرة حيثما ذهبـت سـواء في الكنيسة أو في حفل للـشباب أو في فنـدق المدينـة: "لمـاذا خـلا كـل شيء مـن الأهمية"؟

كان كثير مـن الـشبان عـلى اسـتعداد لمغازلتهـا والإخـلاص لهـا في الحـب. ولكنها كانت تضطر إلى التخلص منهم في ضجر، وهـي تـسائل نفـسها قائلـة: "ما السر في تفاهتهم البالغة؟ وضيقي الشديد بهم"؟!

بل إن الغجري نفسه لم يخطـر لهـا عـلى بـال. فقـد كـان حـدثًا عارضًـا لا يستحق الاهتمام مطلقًا. ومع ذلك كلما قرب يوم الجمعة لاحت لها أهميتـه على صورة غريبة حتى إنها سألت لوسيل قائلة: "ماذا نفعـل يـوم الجمعـة"؟ فأجابتها لوسيل بأنه ليس لديهما ما تفعلانه. وغضبت إيفيت.

وجاء يوم الجمعة وظلت على الرغم منها تفكـر طيلـة النهـار في المحجـر الكائن بعيـدًا عـن الطريـق المرتفـع عنـد "بونـسول هِـد". وأرادت أن تكـون هناك. هـذا هـو كـل مـا كانـت تعيـه. أرادت أن تكـون هنـاك. ولكـن فكـرة الذهاب إلى هناك لم تخطر لها على بال. وفضلًا عن ذلك عاد المطـر يتـساقط. ولكنها في أثناء حياكتهـا الثـوب الأزرق لتنتهـي منـه قبـل الحفـل الـذي كـان مزمعًا إقامته في "لامبلي كلوس" في اليوم التالي، أحست أن روحها قد انتقلـت إلى المحجر لتقيم مـع الغجـر بـين القوافـل. لقـد فارقـت جـسدها أو محـارة هيكلها فبدت وكأنها ضالة أو سليبة الروح. أما جوهر كيانهـا فقـد فارقهـا إلى المحجر حيث أقام.

وفي أثناء الحفل الذي أقيم في اليوم التالي لم تدرِ قط أنهـا كانـت تلاطـف ليو وترق له. ولم يخطر على بالها قط أنها كانـت تنتزعـه مـن بـين يـدي إيـلا فريملي المعذبة. كانت لا تعي شيئًا من ذلك حتى سألها ليو وهي تأكل الآيس كريم المحلى بالفستق قائلًا:

ــ لم لا نعقد خطبتنا يـا إيفيـت؟ فكـلي ثقـة أن هـذا هـو عـين الـصواب لكلينا.

كان ليو مبتذلًا إلى حدٍّ ما ولكنه رقيق ميسور الحال. وكانت إيفيت تميـل إليه حقًّا. ولكن أتخطب له! ما أسخف هذا! أحست أنها تود لو قدمت إليـه طاقمًا من ملابسها الداخلية الحريرية ليخطب إليه.

فقالت متعجبة: "ولكنني حسبتك تنشد إيلا"!

ــ حـسنًا! لـولاك لكـان مـن المحتمـل أن يحـدث ذلـك. إنهـا فعالـك كـما تعلمين! فمنذ أن قرأ لك هؤلاء الغجر أحسست أنني لك دون سواي وأنك لي دون سواك.

فقالت إيفيت وقد أذهلها الدهش:

ــ حقًّا! حقًّا!

فسألها قائلًا:

ــ ألم تبادليني ذلك الإحساس إلى حدٍّ ما؟

فسألته قائلة وهي تفيق من دهشتها:

ــ ماذا؟ نحو ماذا؟

ــ نحوي. كما أحس نحوك.

ــ لماذا؟ ماذا! أتعني خطبتنا؟ أنا؟ لا! كيف يمكنني ذلك؟ ما كـان يمكننـي مطلقًا أن أحلم بمثل هذا المحال.

أخذت تتكلم بصراحتها المعهودة دون أن تكترث مطلقًا لمشاعره، فقال في شيء من الغضب: "وماذا كان يمنعك من ذلك؟ حسبتك تفعلين".

فقالت في دهشة بصراحتها العذرية الهادئة غير المبالغة التي أكسبتها إعجاب البعض وعداء الآخرين: "أهكذا اعتقدت حقًّا"؟!

لشد ما استولت عليها الدهشة حتى إنه لم يجد ما يفعله إلا أن يعبث بأصابعه في ضيق. وصدحت الموسيقا فتطلع إليها ببصره.

فقالت له وهي تجمع شتات نفسها مرسلة الطرف في قليل من الترفع نحو جمع الراقصين وكأنه لا وجود له: "لا! لن أرقص بعد ذلك".

وارتسمت على جبينها مسحة من العجب الحائر كما أوحى فعلًا وجهها العذري الهادئ الغامض بتلك الزهرة الثلجية التي تفتقت عنها مُخيلة أبيها العاطفية.

ثم قالت وهي تستدير نحوه في تنازل رقيق: "ولكنك سترقص بالطبع. فعليك أن تطلب أحدًا لهذه الرقصة".

فنهض غاضبًا وسار عبر الغرفة.

ومكثت هي في مكانها هادئة مذهولة تلفها الدهشة، هل يمكن أن يتقدم ليو لخطبتها؟! كان يمكن كذلك أن يتقدم "روفر" كلب نيوفوندلاند الهرم لخطبتها أو يخطبها أي رجل في الوجود؟ كلا بحق السماء. لا يمكن أن يتخيل الإنسان شيئًا أدعى إلى السخرية من ذلك!

عندئذ ومض في ذهنها خاطر سريع فأدركت وجود الرجل الغجري، وتولاها الغضب في الحال. ذلك الرجل من بين جميع الناس! ذلك الرجل! مستحيل!

ثم تساءلت مرة أخرى في دهشة مكبوتة: "والآن لماذا؟ لماذا؟ فهذا محال تمامًا... تمامًا! إذن فما السر في ذلك"؟

استعصت عليها تلك المشكلة. فنظرت إلى الراقصين من الشبان، الذين ارتفعت مرافقهم وبرزت أعجازهم وضمرت خصورهم في رشاقة. ولم يمدها هؤلاء الشبان بحل لمشكلتها. ولكنها لشدَّ ما كرهت تلك الرشاقة المفتعلة للخصور والأعجاز البارزة التي تدلت فوقها السترات الأنيقة في خلاعة مخنثة.

وحدثت نفسها في غضب قائلة: "ثمة شيء في كياني لا يراه هؤلاء الشبان ولن يروه". وقد أحست في نفس الوقت بالراحة لعدم رؤيتهم إياه وقصورهم عنه، فبذلك خلت الحياة من التعقيد إلى حد كبير.

ولمَّا كانت إيفيت تحتفظ بوعيها في رؤاها فقد تراءى لها الرجل الغجري من جديد بسترته الخضراء القاتمة المرسلة على سراويله السوداء وعجزه الجميل الحي الذي لا يقل يقظة عن العيون. كان رشيقًا. أما هؤلاء الراقصون فقد بدت رشاقتهم مكتنزة صمَّاء، وأعجازهم لا تعدو أن تكون قد اكتظت لحمًا. وكان ليو على شاكلتهم يخال نفسه راقصًا مرموقًا ويخال قوامه آية في الكمال!

ثم تراءى لها وجه الغجري، بأنفه المستقيم وشفتيه الرقيقتين الحساستين ونظرته السوية المعبرة في عينيه السوداوين وقد بدت أنها تصيبها في مكان حيوي لم يكتشف بعد دون أن تخطئ الهدف.

جمعت شتات نفسها في غضب. كيف تجاسر ذلك الغجري على أن يحدجها بمثل هـذه النظـرات؟ فشخـصت ببـصرها في غـضب إلى هـؤلاء الـشبان الأغـرار التافهين في حلقة الرقص. واحتقرتهم. لقد ألفت نفسها تحتقر ذلك الجمع تمامًـا كما تحتقر الغجريات أولئك الرجال الذين ليسوا من الغجـر، يحتقـرن مـشيتهم الشبيهة بمشية الكلاب في الطرقات. أنَّى لهم بذلك التحدي الرقيق المختلي الموعز الذي يمكن أن يصل إليها، إنها لا تريد أن تعاشر كلبًا أليفًا.

وقد شمَّ أنفها الحساس وانسدل شعرها الكستنائي الناعم محيطًا بوجهها الرقيق إحاطة الكأس بالزهرة وهي جالسة تفكر وتتأمل. لشد ما بدت بتـولًا. كما بدت عليها في نفس الوقت مسحة مـن تلـك الـساحرة الطويلـة الـصغيرة البتول التي تخشاها الكلاب الأليفـة مـن الرجـال. فربمـا صـارت كائنًـا غريبًـا مخيفًا بين غمضة عين وانتباهتها.

لذلك أحست بالوحدة برغم كل ما كانت تسمعه من كلمات الغـزل. بـل ربما زادتها كلمات الغزل إحساسًا بالوحدة.

وما إن انتهت الرقصة حتى عاد إليها ليو الذي كان أشبه بالكلب الـضخم بين الكلاب الأليفة مستجمعًا شجاعته من جديد.

قال وهو يجلس بجانبها: "ألم تفكري في الأمر قليلًا"؟

كان شابًّا ميسورًا صادق العزم موفور الصحة. ولكن إيفيـت كانـت تضيق به على صـورة غـير معقولـة دون أن تـدري لـذلك سـببًا عنـدما

يجذب سراويله عند الركبة من فوق ساقيه اللتين كانتا على تناسقهما لا تلفتان النظر ثم يجلس في ثقة على أحد المقاعد.

فقالت في غموض: "أنا؟ فيم"؟!

فقال: "أنت تعرفين ماذا أعني فهل استقر رأيك"؟

فسألته قائلة في براءة: "علام يستقر رأيي"؟

لقد نسيت الأمر حقًّا بوعيها الخارجي.

فقال ليو جاذبًا سراويله مرة أخرى: "على خطبتنا كما تعلمين".

كان يشبهها تقريبًا في طريقته المرتجلة.

فقالت في وُدٍّ رقيق وكأنه سؤال عابر من بين عدة أسئلة "هذا مستحيل على الإطلاق".

ثم رددت كلامها كالأطفال قائلة: "بل إني لم أعد قط إلى التفكير فيه. لا تحدثني عن هذا الهراء! فهو أمر مستحيل على الإطلاق".

فقال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة إزاء تأكيدها الشارد الهادئ: "أهذا الأمر مستحيل؟ حسنًا. إذن فما هو الممكن؟ أتريدين إذن أن تموتي عانسًا"؟

فقالت في شرود: "لا يهمني ذلك".

فقال: "ولكنه يهمني".

فاستدارت نحوه ونظرت إليه في عجب قائلة:

ـ "لماذا؟ ماذا يهمك إن كنتُ عانسًا"؟

فقال وهو يتطلع إليها بابتسامة جريئة محملة بالمعاني التي أراد أن يصرخ بها وإن لم يوضحها: "لكل ما في الوجود من أسباب"، ولكن ابتسامة ليو جريئة الواضحة لم تنفذ إلى أعماق كيانها الخفية فتصيبها فيها بل ارتطمت كالكرة بظاهر جسدها فحسب وأحدثت أثرها المزعج المباغت.

فقالت في حقد فاحش: "ما أسخف هذا العرض! فأنت تكاد أن تكون خطيبًا لـ... ل...".

ولكنها استدركت في الوقت المناسب وأردفت قائلة: "ربما لنصف دستة من الفتيات الأخريات. ولا أجد عرضك ما يرضي كبريائي. وأكره أن يعلم به أحد! نعم أكره ذلك! ولن أنبس بكلمة عنه كما أرجو أن يكون لديك من الحكمة ما يمنعك من ذلك... ها هي ذي إيلا"!

ثم تهادت بعيدًا مشيحة عنه بوجهها كالزهرة الرقيقة على غصنها الأملود لتنضم إلى إيلا فريملي المسكينة.

وضرب ليو نفسه بقفازه الأبيض.

ثم حدَّث نفسه قائلًا: "أيتها الكلبة الصغيرة! ما أشرسك"!

ولكنه من ذلك النوع الضخم القوي من الكلاب الذي يستهويه إلى حد ما أن تهر القطة الصغيرة في وجهه. فبدأ فعلًا يطاردها.

(6)

وفي الأسبوع التالي عاد المطر ينهمر بغزارة، مما أثار غضب إيفيت الغريب. فقد كانت تريده أن يكون صحوًا. بل أصرَّت على أن يكون الجو كذلك وبخاصة قرب نهاية الأسبوع. ولكنها لم تسأل نفسها عن السبب!

وحل يوم الخميس وهو عطلة نصف اليوم فطلعت الشمس ونزل الصقيع. وجاء ليو بسيارته وجماعته. ولكن إيفيت رفضت في جفاء أن تذهب معهم دون إبداء الأسباب.

قالت: "لا، وشكرًا. فإني لا أشعر بالرغبة في ذلك".

كانت تجد بعض المتعة في الخروج على الإجماع.

ثم خرجت للنزهة وحدها فوق التلال المتجمدة حتى بلغت منطقة الصخور السوداء.

وكان اليوم التالي مشمسًا أيضًا يتساقط فيه الصقيع. ومع أن ذلك كان في شهر فبراير فإن الأرض في الشمال لا يذوب جليدها في الشمس. وأعلنت إيفيت أنها ذاهبة في نزهة بالدراجة ومعها غداؤها فربما مكثت في الخارج حتى المغيب.

وبدأت رحلتها في غير عجلة. وكانت الشمس على الرغم من الصقيع تعروها مسحة من الربيع. وقد وقفت الغزلان في ضوء الشمس بعيدًا في المرعى طلبًا للدفء على حين سار أحد الظباء في بطء عبر المنظر الطبيعي الساكن وكان مرقطًا بالبياض.

وتعذر على إيفيت وهي تقود دراجتها أن تحتفظ بدفء يديها على الرغم من إحساسها بالسخونة الشديدة في جسدها. لم تشعر بدفء يديها إلا عندما اضطرت للسير على الأقدام في سكون الريح صاعدة التل حتى قمته.

ولشد ما كانت الأرض المرتفعة عارية واضحة كعالم آخر. وصعدت إيفيت إلى مستوًى آخر من الأرض حيث قادت دراجتها في بطء خشية أن تضل طريقها في ذلك التيه الشاسع من الأسوار الحجرية. وبينما كانت تسير في طريقها الذي استصوبته بلغ سمعها صوت طرقات خافتة ذات رنين معدني واهن.

كان الرجل الغجري مفترشًا الأرض وقد استند ظهره إلى ذراع العربة وهو يطرق وعاء من النحاس. كان جالسًا في الشمس عاري الرأس ولكنه كان مرتديًا سترته الخضراء ومن حوله يتحرك في هدوء ثلاثة أطفال اخذوا يلعبون في حظيرة الحصان. أما الحصان والعربة فقد اختفيا عن الأنظار. وثمة عجوز محنية عُصِب رأسها بمنديل راحت تطهو الطعام على نار وقودها الحطب. ولم يكن يُسمع سوى صوت المطرقة الصغيرة التي تتابعت طرقاتها السريعة المدوية على النحاس.

وتطلع الرجل ببصره في الحال عندما ترجلت إيفيت من فوق دراجتها ولكنه لم يتحرك برغم توقفه عن الطرق وقد علت وجهه ابتسامة النصر وكانت رقيقة لا تكاد ترى. ونظرت العجوز خلفها نظرة حادة من تحت شعرها الرمادي القذر. فأسر لها الرجل بكلمة خافتة استدارت على أثرها مرة أخرى نحو النار. وتطلع هو إلى إيفيت.

سألته مرة أخرى قائلة: "كيف حالكم جميعًا"؟

فاستدار في جلسته وجذب مقعدًا خفيضًا لإيفيت من تحت عربة القافلة قائلًا: "بخير! هل جلست قليلًا"؟

وبينما كانت تقود دراجتها إلى جانب المحجر عاد يطرق الإناء بضرباته السريعة الخفيفة الخاطفة.

وذهبت إيفيت إلى النار لتدفئ يديها.

ثم سألت العجوز في طفولة وهي تمد نحو جمرات من النار يديها الطويلتين الرقيقتين المرقشتين بالحمرة من شدة البرد قائلة:

ـ أتطهين الغداء؟

فقالت العجوز: "الغداء. نعم! له وللأطفال".

وأشارت بشوكة طويلة إلى الأطفال الثلاثة ذوي العيون السوداء الشاخصة، وكانوا يحدقون فيها من تحت أهدابهم السوداء. ولكنهم كانوا يتميزون بالنظافة. أما العجوز فهي وحدها التي لم تكن نظيفة. بل إن المحجر نفسه كان آية في النظافة.

وجثت إيفيت في صمت وهي تـدفئ يـديها، في حـين راح الرجـل يواصـل طرقاته بسرعة تتخللها فترات مـن الـسكون. وصـعدت العجـوز في بـطء درج العربة الثالثة من القافلة وهي أقدمها عهدًا. وبدأ الأطفال يلعبون من جديد في صمت وانهماك كالحيوانات البرية الصغيرة.

وسألته إيفيت مستديرة نحوه وهي تنهض من فوق النار قائلة:

ـ هل هم أطفالك؟

فنظر إلى عينيها وأومأ برأسه.

ـ ولكن أين زوجتك؟

ـ خرجت بالسلة. خرجوا جميعًا بقضِّهم وقضيضهم لبيـع الـسلع أمـا أنـا فلا أذهب لذلك. إني أصنعها فحسب ولكنني لا أذهب لتسويقها فقلَّما أفعل ذلك. قلَّما".

فقالت: "وهل تصنع جميع الأدوات النحاسية"؟

فأومأ برأسه، وقدم إليها المقعد الخفيض مرة أخرى فجلست.

قالت: "قلت إنك تمكث هنا يوم الجمعة. فجئت من هذا الطريـق. إذ أن الجو جميل للغاية".

فقال الغجري، وهو ينظـر إلى وجنتهـا التـي لم تـزل ممتقعـة إلى حـد مـا بسبب البرد، وإلى شعرها الناعم فـوق أذنهـا المحمـرة، وإلى يـديها الطـويلتين فوق ركبتها وكانتا لا تزالان مرقشتين بالحمرة: "إنه يوم جميل حقًّا"!

ثم سألها قائلًا: "ألا تشعرين بالبرد أثناء ركوبك الدراجة".

فقالت وهي تقبض يديها في عصبية: "... في يديَّ"!

ـ ألم ترتدي قفازك؟

ـ نعم ولكنه لم يُجد كثيرًا.

فقال: "أينفذ منه البرد"؟

فردت قائلة: "نعم".

وجاءت العجوز في بطء وهي تهبط درج العربة على صورة غريبة مضحكة حاملة بعض الصحاف المطلية بالمينا.

صاح قائلًا في صوت هادئ: "أطهوت الغداء"؟

فتمتمت العجوز بشيء ما وهي تضع الصحاف بالقرب من النار. وقد تدلى وعاءان من قضيب حديدي طويل امتد في وضع أفقي فوق جمرات النار، وثمة مقلاة صغيرة كانت تئز على حامل حديدي صغير، والبخار والحرارة يرتعشان معًا في ضوء الشمس.

وضع أدواته والإناء على الأرض ثم نهض واقفًا.

سأل إيفيت قائلًا دون أن ينظر إليها: "أتأكلين شيئًا معنا"؟

فقالت إيفيت: "لقد أحضرت غدائي".

فقال: "أتأكلين شيئًا من اليخني"؟

ثم عاد يخاطب العجوز خلسة وبهدوء. فتمتمت مجيبة إياه وهي تزحلق الوعاء الحديدي نحو طرف القضيب.

قال: "هاك بعض الفول مع قليل من لحم الضأن".

فقالت إيفيت: "شكرًا جزيلًا"!

ثم استجمعت إيفيت شجاعتها فجأة وأردفت تقول: "حسنًا. لا بأس. على أن تكون كمية صغيرة للغاية إن كان لي أن أطلب".

واتجهت إلى دراجتها لتحضر غداءها الموثق بها في حين صعد هو الدرج إلى عربته الخاصة. ولم يلبث أن ظهر وهو يمسح يديه بمنشفة.

قال: "أتريدين أن تأتي لتغسلي يديك"؟

فقالت: "لا.. لا أظن ذلك.. فهما نظيفتان".

وألقى بعيدًا بماء الاغتسال ثم سار في الطريق حاملًا إبريقًا نحاسيًّا كبيرًا ليملأه بالماء النظيف من النبع الذي كان يتساقط ماؤه نضيضًا في بركة صغيرة، كما حمل قدحًا ليعب به الماء.

وعند عودته وضع الإبريق والقدح بالقرب من النار ثم أحضر لنفسه كتلة صغيرة من الخشب ليجلس عليها. وافترش الأطفال الأرض متزاحمين بالقرب من النار وهم يأكلون الفول وقطع اللحم الصغيرة بالملعقة أو بأصابعهم. أما الرجل الجالس على كتلة الخشب

فكان يأكل في صمت واستغراق. في حين راحت المرأة تـصنع القهـوة في الإنـاء الأسود فوق الحامل ثم تعرج صـاعدة الـدرج لتـأتي بالأقـداح. وران الـسكون على المخيم. جلست إيفيـت عـلى المقعـد الخفـيض بعـد أن خلعـت قبعتهـا وهزت شعرها في الشمس.

وسألته إيفيت فجأة قائلة: "كما طفلًا لديك"؟

فأجاب قائلًا في بطء وهو يتطلع ببصره إلى عينيها: "حوالي خمسة".

وهوى طائر قلبها مـرة أخـرى حتـى بـدا أنـه مـات. وتناولـت منـه قـدح القهوة في غموض وكأنها في حلم. كانت لا تحس بشيء سوى هيكله الـصامت وهو جالس كالطيف على كتلة الخشب وفي يده قـدح مطـلي بالمينـا يحتـسي منه القهوة في صمت. كانت إرادتها قد فارقـت أطرافهـا، فقـد سـيطر عليهـا، وألقى عليها ظله.

وكان الغجري وهو ينفخ في القهـوة الـساخنة لا يحـس إلا بثمـرة عـذرتها الغامضة ورقة جسدها المتناهية.

وأخيرًا وضع قدح القهوة بالقرب من النار ثم نظر إليها. كان شـعرها مسدلًا على وجهها وهي تحاول أن ترشف القهوة مـن القـدح الـساخن. وقـد ارتـسمت عـلى وجههـا سـيماء الزهـرة الرقيقـة الوسـنى عنـدما تخفق على عودهـا يانعـة ممتلئـة. كانـت أشـبه بزهـرة قديمـة غامـضة أينعت متفتحـة أو كزهـرة الـثلج التـي تنـشر أجنحتهـا البيـضاء الثلاثـة

محلقة في سباتها اليقظان أثناء إزهارها القصير السريع. لقد ران عليها ذلك النعاس اليقظان الذي استغرقت فيه عذرتها الناضجة المتفتحة وهي نشوى كزهرة الثلج في ضوء الشمس.

وأحس بها الرجل الغجري في عليائه، فراح ينتظرها كمادة الظل، والظل يلبث في مكانه كائنًا هناك. وأخيرًا سمع صوته وهو يقول دون أن يبدد ذلك السحر الساجي: "أتريدين الآن أن تذهبي إلى عربتي لتغسلي يديك"؟

وحدقت عيناها الطفلتان ناعستين في يقظة وهي في لحظة عذرتها الكاملة، حدقتا في عينيه دون أن تبصرا شيئًا. لم تحس إلا بذلك الفيض الغامض الغريب الذي يتدفق منه فيغمر أطرافها ويحيلها في النهاية سليبة الإرادة تمامًا. كانت تحس بقوته الغامضة الكاملة.

قالت: "أظن ذلك".

فنهض في صمت، ثم استدار ليلقي أمرًا إلى العجوز في صوت خفيض، ثم عاد فنظر إلى إيفيت مركزًا عليها قوته حتى لا تشعر بعبء نفسها أو عملها.

قال: "هيا".

فتبعته في بساطة وهي تتابع أمام عينيها حركة جسده الهادئة الخفية المسيطرة ولم يكلفها ذلك جهدًا ما فقد صارت طيَّ إرادته.

كان قد بلغ قمة الدرج وهي ما زالت عند أسفله عندما أحست بصوت متطفل. فوقفت هناك ساكنة. ثمة سيارة كانت مقبلة. فوقف هو عند قمة الدرج يتلفت حوله بطريقة غريبة. وهتفت العجوز تقول شيئًا في صوت أجش، على حين اندفعت السيارة تدنو منهم بضجيجها الذي أخذ يرتفع سريعًا. كانت السيارة مارَّة بهم.

ثم سمعا صيحة امرأة وصوت الفرملة. لقد توقفت السيارة وراء المحجر تمامًا.

وهبط الرجل الغجري الدرج بعد أن أغلق باب العربة.

قال: "أتريدين أن ترتدي قبعتك"؟

فاتجهت ممتثلة لأمره إلى المقعد الخفيض بالقرب من النار حيث التقطت قبعتها. وجلس هو في غموض بالقرب من إحدى عجلات العربة حيث التقط أدواته. وعندئذ انفجرت ضربات مطرقته السريعة الغاضبة تشبه طلقات المدفع الرشاش الصغير في نفس اللحظة التي سمع فيها صوت المرأة وهي تصيح قائلة: "هل يمكننا أن ندفئ أيدينا على نار المخيم"؟

وتقدمت المرأة مرتدية سترة ملساء لامعة ضخمة من فراء السمُّور، وتبعها رجل يرتدي معطفًا أزرق وهو ينتزع قفازه الفرائي ويخرج غليونه.

قالت المرأة ذات السترة المصنوعة من جلود عديد من الحيوانات الصغيرة الميتة، وهي ترسم على وجهها ابتسامة عريضة تنبئ بشيء من التنازل وقليل من التردد نحو أهل الدار:

ــ لشد ما بدت النار مغرية.

ــ فلم ينبس أحد ببنت شفة.

ثم تقدمت نحو النار وهي ترتجف قليلًا من البرد داخل سترتها. فقد جاءا في سيارة مفتوحة.

كانت امرأة ضئيلة للغاية ذات أنف كبير إلى حد ما! ربما كانت يهودية. ولمَّا كانت في حجم الطفل تقريبًا فقد بدت أضخم مما ينبغي بكثير في تلك السترة الفرائية. وفي وسط هندامها الغالي كانت عينا المرأة اليهودية المدللة الواسعتان العسليتان المتمعضتان إلى حد ما تحملقان على صورة غريبة.

انحنت فوق النار الهادئة مادة يديها الصغيرتين اللتين كانتا تتلألآن بالماس والزمرد. ثم قالت وهي ترتجف: "لا شك أنه ما كان ينبغي أن نأتي في سيارة مفتوحة! ولكن زوجي يأبى حتى أن أعبِّر عما أحس به من البرد"!

ثم نظرت إليه بعينيها الطفلتين النجلاوين المعاتبتين اللتين لم تبرحا تحتفظان بما يميز المرأة اليهودية البورجوازية من دهاء ماكر. ربما كانت امرأة غنية.

كان من الواضح أنها تهوى ذلك الرجل الضخم الأشقر على طريقة المرأة اليهودية الغريبة. وأخذ يبادلها النظرات بعينيه الزرقاوين الشاردتين اللتين كانتا تبدوان وكأنهما بلا أهداب. وقد تغضنت وجنتاه الناعمتان العاريتان على صورة غريبة بابتسامة صغيرة لا تعبر عن شيء.

كان يوحي إلى كل من يراه برياضات الشتاء كالتزحلق والانزلاق. أخذ يملأ غليونه في بطء وهو يضغط على التبغ بإصبع قوية محمرة وقد بدا عليه أنه رجل رياضي منقطع عن الحياة.

ونظرت إليه المرأة اليهودية لتتلقى منه جوابًا. ولكنه لم يجب بشيء قط فيما عدا تلك الابتسامة الغريبة الجوفاء. فاستدارت مرة أخرى نحو النار وقد مال حاجباها وهي تنظر إلى يديها الصغيرتين البيضاوين الممدودتين.

نزع معطفه ذا البطانة الثقيلة فظهر في سترة أنيقة تتألف من وحدات زخرفية حادة الزوايا وقد صنعت من الصوف الناعم المصقول ذي الألوان الصفراء والرمادية والسوداء وأسدلت على سروال أنيق فضفاض إلى حد ما. نعم كان كلاهما يتزيا بكل غالٍ وثمين! كما كان الرجل يمتاز بجسم رائع وصدر رياضي بارز. أخذ يكدس الوقود في هدوء شأن من خبر حياة المخيمات وكأنه جندي في حملة حربية.

سأل إيفيت قائلًا وهو يحدج الغجري المنهمك في طرقاته بنظرة سريعة صامتة: "أيضايقهم أن نزكي بعض قطع الوقود من خشب الشوح"؟

فقالت إيفيت في ذهول وقد بدأ سحر الرجل الغجري ينجاب عنها رويـدًا فأحست بالجنوح والفراغ:

ـ أعتقد أنهم يرحبون بذلك.

فذهب الرجل إلى السيارة وعاد يحمل كيسًا صغيرً مملوءًا بقطع الخشب اغترف منه ملء يده ثم صاح قائلًا وهو يخاطب الرجل الغجري:

ـ أيضايقكم أن نزكي النار؟

ـ ماذا؟

ـ أيضايقكم أن نزكي النار بقليل من الوقود؟

فقال الغجري: لا. فلتفعل.

وبدأ الرجل يضع قطع الوقود في خفة وحرص على الجمرات الحمـراء ولم تلبث أن اشتعلت إحداها بعد الأخرى وتوهجت كورود من اللـهب يطيـب أريجها.

فصاحت اليهودية الـصغيرة وقـد عـادت تنظـر إلى رجلهـا قائلـة: "آه! مـا أجمل هذا! ما أجمل هذا"! فنظر إليها. ولـشدَّ مـا رقـت نظرتـه كأنهـا أشـعة الشمس على الجليد. ثم صاحت اليهودية الصغيرة مخاطبة إيفيت عبر صوت الطرقات قائلة: "ألا تحبين النار؟ آه! إني أعشقها"!

وضاقت بصوت الطرقات فأدارت بصرها وقـد تقطـب إلى حـد مـا حاجباها الـصغيران الرفيعـان وكأنهـا تريـد أن تـأمر الرجـل بـالتوقف.

وأدارت إيفيت بصرها أيضًا فإذا بالرجل الغجـري مُكـبٌّ عـلى إنائـه النحـاسي وقد انفرجت ساقاه وانخفض رأسه وارتفعت ذراعه اللدنة. لشد ما بـدا نائيًـا عنها.

واتجه الرجل الذي جاء في رفقـة اليهوديـة الـصغيرة إلى الغجـري ووقـف ينظـر إليـه في صـمت واضعًا غليونـه في فمـه. لقـد صـارا الآن رجلـين أشـبه بذكرين غريبين من الكلاب لا بد أن يتشمم أحدهما الآخر.

قالت اليهودية الصغيرة وهي تنظر إلى إيفيت نظرة ماكرة ممتعضة: "إننا نقضي شهر العـسل". كانـت تـتكلم بـصوت متحـدٍّ عـالي النـبرات إلى حـد مـا كصوت طائر ما مثل القيق أو غراب القيظ.

فقالت إيفيت: "حقًّا"؟

ــ "نعم! قبل أن يتم زواجنا! هـل سـمعت عـن سـيمون فوسـيت؟ وكـان ذلك هو اسم أحد المهندسين الأغنياء المعروفين في الشمال.

ــ أنا زوجته وهو يتخذ الآن الإجراءات ليطلقني!

ثم نظرت إلى إيفيت في تحدٍّ ولهفة غريبين.

فقالت إيفيت: حقًّا؟!

وعندئـذ أدركـت الـسر في نظـرة الامتعـاض والتحـدي التـي ارتـسمت في عينيهـا الـنجلاوين، الطفلتـين العـسليتين. كانـت امـرأة صـغيرة نزيهـة

ولكن نزاهتها ربما كانت متحررة أكثر مما ينبغي. بل ربما كان ذلك هو السبب إلى حد ما فيما عُرف عن سيمون فوسيت الشهير من تبذُّل شائن.

ــ نعم! وسأتزوج الماجور إيستوود، حالما أحصل على الطلاق.

لقد كشفت الآن جميع أوراقها. فهي لن تخدع أحدًا.

ومن خلفها كان الرجلان يتجاذبان في إيجاز أطراف الحديث. فالتفتت خلفها وحدجت الرجل الغجري بنظرة سريعة من عينيها النجلاوين العسليتين.

كان يتطلع ببصره فيما يشبه الخجل إلى الرجل الضخم ذي السترة اللامعة الذي وقف ينظر إلى أسفل وغليونه في فمه وِقفة رجل لرجل.

قال الغجري في صوت خفيض: "مع الخيل خلف آراس".

كانا يتحدثان عن الحرب. فقد خدم الغجري في فصائل المدفعية في فرق الماجور.

قالت اليهودية: "Ein Schoner mensch. أليس رجلًا وسيمًا"؟

فقد كان الرجل الغجري في نظرها أيضًا رجلًا عاديًّا من الجنود البريطانيين.

فقالت إيفيت: "للغاية"!

فسألتها اليهودية قائلة وفي صوتها رنة دهش: "أتركبين الدراجة"؟

ـ نعم! إلى بابلويك، فإن أبي هو مستر سايول راعي الكنيسة، في بابلويك!

فقالت اليهودية: آه! إني أعرفه. إنه كاتب لـوذعي! لـوذعي للغايـة! فقـد قرأت له...".

وكانت جميع قطع الشوح قد التهمتها النيران التي صـارت عندئـذ كومـة مرتفعة من الجمرات تتفتت حطامًا. ثم أخذت الـسماء تتلبـد بـالغيوم عنـد الأصيل. وأنذرت السماء بالثلوج قرب السماء.

عاد الماجور والتَحفَ بمعطفه قائلًا:

ـ أعتقد أنني تـذكرت وجهـه! إنـه أحـد الـسُّواس، وقـد بـرع في تـدريب الخيل ورعايتها.

وهتفت اليهودية قائلة لإيفيت: "أنصتي إليَّ! ألا تسمحين لنا باصـطحابك إلى نورمانتون"؟ فـنحن نـسكن سـكورسي، ويمكننـا أن نوثـق دراجتـك بمـؤخَّر السيارة".

فقالت إيفيت: "لا بأس".

ثم نادت المرأة اليهودية الأطفال، الذين راحوا يختلـسون النظـر والرجـل الأشقر يدفع الدراجة بعيدًا، قائلة: "تعالوا إليَّ! تعالوا! تعالوا هنا"!

ثم أخرجت كيس نقودها الصغير وأبرزت لهم درهمًا.

وصاحت قائلة: "تعالوا إليَّ! تعالوا خذوه".

كان الرجل الغجري قد توقف عن عمله ودلف إلى داخل عربته. فنادت العجوز الأطفال من الحظيرة بصوت أجش وتقدم الطفلان الكبيران إلى الأمام وهما يختلسان الخطى. فأعطتهما المرأة اليهودية قطعتي الفضة اللتين احتواهما كيس نقودهما، وكانت إحداهما من ذات الخمسة قروش والأخرى من ذات العشرة. ثم سُمعت العجوز التي كانت مختفية عن الأنظار وهي تصيح مرة أخرى بصوتها الأجش.

وهبط الرجل الغجري من عربته ثم سار نحو النار. وتفرست المرأة اليهودية في وجهه بما عرف عن جنسها من جرأة بورجوازية غريبة.

قالت: "هل حاربت في فرقة الماجور إيستوود"؟

ــ نعم يا سيدتي!

ــ تخيل أنكما هنا الآن معًا! إن السماء ستثلج.

ثم تطلعت ببصرها إلى السماء.

فقال الرجل وهو ينظر إلى السماء: "ليس الآن. بل فيما بعد".

لقد صار هو أيضًا بعيد المنال فقد خاض بنو جنسه منذ قديم الأزل معركة غريبة مع المجتمع المستقر، ولم يفكروا في كسب المعركة. ولكنهم كانوا يسجلون نصرًا من وقت لآخر.

غير أن تلك الفرصة الرياضية التي كانت تتاح لهم قديمًا لإحراز انتـصارات من وقت لآخر قد اختفت تماما منذ نشوب الحرب فلم يكـن هنـاك بـدٌّ مـن الاستسلام. ومع ذلك فإن عيني الرجل الغجـري لم تبرحـا تحتفظـان بنظـرتهما الجريئة. ولكنها تجمدت واتجهت بعيدًا بعـد أن زالـت عنهـا مـسحة الرغبـة الوقحة. فقد خاض الحرب. ونظر إلى إيفيت قائلًا:

ــ هل تعودين بالسيارة؟

فأجابته في رجفة متكلفة إلى حد ما قائلة: "نعم. فإن الطقس غدَّار"!

فردد قولها وهو ينظر إلى السماء قائلًا: "الطقس غدَّار"!

لم تـستطع أن تتبـين مـشاعره مطلقًـا. وفي الواقـع فإنهـا لم تعبـأ بـذلك كثيرًا.

فقد فتنت عندئذ إلى حد ما بسحر تلك اليهودية الصغيرة التي كانت أمًّـا لطفلين، وكانت على وشـك أن تنقـل ثروتهـا مـن حـوزة المهنـدس الـشهير إلى الماجور إيستوود ذلك الشاب الرياضي المفلس الـذي كـان ولا ريـب يـصغرها بخمسة أعوام أو ستة. إنه لأمر محير إلى حد ما!

ثم عاد الرجل الأشقر.

وصاحت اليهودية الصغيرة قائلة بنغمة حزينة: "شارل! أعطني سيجارة"! فأخرج علبته في بطء بحركته الرياضية الوئيدة. وكان في نفسه شيء حساس يجعله بطيئًا حذرًا وكأنه مجرح من الناس. أعطى زوجته سيجارة وإيفيت أخرى ثم العلبة في بساطة تامة إلى الرجل الغجري الذي أخذ منها واحدة.

ـ شكرًا يا سيدي!

ثم اتجه نحو النار في هدوء ثم انحنى مشعلًا السيجارة من الجمرات الحمراء وقد راحت المرأتان ترقبانه.

فقالت اليهودية في عطف بورجوازي غريزي: "حسنًا. وداعًا! وشكرًا لنارك الدافئة".

فقال الغجري: "النار ملك الجميع".

وأقبل عليه طفله الصغير وهو يمشي بخطًى قصيرة سريعة.

ثم قالت إيفيت: "وداعًا! أرجو من أجلكم ألا تُثلج السماء.

فقال الغجري: "نحن لا نبالي بالقليل من الثلج".

فقالت إيفيت: "حقًّا؟ كنت أظن غير ذلك"!

فقال الغجري: "كلا"!

وألقت بوشاحها في جلال على كتفها ثم سارت في أثر السترة الفرائية التي كانت ترتديها اليهودية وقد بدت وكأنها تمشي من تلقاء ذاتها على ساقين صغيرتين.

(7)

كانت إيفيت تجد شيئًا من الإثارة في أسرة إيستوود كما تعودت أن تسميها. ولم يكن أمام اليهودية الصغيرة وقتذاك، إلا أن تنتظر ثلاثة أشهر لتحصل على الطلاق النهائي. واستأجرت في جرأة كوخًا صغيرًا على مقربة من البراري في سكورسبي غير بعيد من التلال. كان الشتاء في زمهريره وكانت تعيش هي والماجور في عزلة نسبية دون أن يقوم أحد على خدمتها. وقد اعتزل الماجور وظيفته في الجيش العامل وتسمى باسم المستر إيستوود. وفي الواقع أنهما صارا يعرفان في نظر العالم أجمع باسم مستر ومسز إيستوود.

كانت اليهودية الصغيرة في السادسة والثلاثين من عمرها، وقد تجاوز طفلاها الثانية عشرة من عمرهما. وقد وافق زوجها على أن تؤول إليها الوصاية على الطفلين حالما يتم زواجها من إيستوود.

وهكذا عاش ذلك الثنائي الغريب، تلك اليهودية الصغيرة الضئيلة ذات التكوين الدقيق بعينيها النجلاوين المتعضتين المعاتبتين وشعرها الأسود الكث المموج الذي عنيت بتهذيبه وتصفيفه، وكانت كائنًا صغيرًا رشيقًا على طريقتها. وذلك الشاب القوي الضخم البارد الشاحب العينين الذي كان بلا ريب ينحدر من أصل دانيماركي

غامض عريق. كانا يعيشان معًا في منـزل عـصري صـغير بـالقرب مـن الـبراري والتلال حيث يقومان على شؤونهما المنزلية.

كانا ساكنين غريبين، فقـد اسـتأجرا الكـوخ بأثاثـه ولكـن اليهوديـة الـصغيرة نقلت معها أعز ما تملك من قطع الأثاث. فلشد مـا أغرمـت بـالنقوش الزاهيـة فيما تقتني من أشياء كالخزائن الغريبة المقوسة والمطعمـة بالـصدف والقواقـع والأبنـوس، ومـا إلى ذلـك، والمقاعـد الإيطاليـة الغريبـة الطويلـة الزاهيـة ذات النسيج الحريري الأخضر، وتماثيل القديـسين المدهـشة ذات الوجـوه القرمزيـة والمسوح التي نحتت وهي تتطاير في مهب الريح بألوان زاهية جميلة، ورفـوف من خزف سـاكس القـديم الغريـب وتماثيـل كـابودي مـونتي الـصغيرة. وأخـيرًا مجموعة غريبة من الصور المدهشة المرسومة بالزيت على الزجاج، والتـي ربمـا رجع تاريخها إلى أوائل القرن التاسع عشر أو أواخر القرن الثامن عشر.

في ذلك المنزل المـزدحم الخـارج عـن المـألوف اسـتقبلت اليهوديـة الصغيرة إيفيت عندما قامـت الأخـيرة بزيارتهـا خلـسة. وقـد رُكِّـب في الكوخ جهاز كامل للتدفئة فشاع الدفء في كل ركن مـن أركانـه حتـى أوشك أن يكون ساخنًا، كما كانت المرأة اليهودية نفسها بقدها الدقيق الزاهــي المتــشح بثـوب صـغير جميـل تعلـوه وزرة تـضع في إحـدى الصحاف شرائح من لحم الخنزيـر في حـين كـان المـاجور ذلـك الطـائر

الثلجي الضخم بصديره الأبيض وسراويله الرمادية يقطع الخبز ويعد الخـردل ويصنع القهوة ويقوم على ما بقي من شؤون المنزل. بل إنه قام بإعـداد أحـد ألوان الطعام وهو الأرنب المـسلوق في القِـدر الـذي قُـدم بعـد تنـاول اللحـم البارد والكافيار.

وكانت الأدوات الفضية والخزفية ثمينة حقًّا وهي جزء من جهـاز العـرس. وكان الماجور يجرع البيرة في كوب كبير من الفضة على حـين كانـت اليهوديـة الصغيرة وإيفيت تحتـسيان الـشمبانيا في أقـداح جميلـة. ثـم أحـضر المـاجور القهوة وأخذوا يتسامرون. ولشدَّ ما كانت اليهودية غاضبة على زوجهـا الأول. فقد كانت على خلق قويم عنيف بل لقد بلغت من ذلك حـدًّا جعلهـا امـرأة مطلَّقة. كما كان الماجور أيضًا ذلك الطائر الشتوي الغريب عظيم القـوة بـالغ الوسامة أيضًا على طريقته الخاصة، غير أن عينيـه قـد أحـاط بهـما الـشحوب حتى بدتا وكأنهما بلا أهداب كعيني الطائر. كان هو أيضًا ساخطًا على الحياة على صورة غريبة لما فيها من أخلاقيات زائفـة، وقـد انطـوى صـدره الريـاضي القوي على نوع غريب بارد من الغضب. وكانت رقته نحو اليهوديـة الـصغيرة مبعثهـا إحـساسه بانتهـاك العدالـة، في حـين كانـت أخلاقياتـه المثاليـة التـي انحدرت إليه من الشمال تدفعه كالريح الغريبة إلى العزلة.

وعندما دنت ساعة الأصيل ذهبوا جميعًـا إلى المطـبخ حيـث شـمر الماجور عن ساعديه الأبيضين القويين الرياضيين وأخذ يغسل الـصحاف

بعناية وخفة في حين تقوم المرأتان بتجفيفها. فلا عجب أن يكـون ذا عـضلات قوية. ثم تفقَّد مواقد المنزل الصغير التي كانت لا تحتاج من العناية إلى أكـثر من لحظة أو اثنتين يوميًّا. وبعد ذلـك أخـرج الـسيارة الـصغيرة المقفلـة التـي صحب فيها إيفيت إلى منزلها تحت وابل مـن المطـر المنهمـر. وهنـاك أنزلهـا عند البوابة الخلفية وكانت أشبه بكُوَّة صغيرة بين أشجار الشربين تنحدر مـن خلالها درجات من الطين مؤدية إلى المنزل.

لشدَّ ما أذهلها ذلك الثنائي.

قالت: "حقًّا يا لوسيل! فلا شك أني ألتقي بأغرب أنماط من البشر".

ثم سردت وصفًا تفصيليًّا دقيقًا لذلك الثنائي.

فقالت لوسيل: "يبدو أنهما ظريفان إلى حد ما! فإنه لمما يروقني أن يقوم الماجور بأعمال المنزل وهو مع ذلك مفرط في الأناقة. أعتقد أنه يطيـب لي أن أعرفهما عندما يتم زواجهما".

فقالت إيفيت في غموض: "نعم! نعم! نعم أعتقد ذلك"!

لقد أعادت إلى ذاكرتها تلـك العلاقـة الغريبـة التـي تـربط بـين اليهوديـة الصغيرة وبين الضابط الرياضي الـشاب ذي العينـين الـشاحبتين صـورة رجلهـا الغجري، وكانت قد اختفت من وعيهـا تمامًـا، ولكنهـا عاودتهـا عندئـذ بقـوة فجائية مؤلمة.

سألتها قائلة: "ما الذي يجمع بين الناس يا لوسيل كثنائي إيستوود مثلًا؟ كأبي وأمي رغم ما بينهما من تنافر شديد؟ ما الذي جمع بين تلك المرأة الغجرية التي قرأت لي الطالع وهي أشبه ما تكون بالحصان الضخم وبين ذلك الرجل الغجري ذي الجمال الرائع والتكوين الدقيق؟ ماذا يجمع بين هؤلاء جميعًا"؟

فقالت لوسيل: "أعتقد أنه الجنس أيًّا كان".

ـ نعم. ولكن ما هو؟ لا شك أنه ليس شيئًا مبتذلًا من قبيل الشهوانية المألوفة كما تعلمين يا لوسيل. لا شك أنه ليس كذلك.

فقالت لوسيل: "كلا. لا أحسبه كذلك. وعلى أية حال فإني أعتقد أنه لا ينبغي أن يكون كذلك".

ـ لأن هؤلاء السوقة كما تعلمين الذين يمتهنون الفتيات ليسوا موضع اهتمام كبير ولا يحس أحد بوجود ما يربطه بهم. ومع ذلك فالمفروض أنهم شديدو الإحساس بالجنس.

فقالت لوسيل: "أعتقد أن الجنس نوعان أحدهما مبتذل والآخر لا يشوبه ابتذال. لا شك أنه أمر معقد للغاية! فلشد ما أمقت السوقة من الناس. كما أنني لا أحس بشيء من الجنس". وهنا ضغطت على تلك الكلمة في شيء من الاشمئزاز ثم أردفت قائلة: "نحو غيرهم ممن ليسوا من السوقة. ربما كنت عديمة الجنس".

فقالت إيفيت: "بالضبط! ربما كانت كلتانا عديمة الجنس. ربما كنا نفتقر حقًّا إلى ذلك الجنس الذي يربطنا بالرجال".

فصاحت لوسيل قائلة في نفور: "يربطنا بالرجال! ما أبشع هذه العبارة! ألا تكرهين أن ترتبطي بالرجال على هذه الصورة؟ أعتقد أنه لمما يؤسف له حقًّا أنه لا مفر من وجود الجنس! فلشد ما أوثر لو وجد الرجال والنساء بغير هذا الشيء".

واستغرقت إيفيت في تأملاتها. فقد تمثلت لها عن بعد في إطار عقلها الباطن صورة الغجري وهو يحول بصره نحوها عندما قالت: "إن الطقس غدَّار"! أحست وهي تنكر وجوده أنها تحذو حذو بطرس الرسول إلى حد ما عندما صاح الديك. أو الأحرى أنها لم تنكر وجوده. بل تغاضت عن دوره في العرض على أية حال. وكان ما أنكرته هو جزء خفي من نفسها، ذلك الجزء الذي استجاب له في غموض دون ن يقرَّ بذلك، أما الديك الذي صاح ساخرًا منها فقد كان غريبًا متألقًا أسود اللون.

قالت في غموض: "نعم! نعم! فالجنس شيء ممل للغاية كما تعلمين يا لوسيل. فإنك تفتقدينه على صورة ما عندما تفتقرين إليه، وعندما تحوزينه، أو تملكينه..." وهنا رفعت رأسها وغضَّنت أنفها في احتقار ثم قالت: "...فإنك تكرهينه".

فصاحت لوسيل قائلة: "لست أدري! أعتقد أنني أريد أن أهيم بحب رجل".

فقالت إيفيت وهي تغضن أنفها مرة أخرى: "أتعتقدين ذلك؟! ولكنك لو فعلت لما أردت ذلك".

فسألتها لوسيل قائلة: "وما أدراك"؟

فقالت إيفيت: "لست أدري ذلك حقًّا، ولكن هذا هو اعتقادي! نعم هذا هو اعتقادي"!

فقالت لوسيل في اشمئزاز: "ربما صحَّ ذلك حقًّا! وعلى أية حال فلا بد أن يتوقع المرء زوال الحب عنه، وعندئذ لن يحس نحوه إلا بالنفور".

فقالت إيفيت: "نعم إنها لمشكلة".

ثم راحت تترنم بلحن صغير...

ـ لا تكترثي لذلك فإننا لم نتعرض بعد لهذه المشكلة. فكلتانا لم تعرف الهوى حقًّا. وربما لن تعرفه. وهكذا فإن المشكلة على هذه الصورة مفروغ منها.

فقالت إيفيت في حكمة: "لست على يقين من ذلك. لست على يقين من ذلك. فإني أعتقد أنني سأقع يومًا ما في حب عنيف".

فقالت لوسيل في قسوة: "وربما لم تقعي فيه قط. فإن معظم العوانس لا يفتأن يتخيلن ذلك".

ونظرت إيفيت إلى شقيقتها نظرة تأمل ولكن في غير اكتراث.

قالت: "حقًّا؟ أتعتقدين ذلك حقًّا يا لوسيل؟ ما أقسى هـذا علـيهن هـؤلاء المسكينات؟ ولماذا يعبأن به على الإطلاق"؟

فقالت: "لماذا؟ ربما لم يعبأن به حقًّا، وربما لا يدفعهن إلى ذلك سوى قـول الناس: "يا للمسكينة! إنها لا تستطيع أن توقع رجلًا في حبائلها".

فقالت إيفيت: "أعتقد ذلك! فهن يعانين من ألـسنة النـاس التـي لا تفتـأ تنال منهن في قسوة ووحشية. يا للعار"!

فقالت لوسيل: "ولكننا على أية حال نستمتع بحياتنا. ولا شك أننا نحظـى باهتمام الكثيرين من الشبان".

فقالت إيفيت: "نعم! نعم! ولكنني لا أستطيع مطلقًا أن أقترن بأحدهم".

فقالت لوسيل: "ولا أنا كذلك. ولكـن مـاذا يـضطرنا إلى هـذا؟ لمـاذا نهـتم بالزواج ما دمنا نستمتع بوقتنا للغاية مع شبان لا تشوبهم شائبة. فيجـب أن تعترفي يا إيفيت بأنهم في سلوكهم نحونا يكشفون عن روح رياضية عالية كما أنهم مهذبون تمامًا".

فقالت إيفيت في شرود: "نعم"!

فقالت لوسيل: "أعتقد أنه يحين الوقت للتفكير في الزواج عنـدما تحـسين أنك لم تعودي تستمتعين بوقتك. عندئذ تزوجي واستقري".

فقالت إيفيت: "تمامًا"!

ولكنها كانت عندئذ تخفي ضجرها من لوسيل تحت ستار ذلك الود الرقيق المؤنس. وأرادت فجأة أن تهرب منها.

فلتنظر إلى تلك الظلال المحيطة بعيني لوسيل المسكينة والرغبة المرتسمة في عينيها الجميلتين. آه! ليتها تتزوج رجلًا رقيقًا طيب القلب يحميها بقوته! وليت لوسيل المنصفة ترضى به زوجًا لها!

لم تروِ إيفيت للقس أو لجدتها شيئًا عن أسرة إيستوود. إذ أن ذلك لن يؤدي إلا إلى إثارة كثير من القيل والقال الذي لشدَّ ما كانت تمقته. أما القس فإنه ما كان ليعبأ بذلك بينه وبين نفسه. ولكنه كان يدرك أيضًا ضرورة الابتعاد ما أمكن عن لسان الناس تلك الأفعى السامة المتعددة الرؤوس.

صاحت اليهودية الصغيرة قائلة: "ولكنني لا أريدك أن تأتي لزيارتي إن كان والدك لا يعلم بذلك".

فقالت إيفيت: "أعتقد أنني يجب أن أخبره وإني لعلى ثقة من أنه لا يبالي بذلك حقًّا. ولكنه لو علم به لاضطر إلى المبالاة على ما أعتقد".

فنظر إليها الضابط الشاب في سرور غريب بعينيه الحادتين الشبيهتين بعيني الطائر دون أن تبدو فيها عاطفة ما. كان يبدو هو أيضًا وكأنه مغرم بإيفيت. فقد كانت تجذبه إليها برقتها العذرية الغريبة وانعزالها الهائم الشارد.

لقد فطنت إلى ما كـان يـدور بخلـد إيـستوود فعُنيـت بمظهرهـا إلى حـد مـا وزادت من أناقتها. إذ أنه كان يثير خيالها. فقد كـان ضـابطًا شـابًّا أنيـق الملـبس ينتمي إلى طبقة ممتازة هادئًا كـل الهـدوء ومثـيرًا للدهـشة في قيادتـه للـسيارة وبطلًا عظيمًا في السباحة. وكان مما يحير الألبـاب أن تـراه سـاكنًا هادئًـا يغـسل الصحاف وهو يدخن غليونه مؤديًا عمله في يقظة تامة ومهارة فائقة. كان يطهو الأرنب المسلوق في القِدر في مطبخ الكوخ بنفس الاهتمام الذي يفحص بـه آلات السيارة الداخلية الغامضة. ثم تراه بعد ذلـك وهـو يخـرج في الزمهريـر لينظـف سيارته حتى تبدو وكأنها كائن حي كالقط عنـدما يلعـق نفـسه. ثـم يعـود مـرة أخرى ليتحـدث إلى اليهوديـة الـصغيرة في غـير مـا تكلـف عـلى الإطـلاق بـل في استجابة لحديثها ولو في إيجـاز. ومـن الواضـح أنـه كـان لا يعـرف الملـل. فكـان يجلس صامتًا إلى النافذة في الطقس الرديء وهو يدخن غليونه سـاعات بطولهـا شارد الذهن غارقًا في تأملاته ولكن جسمه الرياضي يظل يقظًا في سكونه.

لم تكن إيفيت تغازله. ولكنها كانت تميل إليه حقًّا.

سألته قائلة: "ولكن ماذا عن مستقبلك"؟

فقال وهو يخرج غليونه من فمه وقد أطل من عينيـه الـشبيهتين بعينـي الطائر طرف ابتسامة لا أثر فيها للعاطفة: "ماذا عنه"؟

فحملقت في عينيه في سذاجة غريبة قائلـة: "مـستقبلك! ألـيس عـلى كـل رجل أن يشق لنفسه طريقًا في الحياة؟ كما تفرز الإوزة الضخمة عصارتها".

فقال وفي عينيه نظرة باردة ثابتة: "أنـا اليـوم عـلى خـير مـا يـرام وهكـذا سأكون غدًا. فلم لا يكون مستقبلي سلسلة متصلة من اليوم والغد".

ثم نظر إليها نظرة فاحصة وهو رابط الجأش.

فقالت: "تمامًا! فأنا أكره الأعمال وكل ما يضمه ذلك الجانب من الحياة".

ولكنها كانت تفكر في ثروة اليهودية.

ولم يُحِر جوابًا. كان غضبه من ذلـك النـوع الثلجـي الهـادئ الـذي يخنـق الـروح في غـير عنـاء. وتطـور الحـديث بيـنهما إلى مناقـشة فلـسفية. فبـدت اليهودية الصغيرة شاحبة متعبة إلى حد ما. كانت ساذجة عـلى صـورة غريبـة وكانت لا تعرف الأنانية في موقفها من الرجل، كما لم تكن قط حقـودًا مـاكرة مع إيفيت. بل تبدو صامتة متعبة إلى حد ما.

وفجأة خطر لإيفيت أنه يحسن بها أن تفصح عن سريرتها.

فقالت: "ما أشق الحياة"!

فصاحت اليهودية قائلة: "حقًّا"!

ثم قالت إيفيت وهي تغضن أنفها: "وليس أشق على المرء من أن يُفـرض عليه الحب والزواج"!

فصاحت اليهودية وقد اتسعت عيناها وحملقت في عتاب مشدوه قائلـة: "ألا تنشدين الحب والزواج"؟

فقالت إيفيت: "كلا. لا أنشدهما بالذات! وبخاصة عندما يحس المرء أنه لا عمل له سواهما. فهما أشبه بحظيرة كريهة للدجاج يتعين علينا أن ندخلها".

فصاحت اليهودية قائلة: "ولكن ألا تعرفين ما هو الحب"؟

فقالت إيفيت: "كلا! أتعرفينه أنت"؟

فصرخت اليهودية الصغيرة قائلة: "أنا! أنا! يا إلهي! ألا أعرفه"!

ونظرت ساهمة في كآبة إلى إيستوود الذي راح يدخن غليونه وقد ظهرت غمازات السرور المنعزل على وجهه الناعم النظيف. لشدَّ ما كانت بشرته رقيقة ناعمة لم تتأثر بعد بالجو حتى بدا وجهه عاريًا كوجوه الأطفال. ولكنه لم يكن وجهًا مستديرًا بل كان ذا طابع خاص مميز تعلوه غمازات غريبة متهكمة كالقناع الضاحك الذي تجمدت عليه أساريره.

وألحت اليهودية قائلة: "أتعنين أنك لا تعرفين ما هو الحب"؟

فقالت إيفيت في صراحة غير عابئة: "كلا! لا أظنني أعرفه! أليس هذا معيبًا في مثل سني"؟

فقالت اليهودية وقد اتسعت عيناها بنظرة أخرى إلى إيستوود: "أليس هناك ألبتة رجل يبعث في نفسك شعورًا مختلفًا تمامًا... تمامًا"؟

كان إيستوود يدخن وهو في عزلة تامة.

فقالـت إيفيـت: "لا أظـن ذلـك. إلا إذا كـان... نعـم! إلا إذا كـان ذلـك الغجري".

ونحَّت يدها جانبًا في تأمل وتفكير.

فصرخت اليهودية الصغيرة قائلة: "أي غجري"؟

فقالت إيفيت في برود: "ذلك الذي كان جنديًّا في الجـيش يـسوس الخيـل في فرقة الماجور إيستوود أثناء الحرب".

فحملقت اليهودية الـصغيرة في إيفيـت وقـد اتـسعت عيناهـا مـن شـدة الذهول. ثم قالت: "أتحبين ذلك الغجري"!

فقالت إيفيت: "حسنًا! لـست أدري. ولكنـه هـو وحـده الـذي يبعـث في نفسي شعورًا مختلفًا! هو وحده حقًّا"!

ـ ولكن كيف؟ كيف؟ هل قال لك شيئًا قط؟

ـ لا! لا!

ـ إذن فكيف؟ وماذا فعل؟

ـ لم يزد على أن نظر إليَّ...!

ـ كيف؟

ـ لست أدري. ولكنها نظـرة مختلفـة! نعـم مختلفـة! مختلفـة! مختلفـة تمامًا عن نظرة أي رجل آخر إليَّ.

فألحت اليهودية قائلة: "ولكن كيف نظر إليك"؟

فقالـت إيفيـت وقـد بـدا وجهها المتأمـل كـبرعم الزهـرة: "وكأنـه حقًّـا يشتهيني، ولكن حقًّا"!

فصاحت اليهودية الغاضبة قائلة: "ما أسفله! فبأي حـق نظـر إليـك عـلى هذه الصورة"؟ فتدخل الماجور في هـدوء وقـد علـت وجهـه عندئـذ بـسمات وجه القط قائلًا: "قد ينظر القط إلى الملك"!

فسألته إيفيت قائلة وهي تتحول نحـوه: "أتظـن أنـه مـا كـان ينبغـي أن يفعل ذلك"؟

فصاحت اليهودية الصغيرة قائلة: "طبعًا لا! رجل غجري يجر خلفه نصف دستة من النساء القذرات! طبعًا لا"!

فقالت إيفيت: "لقد تعجبت! فقد كان ذلك عجيبًا حقًّا إلى حـد مـا، كـما كان شيئًا مختلفًا تمامًا في حياتي".

فقال الماجور وهو يخرج غليونه من فمه: "أعتقد أن هذه الرغبة أعجـب شيء في الحياة. فمن يمكنه أن يحس بها حقًّا كان ملكًا. وإني لا أحسد سواه"!

ثم أعاد غليونه إلى فمه.

فنظرت إليه اليهودية في ذهول.

ثم صاحت قائلة: "ولكن يـا شـارل! كـل سـوقي مـنحط في هاليفـاكس لا يحس إلا بهذه الرغبة"!

فأخرج غليونه من فمه مرة أخرى. ثم قال: "تلك شهوة فحسب".

ثم أعاد غليونه إلى فمه.

فسألته إيفيت قائلة: "أتعتقد أن الغجري يحس بها حقًّا"؟

فرفع كتفيه، وأجاب قـائلًا: "لـيس لي أن أقـرر. ولكننـي لـو كنـت مكانـك لعرفت ذلك. وما سألت أحدًا".

فتلعثمت إيفيت قائلة: "نعم... ولكن...".

ـ شارل! إنك مخطئ! فكيـف يمكـن أن يكـون إحـساسه حقيقيًّـا! وكأنهـا يمكنها أن تتزوجه وتنتقل معه في قافلة"!

فقال شارل: "لم أقل تتزوجه".

ـ أو تتعلق به! ما أشنع ذلك! فـماذا يكـون رأيهـا في نفـسها. لـيس هـذا حبًّا! بل... بل دعارة!

ظل شارل يدخن لحظات قليلة.

ثم قال: "كان ذلك الغجري خير سُوَّاسنا. وقد أوشـك أن يمـوت بالالتهـاب الرئوي. وكنت أظنه في عداد الأموات. فهو في نظري قد بعث إلى الحيـاة مـن جديد. كما أنني أنا نفسي قد بُعثت إلى الحياة من جديد على هذا القياس".

ثم نظر إلى إيفيت قائلًا: "فقد دُفنت تحت الثلوج عشرين ساعة ولكننـي عندما أُخرِجت لم أُصب بسوء".

ومرت فترة صمت باردة خلال الحديث.

ثم قالت إيفيت: "ما أشق الحياة"!

فقال: "لقد أخرجوني بمحض الصدفة".

فقالت إيفيت في بطء: "قد يكون ذلك هو القدر".

ولم يُحِر جوابًا.

(8)

وبلغت مسامع القس علاقة إيفيت الوثيقة بـأسرة إيـستوود وقـد جفلـت قليلًا لما ترتب على ذلك. كان يخيل لها أنه لن يكترث لتلك العلاقة. فلـشدَّ مـا تنكَّر للتقاليد وتمسك بالروح الرياضية العالية على طريقته التي أُريـد بهـا أن تكون فكاهية. وكما قال هو نفسه فإنه كان فوضويًّا محافظًا ومعنى ذلك أنه كافر بـالقيم شـأنه في ذلـك شـأن كثـيرين آخـرين. وقـد امتـدت الفـوضى إلى حديثه الفكاهي وتفكيره الخفي. ولكن روح المحافظة التي تنبـع مـن خوفـه الدنيء من الفوضى كانت تتحكم في كل عمل من أعماله. كما كانـت خـواطره الخفية تبعث الرعب في القلوب. لذلك فإنه لشدَّ ما كان يخشى الخـروج عـلى التقاليد في حياته.

وعندما كانت تتغلب عليه روح المحافظة ويستبد به خوفـه الـذليل كـان لا يفتأ يرفع شفته العليا كاشفًا بعـض الـشيء عـن ثنايـاه في ابتـسامة صـفراء ساخرة كما تفعل الكلاب.

قال لإيفيت: "لقد بلغني أنك صادقت أخيرًا مسز فوسيت التي توشك أن تُطلَّق من زوجها وإيستوود القوَّاد[2] Maquereau .

[2] كلمة فرنسية معناها قوَّاد.

ولم تدرِ ماذا تعني كلمة "Maquereau" ولكنها أحسَّت بالـسُّم في أنيـاب القس. فقالـت: "إني أعـرفهما فحـسب. وهـما غايـة في الرقـة حقًّـا. وسـيعقد قرانهما في خلال شهر".

فنظر القس في كراهيـة إلى وجهها غـير العـابئ. كـان يحـس بـالخوف في إحدى زوايا نفسه. فهو جبان بالفطرة. وأولئك الذين جبلوا على الخـوف هـم عبيـد بالطبيعـة، تـدفعهم غريـزتهم العميقـة إلى الخـوف المـسموم ممـن يتوقعون أن يضعوا حول أعناقهم فجأة طوق العبودية.

لهذا السبب انهار القس في ذلة وضِـعَة. نعـم انهـار في ذلـة وضـعة أمـام "المرأة التي تُدعى سنثيا"، لخوفـه العبـودي مـن احتقارهـا، احتقـار الطبيعـة التي ولدت حرة لتلك التي جُبلت على الخسة والضعة.

كانت إيفيت أيضًا تتميز بفطرتها الحرة. ولن تلبث هي كـذلك أن تعرفـه يومًا من الأيام ويضع احتقارها طوق العبودية حول عنقه.

هل تفعل ذلك؟ ولكنه عندئذ سيقاتل حتى الموت قبل أن يستسلم. كـان العبد المنزوي في نفسه لا يستطيع فكاكًا في هذه المرة كالفأر المحاصر وكان لا يفوقه شجاعة.

قال ساخرًا: "أعتقد أنهما على شاكلتك"!

فقالت في غموضها المرح: "حسنًا. هما كـذلك بالفعـل ولـشدَّ مـا أحـبهما. فهما يبدوان على جانب كبير من القوة والنزاهة".

فقال ساخرًا: "ما أغرب فكرتك عن النزاهة! شاب عالـة يهـرب مـع امـرأة أسنَّ منه ليعيش على نفقتها! وتترك المـرأة بيتهـا وأطفالهـا! لـست أدري مـن أين لك بهذه الفكرة عن النزاهة. أرجو ألا تكوني قد نقلتهـا عنـي. كـما يبـدو أنك على صلة وثيقة بهما رغـم مـا تزعمينـه مـن أنهـا معرفـة فحـسب. أيـن التقيت بهما"؟

ـ أثناء قيامي بنزهة بالدراجة. فقد أقبلا في سيارتهما. وحدث أن تجاذبنـا أطراف الحديث. فأخبرتني المـرأة في الحـال بمـن هـي حتـى لا تـضللني. إنهـا امرأة صادقة.

كانت إيفيت المسكينة تناضل لتتحمل.

ـ وكم مرة التقيت بهما منذ ذلك اللقاء؟

ـ ذهبت إلى هناك مرتين فقط.

ـ هناك أين؟

ـ إلى كوخهما في سكورسبي.

فنظر إليها في بغـض وكأنـه يريـد أن يقتلهـا. ثـم تقهقـر بعيـدًا عنهـا كالفأر المحاصر مستندًا إلى ستائر النوافـذ في حجـرة مكتبـه. فقـد كـان في إحدى زوايا عقله يظن بابنته شرَّ ألوان الفسق، كما سبق أن خامره ذلـك الظن بـالمرأة التـي تـدعى سـنثيا. كـان عـاجزًا أمـام خـواطره التـي لـشدَّ ما كانت وضيعة. وكانـت ألـوان الفـسق التـي راح يـصِم بهـا في خـواطره

الفتاة الماثلة أمامه وهي لا تزال صامدة لـه عـلى الـرغم مـن ذعرهـا تجعلـه ينكمش كاشفًا عن جميع أنيابه في وجهه الوسيم.

قال: "إذن فهي معرفة فحسب. ألـيس كـذلك؟ إني أرى الكـذب يجـري في دمك. ولا أظنك ورثته عني".

فأشاحت إيفيت قليلًا بوجهها الصامت وتذكرت مراوغـة جـدتها الـسافرة الوقحة. ولم تُحِر جوابًا.

ثم قال ساخرًا: "ومـاذا يـدعوك إلى التـسلل لزيـارة أمثـال هـؤلاء النـاس؟ أليس في العالم ما يكفي مـن المهـذبين لتتعـرفي بهـؤلاء؟ سـيعتقد النـاس أنـك كلب ضال عليه أن يحـوم حـول الفجـرة لأن المهـذبين لا يرغبـون في التعـرف إليه. هل يجري في دمك ما هو شرٌّ "من الكذب"؟

فسألته قائلة: "وماذا في دمي شرٌّ من الكذب"؟

وبدت تغشاها موجة من المـوت البـارد. هـل كانـت شـاذة؟ هـل كانـت إحدى الشواذ مـن أنـصاف المجـرمين؟ كـان ذلـك الخـاطر يبعـث في أوصـالها البرودة والموت.

كانت في نظره تكشف بلا حيـاء عـن الفـسق المـستتر خلـف قنـاع وجهها العذري الرقيق الشبيه بوجه الطائر. فهكذا كانـت "المـرأة التـي تدعى سنثيا"، زهرة ثلجية. واعترت بدنه تشنجات من الرعب الـسادي

وهو يفكر فيما يمكن أن يكون عليه فسق "المرأة التي تُدعى سنثيا". في الواقع والحقيقة أن حبه إياها ذلك الحب الشهواني المعروف عن جبناء الفطرة كان في نظره فسقًا في الخفاء. إذن فكيف يمكن أن يكون عليه العشق غير الشرعي؟

فقال ساخرًا: "أنت خير من يعرف ماذا في دمك. ولكنه شيء خليق بك أن تكبحي جماحه وبسرعة إن كنت لا تريدين أن ينتهي بك المطاف إلى مصحة للجنون الإجرامي".

فقالت وقد امتقع لونها وانعقد لسانها وغشيها خدر من الخوف المتجمد: "لماذا؟ وفيم الجنون الإجرامي؟ ما الذي فعلته"؟

فقال متهكمًا: "هذا سر بينك وبين الخالق. لن أسألك عنه مطلقًا ولكن ثمة ميولًا معينة تنتهي بالمرء إلى الجنون الإجرامي ما لم تُكبح في حينها".

فسألته إيفيت بعد فترة صمت من الخوف المخدر قائلة: "أتقصد أن تقول كالتعرف بأسرة إيستوود"؟

ـ كالتحويم حول أناس على شاكلة مسز فوسيت اليهودية والماجور السابق إيستوود ذلك الرجل الذي يهرب مع امرأة أسن منه من أجل نقودها؟ نعم إني أقصد ذلك!

فصاحت إيفيت قائلة: "ولكنك لا تستطيع أن تقول هذا فهو رجل "غاية" في البساطة والصراحة".

ـ من الواضح أنه على شاكلتك.

فقالت ببساطة وهي لا تكاد تعي ما تقول: "حسنًا، أعتقد أنه كذلك على صورة ما. كما خيِّل لي أنك ستعجب به".

فتقهقر القس منزويًا داخل الستائر وكأن الفتاة تهدده بشيء مخيف.

ثم زمجر قائلًا في ذلة: "كُفِّي عن هذا الحديث. كفي عن هذا الحديث. فقد قلتِ أكثر مما ينبغي لإدانتك. لا أريد أن أعرف المزيد من هذه الأهوال".

فألحَّت قائلة: "ولكن أية أهوال"؟

كانت تصده بما في براءتها من بساطة غير عابئة وتُشيع في نفسه المزيد من الذعر.

فقال في صوت خفيض كفحيح الأفعى: "كفي! ولكنني سأقتلك قبل أن تحذي حذو أمك".

فنظرت إليه وهو واقف أمامها مستند إلى الستائر المخملية في غرفة مكتبته وقد اصفرَّ لونه واضطربت عيناه بالخوف والغضب والكراهية كعيني الفأر واعتراها إحساس مخدَّر بارد بالوحدة. فإن كل شيء في نظرها أيضًا قد فقد معناه.

وتعذر تبديد ذلك السكون المتجمد المجدب الذي أعقب هذا الحديث. ومع ذلك نظرت إليه أخيرًا. فإذا بالاحتقار له يرتسم في

عينيها الغضتين الصافيتين المغلوبتين على أمرهما على الرغم منها دون أن تعي ذلك. وإذا به يسقط في النهاية حول عنقه كطوق العبد.

قالت: "أتعني أنه يجب ألا أعرف أسرة إيستوود"؟

فسخر منها قائلًا: "يمكنك إن شئتِ أن تعرفيها ولكنك إن فعلت فلا بد أن تتوقعي قطيعة بينك وبين الجدة والعمة سيسي ولوسيل. فلا يمكنني أن أسمح بتدنيسهن. كانت جدتك زوجًا وفية وأمًّا مخلصة، هذا إذا جاد الزمن بواحدة. وسبق أن تعرضت لصدمة عار ودنس ولن تصدم مرة أخرى".

سمعت إيفيت ذلك كله في غموض دون أن تعيه إلا قليلًا.

ثم قالت في غموض: "يمكنني إبلاغهما أنك لا تقر علاقتي بهما".

ـ "اتخذي ما شئت من سبل. ولكن تذكري أنك يجب أن تختاري بين القوم الشرفاء واحترامك العميق لشيخوخة جدتك البريئة وبين الفجرة عقلًا وجسدًا".

وساد الصمت مرة أخرى. ثم نظرت إليه وكان وجهها ينطق بالحيرة الشديدة. ولكن هذه الحيرة كان يستتر وراءها في مكان ما من نفسها ذلك الاحتقار العذري الهادئ الغريب الذي يكنه من ولدوا أحرارًا لمن ولدوا أخسَّاء فقد ولد هو وجميع أفراد أسرة سايول متَّضعين أخسَّاء.

قالت: "حسنًا. سأكتب إليهما لأبلغهما أنك لا تُقر علاقتنا".

فلم يحر جوابًا. لقد أشبع غروره إلى حد ما، وراوده شعور خفـيٍّ بالنـصر ولكن في خسة وضعة.

قال: "لقد حاولت أن أكتم هذا الموضوع عن جدتك وعمتـك سيـسي، فـلا حاجة لإذاعته على الملأ ما دمت قـد آثـرت أن تجعـلي صـداقتك بهـما خفيـة مستورة".

وساد صمت موحش كئيب.

ثم قالت: "حسنًا. إني ذاهبة لأكتب إليهما".

وزحفت إلى خارج الغرفة.

وقـد وجهـت رسـالتها الـصغيرة إلى مـسز إيـستوود قائلـة: "عزيـزتي مـسز إيـستوود. إن أبي لا يقـر تـرددي علـيكما. ولـذا فإنـك سـتفهمين الـسبب إذا اضطررنا إلى قطع هذه العلاقة. ولشد ما يؤسفني ذلك". ولم تزد على هذا.

ولكنها أحست بفراغ كئيب عندما أرسـلت الخطـاب. فقـد صـارت عندئـذ تخشى خواطرها الخاصة. وتمنت حينئذ أن يضمها الغجري إلى صـدره النحيـل الجميل. أرادت أن يضمها بين ذراعيه ولو مرة واحدة، مـرة واحـدة، ليخفـف عنها ويعضدها. أرادت أن يؤيدها ضد أبيهـا الـذي كـان لا يحـس نحوهـا إلا بالخوف المنفِّر.

وفي الوقت نفسه كانت تنحني في ذلة ويقشعر بدنها في ألم حتى إنها لم تكد تقوى على السير خوفًا من ذلك الخاطر القذر البغيض، الجنون الإجرامي. فقد خيل لها أنها إذا سارت جرح الخوف عقبيها. إنه الخوف، خوف أذلاء الفطرة الهائل البارد، خوف أبيها وكل ما هو بشري مائج. لقد غمرتها البشرية وكأنها مستنقع ضخم غاصت فيه وهي تحس بالوهن في ركبتيها وقد امتلأت نفسها بالخوف والنفور ممن يصادفها من البشر جميعًا.

ومع ذلك فسرعان ما واءمت بين نفسها وبين رأيها الجديد في الناس. كان عليها أن تعيش، ومن العبث أن يُخاصم المرُ مورد حياته كما أنه من السخف أن يسرف في حسن ظنه بالحياة. ولذلك فقد واءمت بين نفسها وبين الحقائق الجديدة بكل ما أوتيت من قدرة على التكيف السريع امتاز بها جيل ما بعد الحرب. فلم يكن من سبيل إلى تغيير أبيها فهو لن يفتأ يمالئ المظاهر وستحذو هي حذو أبيها. فهي أيضًا سوف تمالئ المظاهر.

وهكذا تكونت طبقة صُلبة كالصخر المتبلور في قلبها خلف قناع قوامه نسيج هائم من عدم الاكتراث المرح الرقيق. لقد تبددت أوهامها وأحلامها بانهيار ما في نفسها من إحساسات التعاطف. كانت في ظاهرها تبدو كما هي. أما في باطنها فقد تجمدت وانعزلت وتحفزت للانتقام دون أن تدري ذلك.

ظلت محتفظة بمظهرها. وكان ذلك جزءًا من خطتها، فما دامت الظروف لم تتغير فعليها أن تكون من الناحية المظهرية على الأقل وفية لالتزاماتها.

ولكن روح الانتقام كانت تتجلى في نظرتها الجديدة إلى الناس. فكانت ترى تفاهة القس الضيعفة المتخاذلة تحت ستار من شهامته الظاهرية. وكانت تشعر نحوه بالاحتقار. ولكنها مع ذلك كانت تحبه أيضًا على صورة ما. فلشد ما تتعقد المشاعر.

وصارت تمقت جدتها بكل جوانحها. تلك العجوز المنبعجة القابعة في ظلمة عينيها كأكمة ضخمة من اللحم النافر ملطخة بالحُمرة وقد غاص عنقها بين كتفيها المرتفعتين وبين طيات اللحم المتهدلة من ذقنها الهَرِم. وهكذا كانت بلا عنق كإحدى ثمار البطاطس المزدوجة. كانت إيفيت تمقتها بحق مقتًا خالصًا مجردًا يكاد يكون متعة للنفس ولشدَّ ما خلص بغضها إياها حتى إنها كانت تستمد منه المتعة ما دامت تحس بالقوة.

كانت العجوز تجلس وقد ارتد إلى الخلف قليلًا وجهها الكبير المحمر واستقرت فوق شعرها النحيل الأبيض قبعتها المصنوعة من الدانتلا على حين لا يزال أنفها المدبب يؤكد وجودها وقد أطبق فمها الهرم كالفخ. تلك الروح العجوز الحنون كان فمها يشي بها. فقد كان دائمًا من ذلك النوع المطبق ولكنه صار في شيخوختها بلا شفاه كفم الضفدع يرتفع فكه الأسفل

ضاغطًا إلى أعلى كباب الفخ. وكان أشد ما تبغضه إيفيت منظر فكها السفلي وهو لا يفتأ يضغط إلى أعلى بحركة ممتدة إلى الخارج مما يجعل أنفها المدبب يضغط بدوره إلى أعلى. وكان وجهها بأجمعه مضغوطًا إلى الداخل قليلًا تحت جدار جبهتها العريضة. أما إرادة هذه المرأة العجوز تلك الإرادة الضفدعية الهرمة البغيضة فكنت مخيفة إذا ما رأيتها. كانت إرادة ضفدعية ملحدة دون الإرادة البشرية! كانت تنتمي إلى ذلك الجنس القديم المعمر من الضفادع أو السلاحف. وكان ذلك يوحي بأن الجدة لن تموت. بل ستواصل الحياة إلى الأبد في غيبوبة نصفية كتلك الزواحف الراقية.

ولم تجرؤ إيفيت حتى على الإيعاز لأبيها بأن الجدة كانت دون الكمال خشية أن يهددها بالمصحة العقلية، ذلك التهديد الذي كان لا يفتأ يردده وكأنه على طرف لسانه تمامًا كما لو كانت كراهيتها لتلك الجدة ولتلك الدار الرهيبة بمن فيها من أقارب هي في حد ذاتها دليل الجنون الخطر.

ولكنها انفجرت ذات مرة في إحدى حالات انقباضها الضجر قائلة:

ــ "ما أبشع هذه الدار! ففيها تجتمع العمة لوسي والعمة نل والعمة آليس وتنضم إليهن الجدة والعمة سيسي في حلقة كحلقات الغربان حيث يرفعن جميعًا أزُرَهن ويدفئن سيقانهن على نار المدفأة بينما نُستبعد أنا وأختي لوسيل. فما نحن إلا غريبتان في هذه الدار اللعينة"!

فرمقها أبوها في فضول. ولكنها نجحت في أن تضفي على حديثها شيئًا من الضيق والضجر وأن ترسم على وجهها تعبيرًا ينبئ بالوقاحة الغاضبة فحسب، حتى تجعله يضحك كما لو كان انفجارها سورة غضب صبيانية. ومع ذلك فقد كان يدرك في مكان ما من نفسه أنها تعني ما تقول في عمد وحقد مسموم. وكان منها على حذر.

وبدا لها عندئذ أن حياتها لم تعد أن تكون احتكاكًا مثيرًا بأسرة سايول المنفِّرة التي انغمست فيها. فلشد ما مقتت الأبرشية مقتًا استنفد حياتها بل مقتًا قويًّا لم تستطع معه حقًّا أن تغادر المكان، فقد أحست أنها مرتبطة بالأبرشية في نفور ما بقيت قائمة وكأنها رهينة سحرها.

ونسيت أسرة إيستوود. فماذا كانت ثورة اليهودية الصغيرة قبل كل شيء بالقياس إلى الجدة وعصبة سايول! فالزوج لا يتجاوز مطلقًا أن يكون شيئًا من قبيل العوارض. أما العائلة! العائلة البشعة العفنة التي تأبى أن تتفرق، فقد اجتمع أفرادها من أنصاف الموتى حول قاعدة تقف عليها عجوز كالكَمْءِ الهرم! كيف السبيل إلى الاشتباك بهؤلاء والانتصار عليهم؟!

أما صورة الغجري فإنها لم تفارق ذاكرتها كلية. ولكنها كانت لا تجد متسعًا من الوقت للتفكير فيه. بل كانت لا تجد متسعًا من الوقت للتفكير جديًّا في شيء على الإطلاق برغم ما كانت تعانيه في مللها من ألم ممضٍّ يكاد يقتلها، وبرغم فراغها التام فالوقت قبل كل شيء ما هو إلا تيار الروح في تدفقها.

ورأت الغجـري مـرتين. فقـد جـاءهم ذات مـرة في الـدار ليبـيعهم بعـض السلع. وكانت إيفيت تراقبه من نافذة الدرج ولكنها أبت أن تهبط إليه.

كما رآها هو أيضًا وهو يعيد الأشـياء إلى عربتـه. ولكنـه تجاهلهـا بـدوره. ولما كان ينتمي إلى جنس لا همَّ له في الحياة إلا السَّطو على الأطـراف النائيـة من مجتمعنا وهو لا يفتأ يُضمر العداء دون أن تكون له وسيلة للعيش سوى الغنائم والأسلاب. فلشد ما كان الغجري متحكمًا في نفسه محـاذرًا أن يعـرِّض نفسه جهـارًا لقبـضة القـانون العريـضة المخيفـة. فقـد خـاض الحـرب وكـان وقتذاك مسخَّرًا مستعبدًا على الرغم منه.

لهذا فإنه قد ظهر عند الأبرشـية وهـو يتـشاغل بعربتـه في بـطء وهـدوء خارج البوابة البيضاء يرين على مظهره التمرد الصامت الـذي لا يعـرف اللـين أو الخضوع، وكان ذلك لا يفتأ يـضفي عليـه رشـاقته الـضارية المنفـردة. كـان يدرك أنهـا تـراه. وينبغـي أن تـراه قويًـا صـامدًا وهـو يبيـع في هـدوء أوانيـه النحاسية أثناء صراعه القديم مع أمثالها.

مع أمثالهـا؟ ربمـا كـان مخطئًـا. عندئـذ دوَّى وجيـب قلبهـا كـدقات مطرقته على الأواني النحاسية طارقًا في خفقانـه الظـروف المحيطـة. كـان الغجري يطرق خلسة من الخارج بينما تطرق هي أكثر خلسة من داخل المبنى. كانت تهـواه، تهـوى وجـوده الهـادئ الـصامت الواضـح المحـدد،

تهوى صموده الغامض، صموده في المقاومة دون تفكير في النصر. كما أحبت فيه صلابته الغريبة المتزايدة، ومجافاته للوهم في عدائه وهي روح ما بعد الحرب. حقًّا فإنها إن كانت تنتمي إلى جانب من الجوانب أو عشيرة من العشائر فإلى جانبه وإلى عشيرته. بل كادت تحس في قلبها بالحنين إلى الذهاب معه حيث تصبح امرأة غجرية طريدة.

ولكنها ولدت داخل الأسوار حيث ركنت إلى الراحة وتمتعت ببعض المكانة. فمع أنها كانت لا تعدو أن تكون ابنة لراعي الكنيسة فلا شك أنها كانت تتمتع ببعض المكانة. وكان ذلك يروقها. كما كان يروقها أن تفري أعمدة المعبد من الداخل. فقد أرادت أن تكون آمنة مطمئنة تحت سقف المعبد. ومع ذلك كان يطيب لها أن تفري شظايا صغيرة من الأعمدة التي يقوم عليها المعبد. فلا شك أن أعمدة معبد فلسطين كانت قد تفرَّت في كثير من الشظايا قبل أن يقوضه شمشون.

ـ "لست أدري لماذا لا تأخذ الفتاة نصيبها من المتعة حتى تبلغ السادسة والعشرين من عمرها ثم تستسلم بعد ذلك وتتزوج"!

كانت هذه هي فلسفة لوسيل التي تعلمتها ممن يكبرنها سنًّا وكنت إيفيت في الحادية والعشرين من عمرها. ومعنى ذلك أن أمامها خمس سنين أخرى يمكنها فيها أن تنال هذه المتعة الثمينة. وكانت تعني عندئذ الغجري. أما الزواج في سن السادسة والعشرين فكان يعني ليو أو جيري.

وهكذا فإن المرأة يمكنها في نفس الوقت أن تنال متعتها وتضمن حياتها.

ولشدَّ ما طعنت إيفيت في السن وتذرعت بمنتهى الحكمة لاستغراقها في عدائها الراكد البشع لأسرة سايول. كانت تتمتع بشيخوخة الشباب وحكمته اللتين تفوقان دائمًا شيخوخة المسنين أو الكهول وحكمتهم.

وفي المرة الثانية التقت إيفيت بالغجري عن طريق الصدفة. وكان ذلك في شهر مارس والطقس مشمس عقب أمطار لم يسمع بها أحد من قبل. وكانت نباتات "السِّلاندداين" تحمل زهورها الصفراء في الأسوار النباتية كما أينعت زهور الربيع بين الصخور، ومع ذلك فإن رائحة الكبريت المنبعثة من مصنع الصلب البعيد كانت لا تزال تهب عليهم من السماء الزرقاء التي تشبه الصلب في لونها.

ولكن الوقت كان ربيعًا!

وكانت إيفيت تقود دراجتها رويدًا في طريق كودنوجيت أمام محاجر الجير عندما رأت الغجري خارجًا من باب كوخ حجري بينما وقفت عربته في الطريق. وكان عائدًا إليها بمكانسه وأوانيه النحاسية.

فترجلت عن دراجتها. وما إن رأته حتى استهوتها في رقة غريبة معالم جسده النحيلة تحت سترته الخضراء اللامعة واستدارة وجهه الصامت. وأحست أنها تعرفه أكثر من أي شخص في الوجود حتى لوسيل. وأنها ملك له إلى الأبد على صورة ما.

سألته في براءة وهي تنظر إلى أوانيه النحاسية قائلة: "هل صنعت شيئًا جديدًا جميلًا"؟

فقال وهو يرد نظرتها بسرعة: "لا أعتقد ذلك".

كانت الرغبة لا تزال في عينيه غريبة سافرة. ولكنها خبت قليلًا وخفَّت جرأتها. بل كان في عينيه بريق واهن وكأنه يمكنه أن يبغضها. ولكن ذلك البريق ما لبث أن اختفى عندما رآها تتأمل قطع النحاس الحمراء والصفراء. أخذت تقلبها في نشاط.

فوجدت صحفة نحاسية بيضاوية صغيرة نقشت عليها صورة غريبة تشبه إحدى أشجار النخيل.

قالت: "تعجبني هذه الصحفة. كم ثمنها"؟

فقال: "كما تشائين".

فأثارها ذلك إذ بدا لها أنه غير عابئ بها، بل يكاد يكون ساخرًا. فتطلعت إليه ببصرها قائلة: "أفضل لو ذكرت لي ثمنها".

فقال: "أعطني ما تشائين".

فقالت فجأة: "كلا! لن آخذها ما لم تخبرني بثمنها".

فقال: "حسنًا. ثمنها درهمان".

ووجدت معها نصف كراون، فأخرج من جيبه حفنة من النقود الفضية وأعطاها منها نصف درهم.

قال وهو ينظر إليها بعينين مستطلعتين فاحصتين: "تراءى للغجرية العجوز في الحلم شيء عنك".

فصاحت إيفيت قائلة وقد أثير اهتمامها في الحال: "حقًّا! وماذا كان ذلك"؟

ـ قالت: "تذرعي بمزيد من الشجاعة في قلبك وإلا خسرت الشوط"... وكان نص عبارتها كالآتي: "تذرعي بمزيد من الشجاعة في جسدك وإلا تخلى عنك الحظ". كما قالت: "وتنبهي لصوت الماء".

وكان لذلك تأثير عميق عليها.

فسألته قائلة: "وما معنى ذلك"؟

قال: "لقد سألتها عنه فقالت إنها لا تدري".

فقالت إيفيت: "أَعِد ما قالته".

ـ "تذرَّعي بمزيد من الشجاعة في جسدك وإلا تخلَّى عنك الحظ"، كما قالت: "وتنبهي لصوت الماء".

نظر في صمت إلى وجهها الساهم الرقيق. وبدا له أن شيئًا ما يكاد يشبه العطر أخذ يتدفق من صدرها الغض نحوه مباشرة في مودة وامتنان.

فقالت: "ينبغي أن أتذرع بمزيد من الشجاعة في جسدي وأتنبه لصوت الماء؟ حسنًا! لست أدري ماذا تقصد ولكنني ربما فهمت ذلك فيما بعد".

نظرت إليـه بعينـين صـافيتين. فالإنـسان، رجـلًا كـان أو امـرأة، ذو أنفـس كثـيرة. وكانـت إيفيـت تحـب ذلـك الرجـل الغجـري بـنفسٍ واحـدة ولكنهـا تتجاهله أو تنفر منه بما لها من أنفسٍ أخرى كثيرة.

سألها قائلًا: "ألست قادمة إلى الهيدّ مرة أخرى"؟

فعادت تنظر إليه في شرود قائلة:

ـ "ربما. يومًا ما".

فقال مديرًا بصره نحو الشمس وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة واهنـة: "إنه الربيع ولن نلبث أن نشد رحالنا".

فقالت: "متى"؟

ـ "ربما في الأسبوع القادم".

ـ "إلى أين"؟

فحرك رأسه مرة أخرى.

ثم قال: "ربما نحو الشمال".

فنظرت إليه ثم قالت: "حسنًا! ربما جئـتكم قبـل رحـيلكم لأودِّع زوجتـك والعجوز التي بعثت إليَّ بهذه الرسالة".

(9)

ولكن إيفيت لم تفِ بوعدها ومضى شهر مارِس بأيامه القليلة الجميلة دون أن تستغلها. فقد كان لا يفتأ يخالجها إحجام غريب عن كل تصرف إيجابي أو حركة حقيقية من جانبها، كانت تريد دائمًا أن يقوم عنها شخص آخر بهذه الحركة وكأنها لا تريد أن تؤدي دورها في الحياة.

وعاشت كما تعودت أن تعيش، فكانت تخرج للقاء أصدقائها ولحضور الحفلات ومراقصة ليو الذي لم يفُتّ في عضده شيء. أرادت أن تذهب لتوديع الغجر. أرادت ذلك ولم يكن هناك ما يمنعها منه.

وفي أصيل يوم الجمعة بالذات رغبت في الذهاب. كان الطقس مشمسًا وكانت آخر أزهار الكركم الصفراء على طول الممر في أبهى ألوانها يانعة متفتحة في حين أنها راحت تتقلب فيها أول أسراب النحل. وكان نهر بابل يندفع تحت الجسر الحجري زاخرًا بالمياه على صورة غريبة مخيفة يكاد يملأ حنايا القناطر. وتضوع أريج شجرة المزيريون.

ولشد ما أحست بالكسل، الكسل الكسل فهامت على وجهها في الحديقة على مقربة من النهر في انتظار شيء ما وهي فيما يشبه الحلم، وقررت ألا تعود إلى الدار ما دامت شمس الربيع تلمع في الأفق. أما في داخل الدار فكانت الجدة تجلس متكئة إلى الخلف كأسقف رهيب مُسنٍّ، وقد تدثرت بثوب عظيم من الحرير الأسود ووضعت فوق رأسها قبعتها البيضاء المصنوعة من الدانتلا. كانت تدفئ قدميها بالقرب من النار وتستمع إلى كل ما تقصه عليها العمة "نل". فقد كان يوم الجمعة هو اليوم المحدد لزيارة العمة "نل" حيث تتناول معهم الغداء عادة ثم تفارقهم بعد تناول الشاي في ساعة مبكرة. وهكذا جلست الأم تثرثر على مقربة من نار المدفأة مع ابنتها الضخمة التي تميل إلى السوقية والتي ترملت في سن الأربعين، في حين أن العمة سيسي لا تفتأ تحوم حولهما. وفي يوم الجمعة كان راعي الكنيسة يذهب إلى المدينة. كما تذهب الخادم أيضًا في إجازة نصف اليوم.

جلست إيفيت على مقعد خشبي في الحديقة، لا يتجاوز ارتفاعه بضع أقدام، فوق ضفة النهر الزاخر الذي كان يموج بخضم غريب رهيب. وكانت نباتات الكركم تمتد إلى أحواض الزهور الملونة وكان العشب داكن الخضرة حيث جث بالمحشة. أما الغار فكان يبدو أكثر تألقًا إلى حد ما. وظهرت العمة سيسي فوق قمة درج المظلة حيث صاحت تسأل إيفيت إن كانت تريد قدحًا من الشاي في تلك الساعة المبكرة. ولكن إيفيت لم تسمع ما قالته العمة سيسي لأن النهر

كان يتدفق تحت قدميها تمامًا ولكنها تكهنت بذلك وهزت رأسها. أتدخل الدار لتأخذ قدحًا من الشاي في هذه الساعة المبكرة والشمس ما زالت مشرقة؟ لا. شكرًا!

كانت تحس برَجُلها الغجري وهي جالسة في ضوء الشمس مستغرقة في تأملاتها. وقد ألفت روحها أن تفارقها في قليل من الألم والراحة لتهيم بعيدًا في مكان ما حيث يوجد من شغل عليها خيالها. ففي بعض الأحيان تكون مع أسرة فريملي مع أنها لم تذهب إليهم. وفي أحيان أخرى تقيم روحها مع أسرة إيستوود ولا تفارقها أبدًا. أما يومذاك فكانت مع الغجر. كانت معهم في مخيمهم عند المحجر حيث تراءى لها الرجل وهو يطرق النحاس رافعًا رأسه لينظر إلى الطريق، في حين أخذ الأطفال يلعبون في حظيرة الخيول. أما المرأتان وهما زوجة الغجري والمرأة النَصَف القوية، فقد كانتا في طريقهما إلى المخيم تحملان الصُّرر في صحبة الرجل الكهل. وانتابها في هذا الأصيل إحساس عنيف بأنها هناك في بيتها حيث مخيم الغجر والنار. والمقعد الخفيض. والرجل ذو المطرقة والمرأة العجوز.

وكانت هذه النوبات من الحنين إلى مكان تعرفه تكوِّن جزءًا من طبيعتها، حنينها لأن تكون في مكان ما مع شخص ما تتمثل فيه بيتها. وكان هذا المكان يومئذ هو مخيم الغجر وقد جعل منه الرجل ذو الصدير الأخضر بيتًا لها. فحيثما توجد معه يوجد بيتها. فكانت

عربات القافلة والأطفال والنساء الأخريات وكل شيء طبيعيًّا في نظرها، فهو بيتها وكأنه مسقط رأسها. وتساءلت عما إذا كان الغجري يحس بها، وعما إذا كان يرفع رأسه ليرنو إليها وهي تنهض ناظرة إليه بطرفها الفاتر نظرة ذات معنى، ثم تتجه بعد ذلك صوب درج عربته. هل كان يعلم؟ هل كان يعلم؟

وتطلعت ببصرها في غموض إلى مرتفع أشجار الشربين القائمة في الجهة الشمالية من الدار حيث يعلو الطريق مختفيًا عن الأنظار متجهًا إلى "الهيد" ولكنها لم ترَ شيئًا هناك فخفضت بصرها مرة أخرى. كان النهر ينحرف أسفل المنحدر مرتطمًا بالصخور الواطئة القائمة عبر النهر فيرتد في عنف منذر بالشؤم ثم يتدفق فيما وراء الحديقة نحو الجسر. كان زاخرًا بالماء على صورة غير طبيعية كثيفًا غليظًا محملًا بالطمي الأبيض. وحدثت نفسها قائلة: "تنبهي لصوت الماء ولكنه لا داعي لذلك إن كان صوته معناه الضوضاء"!

ثم عادت فنظرت إلى النهر الزاخر وهو يتكسر في غضب عند انحرافه حول المنحنى. ومن فوقه تعلقت حديقة المطبخ التي بدت سوداء اللون حيث نمت أشجار الفاكهة بطبيعتها القاسية. كان كل شيء على المنحدر يواجه الجنوب والجنوب الغربي من أجل الشمس. وفيما وراء ذلك تعلقت فوق الدار وفوق حديقة المطبخ غابة صغيرة شديدة الانحدار من أشجار الشربين كان يبدو عليها الذبول.

وهناك في أعلى كـان البـستاني يعمـل في حديقـة المطـبخ بـالقرب مـن حافـة الغابة.

وسمعت نداء. كانت العمـة سيـسي والعمـة نـل تـسيران في الممـر وهـما تلوحان لها مودعتين. فلوحـت لهـما إيفيـت. وهتفـت العمـة سيـسي رافعـة صوتها فوق صوت الماء: "لن يطول غيابي. ولا تنسَ أن الجدة وحدها"!

فصرخت إيفيت قائلة بصوت ضعيف إلى حد ما: "حسنًا"!

وجلـست عـلى مقعـدها تراقـب المـرأتين غـير الوقـورتين بـسترتيهما الطويلتين وهما تسيران في بـطء فـوق الجـسر، ثـم تأخـذان طـريقهما في المنحنى الصاعد إلى أعلى المنحدر المواجه. وكانت العمة نل تحمل حقيبـة أحـضرت فيهـا إلى الجـدة بعـض الـسلع ثـم عـادت تحمـل فيهـا بعـض الخضراوات أو شيئًا من ثمار الحديقة أو مئونة الأبرشـية. وأخـذ الـشبحان يتضاءلان رويدًا في الطريق الأبيض المنحني إلى أعلى وهما تتجهان في بطء ومشقة نحو قرية بابلويك. فقد كانـت العمـة سيـسي ذاهبـة إلى القريـة لقضاء حاجة ما.

وكانت الشمس تميل صفراء نحـو الغـروب. وا أسـفاه! وا أسـفاه! فقد أشرف اليوم المشمس على نهايتـه وكـان عليهـا أن تـدخل الـدار حيث تلك الغرف البغيضة وحيث الجـدة! ولكـن العمـة سيـسي لـن تلبث أن تعود. فقد جاوزت الساعة الخامسة. أما الباقون فلن يلبثـوا

أن يعودوا من المدينة بعد السادسة بقليل وهم يشعرون بـشيء مـن الـضجر والإعياء.

وبينما كانت تنظر حولها في قلق إذ بها تسمع عبر المياه المتدفقة ضوضاء حادة لحصان وعربة يجلجلان في الطريق المختفي بين أشجار الـشربين. وكـان البستاني أيضا يتطلع ببصره إلى مصدر الصوت. وعادت إيفيت فاستدارت ثـم مشت متوانية بضع خطوات في تجوالها بالقرب من النهر الزاخر محجمة عن دخول الدار وهي تتطلع ببصرها إلى الطريق لترى ما إذا كانت العمة سيـسي قادمة حتى إذا ما وقع عليها بصرها دلفت إلى الداخل.

وسمعت شخصًا يصيح فنظرت حولها. فإذا بالغجري يعدو في الممر خـلال أشـجار الـشربين. وإذا بالبـستاني أيـضًا يـركض مـن بعيـد. وفي نفـس اللحظـة أحسَّت بزئير هائل تضاعف دويـه حتـى صـار يـصم الآذان قبـل أن تـستطيع حراكًا. كان الغجري يأتي بحركات بيديه. فنظرت خلفها.

ولشد ما كان رعبها ودهشتها عندما رأت عنـد منحنـى النهـر جبهـة مـن الأمواج الخشنة الغزيرة الـسمراء تتقـدم نحوهـا كحـائط مـن الـسباع. وكـان الصوت الراعد يكتسح كل شيء أمامه. فانهارت قواها لهول ما استحوذ عليهـا من الدهشة والعجب. وأرادت أن تراها.

وقبل أن تتمكن من معاودة التفكير كانـت الموجـة تـدنو منهـا كـصخرة مـن الميـاه الهـادرة. فأوشـكت عـلى الإغـماء مـن الرعـب.

وسمعت صرخة الغجري فرفعت بصرها لتراه وهو يثب نحوها وقد جحظت عيناه السوداوان في رأسه.

صرخ قائلًا وهو يمسك بذراعها: "اركضي"!

وفي نفس اللحظة كانت أولى الموجات تجرف قدميها من تحتها وهي تدور في دوامة وسط هذا الصخب الجنوني الذي بدا فجأة كالسكون لسبب ما، في حين جرف الفيضان حديقة الدار. إنه الماء في حصاده الرهيب.

وأخذ الغجري يجرها في صعوبة وهما يترنحان تارة ويغوصان في الماء تارة أخرى ولكنهما ظلّا يخطوان في ثبات متجهين إلى صوب الدار. كانت لا تكاد تعي شيئًا وكأن الفيضان يغمر روحها.

ولم يكن بالحديقة سوى مرتفع واحد من الأرض تحيط به الحشائش بالقرب من الممر المحيط بالدار. فتسلق الغجري بمخالبه هذا المرتقى ليبلغ أرض الممر الجافة وهو يجرها خلفه ثم قفز بها إلى درج المظلة أمام النوافذ. ولكن ثمة موجة جديدة هائلة كانت تجتث كل شيء في طريقها حتى الأشجار داهمتهما فأطاحت بهما.

وأحست إيفيت بنفسها مدفوعة في هدَّار مؤلم من الماء المتجمد لم تفتأ تدور فيه دون أن تحتمي بشيء سوى قبضة الغجري المخيفة على رسغها. وسقط كلاهما في الماء ثم جرفهما التيار. وأحست بكدمة كليلة في مكان ما من جسدها أصابتها بدوار.

ثم جذبها إلى أعلى. كان واقفًا ينبثـق المـاء مـن فيـه وقـد تـشبث بجـذع شجرة ويستيريا سامقة كانت تنمو بجانب الحائط في حـين انهـال عليـه المـاء يسحقه سحقًا على الجدار. كان رأسها يطفو فـوق سـطح المـاء وهـو ممـسك بذراعها حتى خيل لها أنه خُلع من مفصله ولكنها لم تقوَ عـلى الوقـوف عـلى قدميها فأخذت تناضل وتناضـل في سـقم رهيـب كـالحلم ولكنهـا لم تـستطع الوقوف على قدميها. ولم يحمها سوى يده التي أطبقت على رسغها.

أخذ يجرها قريبًا منه حتى أمسكت يـدها الأخـرى بـساقه. فأوشـك عـلى السقوط في الماء مرة أخرى. ولكنه تشبث بشجرة الويستيريا التي حمتـه مـن السقوط ثم جذبها نحوه إلى أعلى. فأنشبت فيه مخالبهـا عـلى صـورة رهيبـة حتى وقفت على قدميها في حين أنه ظـل معلقًـا عـلى جـذع الـشجرة كرجـل مشطور إلى نصفين.

وارتفع الماء إلى ما فوق ركبتيها. ونظـر كـل مـنهما في وجـه الآخـر، فكـان كلاهما مخيفًا يتصبب منه الماء.

صرخ فيها قائلًا: "اذهبي إلى الدرج"!

كان الدرج عند زاوية الدار. على بعد أربع خطوات! فنظرت إليه. كـان لا يمكنها ذلك. فحدقت فيها عيناه كعيني النمر ودفعهـا بعيـدًا عنـه. فتـشبثت بالحائط وبدا أن الماء قد هدأ قلـيلًا. ولكنهـا ترنحـت عنـد الزاويـة وأحـست بالدوار فاستندت إلى حافة السور المقـام عـلى درج المظلـة ومـشى الرجـل في أثرها.

وما إن بلغا الدرج حتى سمعا زئـيرًا آخـر في وسـط الهـدير واهتـز جـدار المنزل. وارتفع الماء حتى أحاط بسيقانهما مرة أخرى ولكن الغجـري كـان قـد فتح باب الردهة فاندفعا مع الماء إلى داخـل الـدار حيـث ترنحـا متجهـين إلى الدرج الداخلي. وبينما هما يفعلان ذلك وقع بصرهما على الجدة التـي بـدت عند ظهورها في الردهة بعيدًا عن باب غرفة الطعام كالكتلة القصيرة الغريبة. ومـا إن التفَّـتْ أولى موجـات الميـاه بـساقيها حتـى رفعـت يـديها وتقلـصت أصابعها وفغرت فاها كالتابوب في صرخة جشاء.

وكُفَّ بصر إيفيت عن كل شيء سوى الـدرج، كُـفَّ بـصرها وغـاب وعيهـا عن كل شيء سوى الدرج الذي يرتفع بعيدًا عن الماء فارتقته على أربع كالهرة وهي مبتلة ترتجف وقد غاب وعيها. ولم تحـس بـالغجري المبلـل بالمـاء عنـد قمة الدرج وقد تولته نوبة السعال واختفت قلنسوته وسـقط شـعره الأسـود على عينيه فأخذ يحدق من خلاله إلى اندفاع المياه المـروع في ردهـة الـدار في أسـفل، لم تحـس بـه إلى أن بلغـت بـسطة الـدرج يقطـر منهـا المـاء وتنتابهـا القشعريرة حتى إنها لم تستطع أن تنصب قامتها وهي تتشبث بـسور الـدرج في حين راح البيت يهتز والماء يعوي في أسفل. ونظرت إيفيـت أيـضًا وهـي في شبه إغماءة فرأت الجدة تعلو فوق الماء كالطوف الغريب وقد احمر وجههـا بلون القرمز وجحظت عيناها الزرقاوان المكفوفتان وأخذ فمها ينفـث الزَّبـد. وامتدت يدها العجفاء القرمزية لتقبض على سياج الـسور بمخالبهـا فتـشبثت به لحظة حيث لمع خاتم الزواج في إحدى أصابعها.

وقال الغجري بعد أن هدأ سعاله وأبعد شعره إلى الخلف مخاطبًا وجهها الرهيب الشبيه بالطوف في أسفل قائلًا: "ما أبشعه! ما أبشعه"!

وارتطم المنزل بالماء من جديد في هـدَّة خفيـضة كالرعـد فـاهتزت أرجـاء الدار ثم سُمعت ضوضاء تصدُّع غريب يدوِّي مقعقعًا. وارتفـع المـاء كـالبحر. واختفت يد الجـدة وتلاشـت معـالم كـل شيء فـيما عـدا ذلـك اللـج المنـدفع المرتفع.

واسـتدارت إيفيـت في جنـون أعمـى فاقـدة الـوعي ثـم اتجهـت مترنحـة كالقط المبتل نحو الدرج الأعلى وتـسلقته مـسرعة. ولم تتوقـف إلا عنـد بـاب غرفتها حيث أشل حركتها هديد انهيار مروع ممزق ارتجت له أركان الدار.

فصرخ وجه الغجري الأخضر الشاحب في وجهها قائلًا: "المنزل ينهار"!

ثم حدق في وجهها المخبول قائلًا: "أين المدخنة؟ المدخنة الخلفية؟ في أيـة غرفة هي؟ فإنها ستصمد...".

حدق في وجهها بشراسة غريبة وهو يرغمها على الإدراك. فأومأت بحركـة غريبة مخبولة من رأسها. أومأت في هدوء تام قائلة: "هـا هنـا! هـا هنـا! إنـه مكان أمين".

فدخلا غرفتها التـي كانـت مـزودة بمـدفأة صـغيرة، كانـت غرفـة خلفية تطل منها نافذتان كل منهما على أحد جانبي أنبوبـة المدخنـة

الضخمة. واتجه الغجري ليستطلع من النافذة وهو يسعل في عنف وقد انتابته الرجفة في جميع أطرافه.

كان يندفع في أسفل فيما بين الدار ومرقى التل الوعر هدَّار جنوني من الماء يحمل معه النفايات بما في ذلك بيت الكلب روفر الأخضر. وأخذ الغجري يسعل ويسعل وهو يحملق نحو أسفل في شرود. وراحت الأشجار تتهاوى إحداها بعد الأخرى أمام قوة المياه الكاسحة وكان لا يقل عمقها عن عشرة أقدام.

واستدار الغجري نحو إيفيت وهو يرتجف ضاغطًا بذراعيه المبتلتين على صدره المبتل وقد ارتسمت على وجهه الأزرق نظرة استسلام. وإذا بدويٍّ مخيف عنيف يمزق الدار ثم أعقبه انفجار مائي عميق. كان صوت انهيار شيء ما. إنه جزء من الدار. وتموجت الأرض ومادت من تحت أقدامها. وظل كلاهما بضع لحظات مروَّعًا مشدوهًا، ثم أفاق قائلًا: "ما أبشع هذا! أترين! هذه المدخنة! إنها كالبرج. نعم! فلتطمئني! اخلعي ملابسك واذهبي إلى الفراش وإلا مت من البرد".

فقالت له وهي تجلس على مقعد متطلعة إلى محيَّاه بوجهها الأبيض الصغير المخبول وقد التصق الشعر من حوله: "أنا بخير، أنا بخير تمامًا"!

فصاح قائلًا: "كلا! كلا! اخلعي ملابسك وسأجففك بهذه المنشفة كما أجفف نفسي. فإذا ما انهارت الدار متنا في دفء وإلا كُتبت لنا الحياة ولم نهلك بالالتهاب الرئوي".

ثم جذب سترته إلى أعلى وهو يسعل ويرتجف في عنف وأخذ يجاهد بكل قوته المرتجفة التي حطمها البرد ليخلع سترته المبتلة المحكمة.

صاح قائلًا وقد كُمَّ وجهه بالسترة: "أعينيني"!

فأمسكت بطرف السترة ممتثلة لأمره وجذبتها بكل قوتها. فانتزعت السترة من فوق رأسه ووقف في سراويله تشدها حمالته.

أمرها قائلًا في شراسة وقد بدت عليه وحشية الحرب: "اخلعي ملابسك! وجففي جسدك بهذه المنشفة"! ثم نزع سرواله كمن تقمصته روح شريرة وتخلص من قميصه الملتصق المبتل فظهر جسده النحيل الأزرق وقد تولته الرجفة في جميع أنسجته من البرد والصدمة.

ثم أمسك بمنشفة وأخذ يجفف جسده بسرعة في حين أنه لم تفتأ أسنانه تصطك كصلصلة الصحاف بعضها ببعض. ورأت إيفيت في غموض أنه كان حكيمًا في ذلك. فحاولت أن تتخلص من ثوبها. فنزع عنها ذلك الثوب الرهيب المميت المبتل ثم اتجه نحو الباب فوق الأرض المبتلة على أطراف أصابعه وهو يواصل تجفيف بدنه.

وهناك وقف عاريًا متصلِّبًا والمنشفة في يده. نظر نحو الغرب حيث كانت تقوم نافذة البسطة العليا ثم راح يتطلع إلى الشمس الغاربة فوق بحر مسعور من الأمواه تغطيه الأشجار المجتثة والنفاية. كما تلاشت ناصية الدار القصية حيث كانت تقوم المظلة ودرجات

السلم. فقد انهار الجدار كاشفًا عـن الطوابـق فوقفـت بـارزة في الهـواء. كـما اختفى الدرج.

وقف يرقب الماء في سكون. وهبت عليه ريح باردة. فـأطبق عـلى أسـنانه المصطكة بمجهود هائل من إرادته ثم اسـتدار إلى داخـل الغرفـة مـرة أخـرى مغلقًا الباب من خلفه.

كانت إيفيـت تحـاول أن تجفـف جـسدها وهـي عاريـة ترتجـف رجفـة شديدة أصابتها بالغثيان.

صاح قائلًا: "أبشري! أبشري! فالماء لم يعد يرتفع! أبشري"!

وبدأ يجفف جسدها بمنشفته وهو ينتفض في جميع أجـزاء بدنـه ولكنـه ظل قابضًا على كتفها وهو يجفف جسدها الرقيق في بطء وحذر، كـما حـاول أن يجفف إلى حد ما شعر رأسها الصغير الذي كان يثير الرثاء.

وفجأة توقف.

ثم أمرها قائلًا: "يحسن بك أن ترقـدي في الفـراش. فـإني أريـد أن أجفـف نفسي".

كانت أسنانه تصطك وتـصطك وتـصطك في قضقـضة هائلـة تقطـع عليـه كلماته. وزحفت إيفيت وهي تنتفض في شبه غيبوبـة إلى داخـل فراشـها. أمـا هو فظل يبذل جهودًا مضنية ليحتفظ بثباتـه ويـدفئ نفـسه بـالتجفيف ثـم اتجه مرة أخرى إلى النافذة الشمالية ليتطلع إلى الخارج.

كان الماء قد ارتفع قليلًا. ومالت الشمس للمغيب فرأى في الأفق وهجًا يميل إلى الحمرة. أخذ يجفف شعره حتى صنع منه عقدة سوداء مبتلة ثم توقف قليلًا ليلتقط أنفاسه، وقد سرت في بدنه انتفاضة فجائية. وتطلع مرة أخرى إلى الخارج وهو يمسح صدره من جديد وعاوده السعال بسبب الماء الذي ابتلعه. كانت منشفته قد احمرَّ لونها. لقد جُرح في مكان ما ولكنه لم يشعر بشيء.

كانت لا تزال هناك ضوضاء الماء الغريبة المدوية، وذلك الهديد الرهيب لارتطام الأشياء بالجدران. وبدأت الريح تهب مع غروب الشمس باردة قاسية. وراح المنزل يرتج بهدات متفجرة في حين لم تفتأ تتصاعد جلبة غريبة، غريبة مخيفة.

وأخذ الرعب يغشى روحه فعاد مرة أخرى إلى الباب. وما إن فتحه حتى هبت الريح إلى الداخل مدوية بهدير المياه. ومن خلال الثغرة الرهيبة في البناء رأى العالم أمام عينيه، الأمواه. فوضى الأمواه الرهيبة وضوء الشفق والقمر الرائع الوليد يلوح عاليًا فوق الشمس الغاربة وقد خبا سناه، والسحب السوداء تتدافع في السماء على متن ريح باردة عاصفة.

ثم عاد إلى داخل الغرفة مغلقًا الباب وقد أطبق على أسنانه مرة أخرى وفي روحه مزيج من الخوف والاستسلام أو القدرية ثم التقط منشفتها ليرى ما إذا كانت أكثر جفافًا من منشفته وأقل تلوثًا بالدماء. وعاد يجفف رأسه متجهًا إلى النافذة.

ثم استدار بعيدًا وقد عجز عن التحكم في نوبات القشعريرة التي لم تفتأ تسري في بدنه. كانت إيفيت قد اختفت تمامًا تحت مُلاء الفراش ولم يعد يبدو منها شيء سوى أكمة مرتعشة تحت الملاءة البيضاء. فوضع يده على هذه الرابية المرتجفة وكأنه يريد أن يؤنس وحدته ولكنها ظلت تنتفض.

قال: "أبشري! أبشري! فالماء يهبط"!

وفجأة كشفت عن رأسها وتفرست فيه بوجهها الأبيض. تفرست في وجهه المائل إلى الخضرة وقد اكتسى بهدوء غريب وغيبوبة نصفية ولم تفتأ أسنانه تصطك دون أن يعيرها اهتمامًا وهو يحملق فيها في حين أنه لم تزل عيناه السوداوان تتألقان بسعير الحياة وهدوء الشريد الذي أضفاه عليه استسلامه القدري.

وتأوهت قائلة بأسنان مصطكة: "أدفئني! أدفئني! وإلا مت من الرجفة"!

وسرت في بدنها الأبيض المتقلص قشعريرة رهيبة خليقة بلا شك أن تمزقها وتودي بحياتها.

فأومأ الغجري برأسه وضمها بين ذراعيه في عناق قوي محكم كالمشد اللولبي ليهدئ من قشعريرته. فقد كان هو نفسه يرتجف من أثر الصدمة على صورة مخيفة وهو في شبه غيبوبة.

ولم يكن في وعيها سوى نقطة ثابتة وحيدة هي عناقه إياها في قوة وكأنه مِشد لولبي. ولشد ما أشعرها ذلك بالراحة في قلبها بعد ما كاد ينفجر من شدة التوتر. وعلى الرغم من القشعريرة التي لم يفتأ يموج بها جسده كالتيار الكهربي وهو يحتضنها غريبًا قويًّا لدنًا كالمجس فقد هدَّأ من روعهما توتر عضلاتهما في تصلب ذلك التوتر الذي تسبب في تقلص بدنها. ثم أخذ عنف القشعريرة المُمِض من أثر الصدمة يهدأ رويدًا في بدنه أولًا ثم في بدنها بعد ذلك وانبعث بينهما الدفء فغاب عن الوعي عقلاهما وقد أمضتهما الغيبوبة النصفية ثم استغرقا في النوم.

(10)

كانت الشمس تشرق في كبد السماء قبل أن يتمكن الرجال من عبور نهر بابل فوق السلالم الخشبية. فقد اختفى الجسر ولكن الفيضان قد انحسر. وعندئذ أضحى المنزل المائل إلى الأمام وكأنه ينحني في تصلب احترامًا للنهر، أضحى قائمًا وسط الأوحال والحطام وقد تكدست كومة كبيرة من الأنقاض والنفايات في الناحية الجنوبية الغربية منه ولشد ما كانت أفواه الغرف الفاغرة رهيبة مخيفة.

أما في داخله فلم يكن هناك أثر للحياة. ولكن البستاني جاء عبر النهر ليتعرف على المكان كما ظهرت الطاهية يهزها الفضول. وكانت قد هربت من الباب الخلفي واخترقت غابة الشربين حتى بلغت الطريق الرئيسي عندما رأت الغجري يعدو أمام الدار فظنت أنه قادم لاغتيال شخص ما. وقد وجدت عربته واقفة عند البوابة الأمامية الصغيرة. وعندما جَنَّ الليل اقتاد البستاني الحصان إلى مربط "الردلايون" في دارلي.

وأخيراً علم بهذا أهل بابلوك عندما عبروا النهر فوق السلالم الخشبية واتجهوا إلى مؤخر الدار. وقد اضطربت أعصابهم خشية أن ينهار البنيان الذي تقوضت واجهته بأسرها وسُدَّ مؤخره تمامًا. أخذوا

يحملقون في رعب في تلك الرفوف الصامتة التي تحمل كتب القس في غرفة مكتبته وقد مُزق عنها ستار الجدار كما أخذوا يحملقون في ذلك المضجع النحاسي الكبير القائم في غرفة الجدة ولشد ما كان عميقًا وثيرًا، ولكن إحدى قوائمه النحاسية تدلَّت في الفضاء الممزق على صورة تجريبية كما وقع بصرهم على حطام غرفة الخادم في الطابق العلوي. وانخرطت الخادم والطاهية في البكاء. ثم تسلل رجل في حذر من خلال نافذة المطبخ المهشمة إلى داخل الطابق الأرضي الذي كان أشبه بغابة مليئة بالمستنقعات. وما إن وجد جثة العجوز أو على الأقل رأى قدمها في خفِّها الأسود المسطَّح وقد برزت موحَّلة من أحد أكياس النفاية المخلوطة بالطين حتى لاذ بالفرار.

وأكد البستاني أن الآنسة إيفيت لم تكن بالمنزل فقد رآها وقد جرفها الماء هي والغجري. ولكن الشرطي أصر على تفتيش المكان. وأخيرًا اندفع أبناء عائلة فريملي مهرولين بعد أن أوثقت السلالم الخشبية بالحبال. ثم ارتفعت صيحة مدوية من الجماعة بأسرها. ولكنها لم تلقَ صدًى من الداخل.

فثُبت سلم خشبي على الحائط وتسلقه بوب فريملي ثم هشم إحدى النوافذ وتسلل من خلالها إلى غرفة العمة سيسي. ولشدَّ ما أفزعه كالأشباح ما كان عليه كل شيء من ألفة منزلية تامة. فقد كان المنزل معرضًا للانهيار في أية لحظة.

وما إن وُضع سلم خشبي يصل إلى الطابق العلوي حتى هُـرع إلى المكـان نفر من دارلي وقرروا أن الغجري المسن قـصد إلى مـربط "الردلايـون" ليأخـذ الحصان والعربة قائلًا: إن ابنه شاهد إيفيت في أعلى المنـزل. ولكـن الـشرطي كان عندئذ يُهشِّم نافذة غرفة إيفيت.

وفزعت إيفيت التي كانت مستسلمة لنـوم عميـق، فزعـت صـارخة مـن تحت أغطية الفراش عـلى صـوت تهـشيم الزجـاج. وتـشبثت بـالملاءة لتـستر عُريها. فأطلق الشرطي صرخة مفزوعة حوَّلها إلى نداء هاتفًـا: "مـس إيفيـت! مس إيفيت"!

واستدار على السلم الخشبي ثم صاح في وجوه الـواقفين في أسـفل قـائلًا: "مس إيفيت في فراشها! في فراشها"!

لبث هناك على السلم وكـان رجـلًا عزبًـا حيـث ظـل متـشبثًا بالنافـذة في خطر من السقوط وهو لا يدري ماذا يفعل.

واسـتوت إيفيـت عـلى فراشـها وقـد تكتَّـل شـعرها في عقيـصة متـشابكة وراحـت تحملـق بعينـين مخبـولتين وهـي متـشبثة بمـلاء الفـراش تـستر بهـا صدرها العاري. لشد ما كانت مستغرقة في النوم حتى إنها لم تزل غائبـة عـن الوعي.

تسلل الشرطي الذي أفزعه السلم المهتز إلى داخل الغرفة قائلًا: "لا تخـافي يا آنستي! ولا يقلقك شيء بعد ذلك. فأنت الآن في أمان".

وخُيِّل لإيفيت التي استبد بها الذهول أنه يقصد الغجري. أين هـو؟ كـان هذا هو أول ما خطر لها. أين كان رجلها الغجري الذي قضى معها تلك الليلـة الليلاء.

لقد اختفى! اختفى! وفي الغرفـة شرطـي! ومـسحت بيـدها عـلى جبهتهـا المذهولة.

ــ "لو ارتديت ملابسك يا آنسة أمكننـا أن نهـبط بكـل سـلامة إلى الأرض. فالمنزل ينذر بالسقوط. ولا أعتقد أن هناك أحدًا في الغرف الأخرى"!

ثم خطا بحذر في الممر وحملق مفزوعًا خلال الطرف المقوض مـن المنـزل حيث رأى القس على مسافة بعيدة قادمًا في سيارة فوق التـل الـذي أضـاءته الشمس.

ونهضت إيفيت مسرعة وقد تخدر وجهها معبِّرًا عن خيبة الأمل وهي تضم من حولها ملاءة الفراش. نظرت إلى نفسها في المـرآة لحظـة ثـم فتحـت الأدراج بحثًا عن ملابسها. فارتـدت ثيابهـا ثـم تطلعـت إلى المـرآة حيـث رأت في رعـب شعرها المعقود. ولكنها لم تبالِ بذلك. فقد اختفى الغجري على أية حال.

كانت ملابسها ملقاة على الأرض في كومة مبتلة. وظهـرت عـلى الـسجادة بقعة كبيرة من البلل حيث كانـت ملابـسه هـو. كـما رأت منـشفتين قـذرتين ملوثتين بالدماء.

وفيما عدا ذلك فلا أثر له.

كانت إيفيت تمشط شعرها عندما طرق بابها الشرطي. فدعته إلى الدخول. وارتاح لرؤيتها مرتدية ملابسها وقد ثابت إلى رشدها.

فردد قائلًا: "يحسن بنا أن نسرع قدر إمكاننا بمغادرة المنزل يا آنستي فربما انهار في أية لحظة".

فقالت إيفيت في هدوء: "حقًّا! أَبَلَغَ الأمرُ هذا الحد"؟

وترددت صيحات عالية مما اضطرها للاتجاه إلى النافذة حيث رأت القس في أسفل فاتحًا ذراعيه والدموع تنهمر من عينيه.

قالت في هدوء مشاعرها المتناقضة: "أنا بخير يا أبتاه"!

وقررت أن تكتم عنه قصة الغجري. وفي نفس الوقت تحدَّر الدمع على وجهها.

فقال الشرطي: "لا تبكي يا آنستي. لا تبكي! لقد فقد القس أمه ولكنه يحمد السماء على إنقاذ ابنته. لقد خيل لنا جميعًا أنك مفقودة أيضًا... نعم. خيل لنا هذا"!

فقالت إيفيت: "هل غرقت جدتي"؟

فقال الشرطي في وجوم: "يؤسفني ذلك. لهفي عليها"!

وبكت إيفيت في منديلها الذي كان عليها تأتي به من أحد الأدراج.

وقال الشرطي: "أتجرؤين يا آنستي على هبوط هذا السلم"؟

فنظرت إيفيت إلى ارتفاع السلم المائل وحدثّت نفسها في الحال قائلة: "لا! لن أفعل ذلك"! ولكنها عندئذ تذكرت قول المرأة الغجرية: "تذرعي بمزيد من الشجاعة في جسدك".

فقالت وهي تبكي ملتفتة إلى الشرطي: "هل تفقدت الغرف الأخرى جميعًا"؟

ــ "نعم يا آنستي! ولكننا لم نجد سواك في المنزل كما تعلمين عدا السيدة العجوز، فقد هربت الطاهية في الوقت المناسب. أما إليزابيث فكانت عند والدتها. فإننا لم نقلق إلا على مصيرك أنت والسيدة العجوز المسكينة. أتجرؤين على هبوط السلم الخشبي"؟

فقالت إيفيت في غير مبالاة: "بالطبع "!

فقد اختفى الغجري على أية حال.

عندئذ أخذ القس في عذاب يرقب ابنته بقامتها الطويل النحيلة وهي تخطو إلى الخلف في بطء هابطة السلم المائل بينما كان الشرطي يمعن النظر في بطولة خلال النافذة المهشمة ممسكًا بالطرف العلوي للسلم.

وما إن بلغت إيفيت نهاية السلم حتى أغمي عليها كما يليق بها بين ذراعي والدها. ومن ثم حملهما بوب معًا في السيارة وصحبها

إلى منزل أسرة فريملي. وهناك أجهشت لوسيل المسكينة بالبكاء في ارتياح التي كانت كالشبح حتى عرتها نوبة من الهستيريا. كما صاحت العمة سيسي قائلة وهي تبكي: "ليذهب المسنون وليبقَ الشباب! فلا يمكنني الآن أن أبكي "الأم" بعد نجاة إيفيت من الموت".

وهَمَت عيناها بالدمع الهتون.

وتبين أن انفجارًا فجائيًّا في خزان المياه الكبير المقام في بابل هايديل على بعد خمسة أميال من الأبرشية كان قد تسبب في ذلك الفيضان. واكتشف بعد ذلك أن نفقًا قديمًا لأحد المناجم ربما كان يرجع تاريخه إلى عهد الرومان ولم يشتبه فيه أحد أو يحلم به تحت سد الخزان قد انهار مقوضًا السد بأسره. وهذا هو السر في أن نهر بابل كان في ذلك اليوم الأخير زاخرًا بالماء على صورة غريبة مخيفة. ثم انفجر السد.

وبقي القس والفتاتان في منزل أسرة فريملي حتى يمكن العثور على مسكن جديد. ولم تحضر إيفيت جنازة الجدة بل مكثت في فراشها.

وكانت إيفيت عندما تروي قصتها تكتفي بأن تذكر كيف أن الغجري قد حملها إلى داخل المظلة ثم تزعم أنها زحفت في الماء حتى بلغت الدرج. وعُرِف أنه لاذ بالفرار. فهكذا قال الغجري الشيخ عندما ذهب إلى مربط "الردلايون" ليأخذ الحصان والعربة.

ولم تستطع إيفيت أن تسهب في حديثها. فقد كانت غامضة مرتبكة وبدت أنها لا تكاد تذكر شيئًا. ولكن ذلك كان يطابق طبيعها تمامًا.

وكان بوب فريملي هو الذي اقترح قائلًا: "أتعلمون؟ إني أعتقد أن هذا الغجري يستحق وسامًا".

فأعجبت الأسرة كلها بهذا الاقتراح.

وصاحت لوسيل قائلة: "ينبغي أن نشكره"!

وذهب القس بنفسه مع بوب في السيارة. ولكن المحجر كان خاويًا. فقد شد الغجر رحالهم إلى مكان مجهول.

وأخذت إيفيت تئن من أعماقها وهي راقدة في فراشها قائلة: "آه إني أحبه! أحبه! أحبه!" ولشدَّ ما أفقدها قواها حزنها عليه. ولكنها في الواقع كادت توافقه على اختفائه. فلقد أدركت بروحها الغضة الحكمة في ذلك.

ولكنها بعد جنازة الجدة تلقت رسالة صغيرة مؤرخة من مكان مجهول:

"آنستي العزيزة. علمت من الجريدة أنك بخير بعد ما خضت من غمار الماء كما هي الحال معي. آمل أن ألقاك مرة أخرى في يوم من الأيام. وربما التقينا في سوق الماشية في "تايد زول" أو ربما عدنا

من نفس الطريق مرة أخرى. كنت يومئـذ ذاهبًـا لوداعـك. ولكننـي لم أحـظَ بذلك. فإن غمرة الماء لم تتح لي الفرصة. ولكنني أحيا بالأمل. خادمك المطيـع. جو بوزول".

وعندئذ فقط أدركت أنه يحمل اسمًا.

انتهت

المرأة التي جَمَحَت

(1)

كان يخيل لها أن هذا الزواج _دون الزيجات جميعًا_ مغامرة مثيرة، ولم يكن ذلك لأن الرجل في ذاته كان ذا سحر معين في نظرها فإنه كـان شخـصًا ضئيلًا مفتولًا يكبرها بعشرين سنة ذا عينين عسليتين وشعر وخطه المـشيب. وقد هاجر من هولندا إلى أمريكا صـبيًّا ضـالًّا تافهًـا ضـئيلًا لا يـصلح لـشيء، فقذفت به المقادير من منطقة منـاجم الـذهب في الغـرب إلى المكـسيك في الجنوب حيث صار الآن على جانـب لا بـأس بـه مـن الـثراء، يمتلـك منـاجم للفضة في براري "سيرامادري".. وهكذا كان من الواضح أن المغـامرة لم تكـن تتمثل في شخصه بقدر ما كانت تتمثل في ظروفه. ولكنه برغم كل ما مر به من أحداث كان لا يزال كتلة صغيرة من النـشاط والحيويـة، وقـد حقـق مـا حققه وحده دون مساعدة من أحد. إنها إحدى عجائب الحياة التي لا تجد تفسيراً.

وما إن وقع بصرها فعلًا عـلى مـا حققـه الرجـل مـن أعـمال حتـى وهـن قلبها. فقد رأت سلسلة متـصلة مـن الـتلال الجبليـة الهائلـة التـي تكـسوها الخـضرة، وكانـت ترتفـع في وسـط تلـك العزلـة المقفـرة أكمـة حـادة تميـل

إلى الحمرة وقوامها الطين المجفف الذي لفظه مصنع الفضة. وفي أسفل هـذا المصنع العاري كان يقوم منزل من طابق واحد مبنـي بـاللبن ومـسور بجـدار يضم بين جنباته حديقة وشرفة داخلية عميقة تَحفُّ بها من الجانبين نباتـات استوائية متسلقة. ولا تكاد تتطلع ببصرك من الفنـاء الـداخلي المزهـر المـسور حتى ترى مخروطًا ضخمًا أحمر قوامه نفاية رواسب الفضة. وقد ارتفعت إلى أعلى نحو السماء آلات مصنع التعدين. ولا شيء غير هذا.

وكثـيرًا مـا كانـت الأبـواب الخـشبية الكبـيرة بـالطبع تـترك مفتوحـة. وعندئذ كانت تقف في الخـارج، حيـث العـالم الفـسيح المكـشوف، فـترى التلال الضخمة الجوفاء المكسوة بالأشجار وقد توالى بعضها خلـف بعـض لا تعرف لها بداية أو نهاية. وكانت تكسوها الخـضرة في فـصل الخريـف. أما في بقية أيام السنة فإنهـا كانـت تميـل إلى الحمـرة والجفـاف الـشديد والعزلة المتجردة.

وكان زوجها يـصحبها في سـيارته الفـورد المهـشمة إلى البلـدة الإسـبانية الصغيرة المنسية وسط الجبال وقد خلت من الحياة، خلت تمامًا من الحيـاة حيث تقوم الكنيـسة الكبـيرة الموحـشة التـي لفحتهـا الـشمس، والبوابـات المقفرة، وساحة السوق المسقوفة التي لا تبشر بشيء. وهنـاك وقـع بـصرها في أول زيارة لها على جثة كلب ميت وقد تمـددت عـلى الأرض بـين محـال اللحم ومعروضات الخضر وكأنهـا راقـدة هنـاك إلى الأبـد، ولم يكلـف أحـد

نفسه مشقة إلقائها بعيدًا. موات في موات.

كان الجميع يتحدثون عن الفضة في صوت واهن ضعيف ويتداولون فيما بينهم قطعًا من خامة الفضة. ولكن السوق كانت تعاني ركـودًا. فقـد نـشبت الحرب العظمى وانتهت فماتت سوق الفضة. وأغلقت مناجم زوجها أبوابهـا. ولكنهما واصلا الحياة في منزلهما المبنـي بـاللبن أسـفل المـصنع وسـط الزهـور التي لم تكن في نظرها نضرة قط.

وقد رزقت بطفلين، غلام وصبية وكان ابنها البكر، قـد نـاهز العـاشرة مـن عمره قبل أن تفيق هي من سـباتها الـذي فرضـته عليهـا دهـشتها المقهـورة. وكانت عندئذ في الثالثة والثلاثين من عمرهـا، امـرأة ضـخمة مذهولـة، زرقـاء العينـين، يميـل جـسدها إلى الترهـل. أمـا زوجهـا الـضئيل القـوي المفتـول ذو العينين العسليتين فكان في الثالثة والخمسين من عمـره رجـلًا صـلبًا مـشدودًا كالأسلاك لا يزال ممتلئًا بالحيوية ولكن ثمة غشاوة مـن الحـزن كانـت تكـسو إشراقته لركود سوق الفضة. ولإحساسه بمناعة غريبة من جانب زوجته.

كان رجلًا ذا مبادئ وزوجًا صالحًا. وقد أغرم بها على صورة ما. فلم يتمالـك نفـسه قـط مـن الـشعور نحوهـا بإعجـاب مبهـور. ولكنـه في جوهره كـان لا يـزال عزبًـا. فقـد قـذف بـه إلى العـالم عزبًـا صـغيرًا في العاشرة من عمره. وعندما تزوج كان قـد تجـاوز الأربعـين مـن العمـر

وجمع من المال ما يكفيه لحياته الزوجية. ولكن رأس ماله بأسره كان ملكًا له وهو عزب. فقد أدار بنفسه مصنعه الخاص الذي كان زواجه يشكل آخر قطعة فيه وأقربها إلى نفسه.

ولشد ما أفرط في إعجابه بزوجته حتى حطمها وأطفأ جذوتها. كان معجبًا بجسدها وبجميع نواحي شخصيتها. وكانت في نظره دائمًا فتاة باركلي الكاليفورنية الباهرة التي عرفها لأول مرة. كما كان كأي زوج مسيطر، يسهر على حراستها وسط جبال "تشيهواهوا". فكانت غيرته عليها أشبه بغيرته على منجم الفضة. ولكن هذا إسراف في القول.

كانت وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها، لا تزال بحق فتاة باركلي من كل الوجوه عدا الناحية الجسمانية. فبزواجها توقف هذا النمو الواعي على صورة غامضة توقفًا تامًّا. فإنها لم تتحقق قط من وجود زوجها سواء من الناحية العقلية أو الجسدية. إذ أنه على الرغم من هيامه المتأخر بها لم يعنِ في نظرها شيئًا قط من الناحية الجسمانية. ولكنه كان من الناحية المعنوية فقط يهز كيانها هزًّا. ويذلها ولا يفتأ يستعبدها على صورة لا سبيل إلى التغلب عليها.

وهكذا مرت السنون في ذلك المنزل اللبني المقام حول الفناء المشمس يعلوه مصنع الفضة. ولكن زوجها كان لا يعرف الخمول مطلقًا فعندما ركدت سوق الفضة تولى إدارة مؤسسة للحيوانات تقع

على مسافة عشرين مـيلًا تقريبًـا حيـث قـام بتربيـة ذكـور الخنـازير الأصـيلة الخصية. ولشد ما كانت جميلـة رائعـة! ولكنـه كـان في الوقـت نفـسه يكـره الخنازير. فقد كان مشردًا مثاليًّا أَنِف النفس. كـما أنـه لـشد مـا كـان يـبغض الجانب الفيزيقي من الحياة. ولكنه كان مغرمًا بالعمل، العمل، العمل وصنع الأشياء. فقد صنع زواجه وطفليه اللذين كانا يشكلان جزءًا من عمله ولكنهما يَدرَّان عليه دخلًا عاطفيًّا فحسب.

وأخذ توازن أعصابها يختل تدريجيًّا. فكان لا بد لها من مغـادرة الـدار، لا بد من مغادرة الدار. فصحبها إلى "إلباسو" حيث أقاما شـهورًا ثلاثـة وحـسبها على الأقل أنها كانت في الولايات المتحدة.

ولكنه ظل مهيمنًا عليها بسحره حتى انتهت الشهور الثلاثة دون أن يطرأ عليها تغـير مـا، ثـم عـادت إلى بيتهـا اللبنـي بـين الـتلال الأزليـة التـي كانـت تكسوها الخضرة حينًا، والحمرة الداكنة أحيانًا، وكانـت جوفـاء خاويـة خـواء المجهول حيث أخذت تعلم طفليها وتشرف عـلى الـصبية المكـسيكيين الـذين كانوا يسهرون على خدمتها. وكان زوجها أحيانًـا يـصحب معـه الزائـرين مـن الإسبان أو المكسيكيين أو يصحب معه من وقت لآخر الرجال البيض.

ولشد ما كان يروقه أن يستضيف في منزله الرجال البيض. ولكنه كـان أثناء وجودهم هناك لا يتمتع بلحظة مـن الهـدوء أو الطمأنينـة كـما لـو كانـت زوجتـه عرقًـا خفيًّا غريبًـا مـن المعـدن الخـام في منامـه لا يحـب

أن يعلم به أحد سواه. ولقد فُتنت بالشبان المهذبين من مهندسي التعدين الذين كان يستضيفهم زوجها في بعض الأحيان، كما كان هو أيضًا مفتونًا بهم. ولكنه كان مُعدِّنًا من أبناء الجيل الماضي وكانت له زوجة لا يكاد ينظر إليها أحد السادة حتى يحس وكأن أحد مناجمه يتعرض للسلب وأن أسراره نهبٌ للتجسس.

وقد أوحى إليها بالفكرة أحد أولئك السادة الشبان. فقد كانوا جميعًا واقفين خارج أبواب الفناء الخشبية الكبيرة وهم يتطلعون إلى العالم الخارجي حيث اكتست بالخضرة جميع التلال الأزلية الساكنة وذلك في شهر سبتمبر عقب سقوط الأمطار. ولم يكن هناك أثر يدل على شيء عدا ذلك المنجم المهجور والمصنع المقفر وعدد من منازل عمال التعدين التي كادت تقفر من أهلها.

قال الشاب: "إني لأعجب ماذا يوجد هناك خلف هذه التلال الشامخة الخاوية".

فقال لدرمان: "مزيد من التلال. لا شيء في هذا الطريق سوى "سونورا" والساحل. فمن حيث جئت توجد الصحراء وفي الطريق الآخر تقوم التلال والجبال".

ـ "نعم. ولكن ماذا يسكن التلال والجبال؟ لا ريب أن هناك شيئًا رائعًا! فإن هذه البقعة تبدو وكأنها منقطعة النظير على الأرض، كما لو كانت فوق سطح القمر".

ـ "هناك حيوانات كثيرة إن شئت الصيد كما يسكنها الهنود إن

كانوا في نظرك يتصفون بالروعة".

ـ "هل هم همجيون"؟

ـ "للغاية".

ـ "ولكنهم مسالمون، أليسوا كذلك"؟

ـ "هذا أمر يتوقف على الظروف. فبعضهم همجي للغاية ولا يسمح لأحد بالاقتراب حتى إنهم يقتلون المبشرين لأول وهلة. ولا سبيل إلى الوصول إلى حيث يعيا المبشرون".

ـ "وما رأي الحكومة في ذلك"؟

ـ "تتركهم لشأنهم لبعدهم عن كل مكان. كما أنهم مراوغون فعندما يرون أنهم في خطر يرسلون وفدًا إلى "تشيهواهوا" ليقدم فروض الطاعة الشكلية. ويسر الحكومة أن تترك الأمر عند هذا الحد".

ـ "وهل يعيشون في همجية مطلقة بعاداتهم وعقائدهم الهمجية"؟

ـ "طبعًا. فهم لا يستخدمون من أنواع الأسلحة سوى النبال وقد شاهدتهم في ساحة المدينة وهم يرتدون قبعات غريبة مضحكة تحيط بها الزهور ويمسك كل منهم بقوس في يده وقد تجرد تمامًا من ملابسه حتى في الطقس البارد إلا من ثوب يشبه المِلحفة... رأيتهم يتجولون هنا وهناك بسيقانهم العارية كالإنسان الأول".

ـ "ولكن ألا تعتقد أن الحياة رائعة هناك في قراهم الخفيَّة"؟

ـ "كلا. وما الروعة فيها؟ فالهمج هم الهمج. والهمجيون جميعًا

لا يختلف سلوكهم تقريبًا، فهم يتصفون بالانحطاط إلى حد ما، والقذارة والبعد عن الوسائل الصحية وبعض الحيل الماكرة، كما أنهم يكافحون في سبيل لقمة العيش".

ـ "ولكنهم يؤمنون بلا شك بعقائد وأسرار قديمة... قديمة. وما من شك في أن ذلك شيء رائع حقًّا".

ـ "لا علم لي بأسرارهم... طقوس وثنية صارخة... وشائنة إلى حد ما. كلا. إني لا أرى روعة في هذه الأشياء. وإني لأعجب كيف ترى أنت ذلك وقد عشت في لندن وباريس ونيويورك...".

فقال الشاب وكأنه يحاجُّه: "ولكن الناس جميعًا يعيشون في لندن أو باريس أو نيويورك...".

وكان لهذا الحماس الغامض بالذات إزاء الهنود المجهولين صدًى عميق في قلب المرأة. فقد تولاها شعور رومانسي أحمق أكثر خيالًا من شعور الفتاة الصغيرة. فأحست أنه مقدر لها أن تطوف بتلك الأماكن الخفية التي يسكنها هنود الجبال الأزليون الغامضون المدهشون.

وتكتمت الأمر. وكان المزمع أن يرحل الشاب في صحبة زوجها إلى "توريون" لإنجاز بعض الأعمال وبذلك يتغيَّب عن الدار بضعة أيام. ولكنها قبل الرحيل استدرجت زوجها ليحدثها عن الهنود، عن قبائل الرُّحل الذين يشبهون "النافاجو" وكانوا لا يزالون يتجولون في حرية، "والياكي" من أهل "سنونورا" والجماعات المختلفة في شتى

وديان ولاية تشيهواهوا.

وكان المعتقد أن من بين جميع قبائل الهنود، قبيلة واحدة مقدسة، تعيش في وادٍ مرتفع نحو الجنوب وهي قبيلة الشيلشوي. وما زال يعيش بينهم قوم من سلالة مونتزوما وملوك آزتك أو توتوناك القدامى. وما زال شيوخ الكهنة يؤدون شعائر الدين القديم ويقدمون القرابين الآدمية... هكذا قيل. وقد زار بعض العلماء بلاد الشيلشوي ثم عادوا منها شاحبي الوجوه وقد أرهقهم الجوع والحرمان المرير حاملين معهم أوثانًا بربرية غريبة مختلفة، ولكنهم لم يروا شيئًا خارجًا عن المألوف في قرية الهمجيين الجائعة العنيدة.

ومع أن لدرمان تحدث إليها بتلك الطريقة المرتجلة فقد كان من الواضح أنه أحسَّ بشيء من الاستثارة المبتذلة عندما فكر في الهمجيين القدامى الغامضين.

فسألته قائلة: "وكم تبلغ المسافة بيننا وبينهم"؟

ـ "ثلاثة أيام على ظهر الحصان، ويمر المسافر إليها بكوتشيثي وبحيرة صغيرة تقع هناك".

ورحل زوجها مع الشاب. فوضعت المرأة خطتها الجنونية. وكانت منذ عهد قريب تلح على زوجها ليسمح لها من وقت لآخر بالركوب معه على ظهر الحصان حتى تغير من حياتها الرتيبة. ولكنه لم يسمح لها قط بالخروج وحدها. فإن المنطقة لم تكن مأمونة حقًّا

كما كانت خارجة عن القانون وبعيدة عن الحضارة.

ولكنها كانت تملك حصانها الخاص وكانت تحلم بالحرية التي تمتعت بها في صباها بين تلال كاليفورنيا.

وكانت ابنتها البالغة من العمر تسع سنوات تعيش الآن في دير صغير في مدينة التعدين الإسبانية الصغيرة التي تكاد تكون مقفرة والتي تقع على مسافة خمسة أميال من مسكنهم. فقالت المرأة لخادمها: "مانويل. إني ذاهبة إلى الدير على صهوة جوادي لأرى مارجريتا ولأحمل إليها بعض الحاجيات. وربما أمضيت الليل هناك. فعليك أن ترعى فريدي وأن تطمئن إلى كل شيء حتى أعود".

فسألها الخادم قائلًا: "وهل أرافقك على حصان سيدي أم يذهب جوان في صحبتك"؟

ـ "لن يرافقني أحد. بل سأذهب أنا وحدي".

فنظر الشاب في عينيها محتجًّا. فمن المحال تمامًا أن تذهب المرأة وحدها! فرددت المرأة العبْهَر ذات البشرة الجميلة والهدوء الظاهري قولها في تأكيد غريب غلّاب قائلة: "سأذهب وحدي".

فأذعن الرجل في صمت وحزن.

وسألها ابنها وهي تعد طرود الطعام قائلًا: "لماذا تذهبين وحدك يا أماه"؟ فصاحت المرأة قائلة في انفجار حيوي مفاجئ: "ألا تتركوني

وحدي أبدًا؟ لحظة واحدة في حياتي"؟

فلاذ الطفل بالصمت كما فعل الخادم.

وانطلقت المرأة في طريقها _بلا وازع من ضميرها_ ممتطية صهوة جوادها أسمر اللون ومرتدية حُلة ركوب الخيل المصنوعة من الكتان الخشن، وقد تدلى فوق سراويلها الكتانية إزار خاص بركوب الخيل وفوقها قميصها الأبيض رباط عنق أحمر كما وضعت على رأسها قبعة سوداء من اللبَّاد. وقد وضعت الطعام في الخرج وملأت "الزمزمية" بالماء. وحزمت خلف السرج "بطانية" كبيرة محلية. ثم انطلقت من منزلها وهي تنظر بعيدًا عل مدى البصر. وقد وقف مانويل والصبي الصغير في البوابة يراقبان رحيلها. ولكنها لم تستدر حتى لتلوِّح لها مودِّعة.

ولكنها بعد أن قطعت مسافة ميل تقريبًا تركت الطريق الموحش وانحرفت في طريق صغير إلى اليمين كان يؤدي إلى وادٍ آخر عبر بقاع وعرة تحفُّ بها أشجار سامقة وخلال مقر آخر مهجور للتعدين وكان ذلك في شهر سبتمبر والماء يترقرق منطلقًا في الجدول الصغير الذي يغذي المنجم المهجور. فترجلت لتشرب ولتتيح لحصانها أيضًا أن يشرب.

وهناك في أعلى المنحدر رأت بعض المواطنين قادمين نحوها خلال الأشجار. كانوا قد رأوها فأخذوا يراقبونها عن كَثَب كما

أخذت تراقبهم هي بـدورها. وكـان المواطنـون الثلاثـة وهـم امرأتـان وشـاب يقومون بـدورة واسـعة حتـى لا يقتربـوا منهـا. ولكنهـا لم تكـترث لـذلك. بـل امتطت حصانها وراحت تسير به على مهل إلى الأمام عبر الوادي الساكن فيما وراء مصنع الفضة بعيدًا عن كـل أثـر للتعـدين. وكـان لا يـزال أمامهـا لتبلـغ الوادي البعيد طريق وعر مملوء بالصخور والأحجار المبعثرة هنا وهناك. وقـد سلكت هذا الطريق من قبل مع زوجهـا. وكانـت تعلـم أنهـا لا بـد أن تتجـه جنوبًا فيما وراء تلك المنطقة.

والغريـب أنهـا كانـت لا تـشعر بـالخوف، بـرغم أنهـا منطقـة مرهوبـة بمنحدراتها الجبلية الساكنة التي تبـدو مـشئومة مهلكـة وبمواطنيهـا المـريبين المراوغين الذين كانوا يظهرون لها عـن بُعـد بـين الأشـجار مـن حـين إلى حـين وطيورها الجوارح الكبيرة التي كانت كالذباب الضخم تحوم بعيدًا مـن وقـت لآخر فوق جيفة ما أو مقرٍّ لتربية الحيوانات أو مجموعة من الأكواخ.

وكلما ارتقت المنحدر، قلَّت كثافـة الأشـجار، وتخلـل الطريـق دغـل مـن النباتات الشائكة يعلوها نبات "أزرق ملتف ونبات أحمر متسلق" كان يظهر بين الحين والحين. ثم اجتازت منطقة الزهور وأخذت تدنو رويدًا مـن أشـجار الصنوبر.

كانت تعتلي قمة الجبل وعندما تجاوز النهـار الظهـيرة وقـد امتـد أمامهـا وادٍ آخـر يلفــه الـصمت والخـواء وتكـسوه الخـضرة. واتجـه حـصانها إلى

مجرى صغير من الماء حيث ترجلت لتتناول وجبة الغداء. ثم جلست في صمت وهي تنظر جنوبًا إلى الوادي الساكن الموحش وإلى التلال بقممها الحادة التي ترتفع نحو الصخر وأشجار الصنوبر. واستراحت ساعتين في حرارة النهار في حين أنه أخذ حصانها يرعى الكلأ من حولها.

والغريب أنها لم تشعر بالخوف أو الوحدة. فلا شك أن الوحدة في نظرها كانت أشبه بجرعة الماء البارد في نظر الظمآن الذي اشتدت عليه وطأة الظمأ. وكانت تشد من أزرها في أعماق نفسها فرحة غريبة.

ثم واصلت السفر. وفي الليل أقامت خيمتها إلى جانب جدول في أحد الوديان حيث تكاثفت الشجيرات. لقد رأت ماشية وعبرت جررًا كثيرة. فلا ريب أن هناك مقرًّا لتربية الحيوانات غير بعيد من مخيمها كما سمعت صرخة غريبة نائحة لأسد جبلي فنبحت الكلاب مجيبة النداء. ولكنها جلست في مكان خفيٍّ مجوَّف بالقرب من نار المخيم الواهنة حيث كانت لا تشعر حقًّا بالخوف. بل لم تفتأ ترفع من روحها المعنوية في داخل نفسها فرحة غريبة ظلت تفور في فقاعات.

ولشدَّ ما برد الجو قبيل الفجر. فرقدت ملتحفة "ببطانيتها" تتطلع إلى النجوم. وتنصت إلى حصانها وهو يرتجف في حين أنه لم يفتأ يخالجها شعور المرأة التي ماتت ومضت بعيدًا إلى ما وراء الكون. وساورها الشك فيما إذا كانت قد سمعت أثناء الليل صوت انهيار شديد في مركز نفسها هو صوت حشرجتها. أو ربما كان انهيارًا ذا

دلالة خطيرة غامضة في مركز الأرض.

وما إن انبثق أول بصيص من الضوء حتى نهضت وقد تخدرت أطرافها من البرد فأشعلت نارًا. ثم تناولت طعامها على عجل وقدمت لحصانها بعض قطع الكُسب، ثم انطلقت مرة أخرى. وقد تجنبت اللقاء بأحد، وكان من الواضح أن الأهالي بدورهم كانوا يتحاشون لقاءها لأنها لم تلتقِ بأحد منهم. وأخيرًا لاحت لها قرية "كوتشيتي" بمنازلها السوداء التي مالت سقوفها إلى الحمرة وقد بدت متجمعة في كآبة ووحشة أسفل منجم آخر ساكن مهجور منذ أمد بعيد، وظهر فيما وراءها سفح جبل ممتد هائل كان يرتفع أخضر زاهيًا صوب أشجار الصنوبر بخضرها القاتمة الكثيفة. وفيما وراءها امتدت مساحات من الصخر العاري منعكسة على صفحة السماء وكانت تعتورها عندئذ خطوط بيضاء من الثلج. فقد أخذ الثلج الجديد يتساقط في أعلى.

وعندئذ أخذت تشعر بالغموض وتخونها شجاعتها وهي تقترب من وجهتها رويدًا رويدًا. لقد مرت بالبحيرة الصغيرة المحاطة بأشجار الحور الضاربة إلى الصفرة وقد استدارت جذوعها البيضاء الرقيقة وكأنها أذرع نسوية بيضاء مستديرة. ما أروع هذا المكان! ولو كانت في كاليفورنيا لَهَذَت به وهي في بُحْران. أما هنا فكانت تنظر إليه وترى جماله ولكنها لا تكترث له. كانت متعبة منهوكة القوى على أثر ليلتين قضتهما في العراء وكانت تخشى الليلة التالية. لم تكن تدري إلى أين تقصد وماذا تبغي. وكان جوادها يكد

في سيره حزينًا خائر النفس في طريق حجري ولو كانت لديها بقيـة مـن إرادة لاستدارت عائدة إلى القرية لتحتمي بها إلى حين إرسالها إلى بيتها وزوجها.

ولكنها كانت مسلوبة الإرادة. وأخـذ حـصانها يخـوض جـدولًا صـغيرًا ثـم انحرف متجهًا نحو وادٍ تعلوه أشجار التنُّـوب الـسامقة الـضاربة إلى الـصفرة. كانت على ارتفاع لا يقل بحـال عـن تـسعة آلاف قـدم تقريبًـا فـوق مـستوى سطح البحر. وأصابها الدوار من شدة الارتفاع والإعياء. وأمكنها أن تـرى فـيما وراء الأشجار جوانب المنحدرات الجبلية الوعرة التي تُحدق بها فتعزلهـا عـن العالم وق كستها أشجار الحور المتعانقـة بأوراقهـا الحـادة. ومـن فوقهـا ظهـر شجر التنُّوب الفـضي المـدبب وشـجر الـصنوبر. وكـان جوادهـا يواصـل سـيره بطريقة آلية. فلا مناص في هذا الوادي الضيق وعلى ذلك الطريق الصغير مـن السير قُدُمًا في صعود.

وفجأة وثب حصانها فقد ظهر أمامهـا في الطريـق ثلاثـة رجـال يتـدثرون بعباءات سوداء.

وجاءت التحية بالصوت الهندي الممتلئ المتحفظ: "آديوس"!

فردت بصوت المرأة الأمريكية ذي النبرات الثابتة قائلة: "آديوس"!

ثم جاء السؤال الهادئ باللغة الإسبانية: "إلى أين تذهبين"؟

كان الرجال ذوو العباءات السوداء قد اقتربوا منها وهم يتطلعون إليها.

فردَّت في فتور بلغتها الإسبانية السكسونية الغامضة قائلة: "إلى الأمام".
كان هؤلاء في نظرها مواطنين فحسب... رجالًا سمر الوجوه أقوياء البنية يرتدون عباءات سوداء وقبعات من القش. ولولا شعورهم الطويلة السوداء المسترسلة على أكتافهم على صورة غريبة لما اختلفوا عن أولئك الذين يعملون في خدمة زوجها. فقد لاحظت هذا الشعر الأسود الطويل بشيء من النفور. فلا شك أن هؤلاء هم الهنود الهمجيون الذين جاءت لتراهم.

وسألها الرجل نفسه قائلًا: "من أين جئت"؟ كان المتكلم دائمًا هو ذلك الشاب ذو العينين اليقظتين النجلاوين البراقتين اللتين ترمقانها بنظرات جانبية. وقد علا وجهه الأسمر شارب أسود رقيق ولحية صغيرة متفرقة تتألف من بضع شعرات مسترخية على ذقنه. وكان شعره الأسود الطويل الممتلئ حياة يتدلى على كتفيه في جموح. وعلى الرغم من سمرته فقد بدا عليه أنه لم يغتسل منذ عهد قريب.

وكان رفيقاه على شاكلته ولكنهما قويان صامتان يكبرانه سنًّا، أحدهما ذو شارب رقيق كالخط الأسو ولكنه لم يكن ملتحيًا. والآخر ذو وجنتين ناعمتين وقد نبت له شعر أسود متفرق، يحدد معالم ذقنه في لحية تميز بها الهنود.

فراوغته قائلة في مزاح إلى حد ما: "من بعيد".

فتلقوا جوابها في صمت.

ثم سألها الشاب قائلًا بإصراره الهادئ: "ولكن أين تقيمين"؟

فردت قائلة في مرح: "في الشمال".

وعاد الصمت لحظة... ثم تحدث الشاب في هدوء إلى رفيقيه بالهندية. وفجأة سألها قائلًا في تحدٍّ وسطوة مشيرًا بسرعة إلى الطريق: "إلى أين تقصدين في هذا الطريق"؟

فأجابت المرأة قائلة في إيجاز: "إلى هنود الشيلشوي".

فنظر إليها الشاب، وكانت عيناه سوداوين يقظتين قاسيتين. فرأى على وجهها الهادئ النضر الكبير إلى حد ما في ضوء المساء القوي شبح ابتسامة خفيف تنبئ بالثقة. كما ظهرت أسفل عينيها النجلاوين الزرقاوين خطوط العناء المائلة إلى الزرقة وقد ارتسمت في عينيها وهي تخفض بصرها نحوها ثقة بقوة أنوثتها كانت مزيجًا من الطفولة والعنجهية. ولكن ثمة غيبوبة غريبة كانت تبدو أيضًا في عينيها.

ثم سألها الهندي قائلًا: "أوستد إس سنيورا؟ هل أنت سيدة"؟

فردت قائلة في رضا: "نعم. سيدة".

ــ "ولك أسرة"؟

فقالت: "أسرة تتألف من زوج وطفلين، غلام وصبية".

فالتفت الهندي إلى رفيقه وترجم له ما قالته محدِّثًا إياه في غمغمة أشبه برقرقة الماء الخفي. كان من الواضح أنهم في حيرة من أمرها.

وسألها الشاب قائلًا: "وأين زوجك"؟

فردت قائلة في مرح: "من يدري؟ لقد سافر في عمل لمدة أسبوع".

كانت عيناه السوداوان تراقبانها في دهاء. فإذا بها على الرغم من كل تعبها تبتسم ابتسامة خفيفة في فخر بمغامرتها وثقة بأنوثتها وسحر الجنون الذي سيطر عليها.

وسألها الهندي قائلًا: "وماذا تنشدين"؟

فردت قائلة: "أنشد زيارة هنود الشيلشوي، لأرى بيوتهم وأتعرف على آلهتهم".

فاستدار الشاب وأسرع بترجمة ما قالته ثم ساد صمت يكاد يشوبه الفزع. وكان الرجلان المتجهمان المتقدمان في العمر يرمقانها بنظرات جانبية غريبة من تحت قبعتيهما المزينتين، ثم قالا شيئًا للشاب بنبرات عميقة.

ولكن هذا الأخير ظل مترددًا. ثم استدار نحو المرأة قائلًا:

ــ "حسنًا! فلنذهب. ولكنا لن نستطيع الوصول قبل غد. فعلينا أن

نبيت الليلة في الطريق".

وسرعان ما انطلقوا في الطريق الحجري دون مزيد من اللغط. وأخذ الشاب يجري محاذيًا رأس حصانها بينما كان الآخران يركضان من خلفها. وتناول أحدهما عصًا غليظة أخذ يضرب بها حصانها من وقت لآخر ضربة مدوية على عجزه ليحثه على السير قُدُمًا، فيثب الحصان ويطيح بها إلى الخلف في سرجه مما كان يثير غضبها على الرغم من إعيائها.

فصاحت قائلة وهي تستدير في غضب نحو ذلك الرجل: "كفَّ عن هذا"!

فالتقت عيناها بعينيه السوداوين النجلاوين البراقتين ولأول مرة انهارت شجاعتها حقًّا. فلم تكن عينا الرجل في نظرها آدميتين ولم تنظر إليها كامرأة جميلة بيضاء. بل التمعتا بنظرة سوداء "لا إنسانية" كانت لا ترى فيها امرأة قط بل كأنما كانت في نظره شيئًا غريبًا لا تفسير له مستغلقًا على إدراكه ولكنه عدائي في نفس الوقت. فجلست في السرج متعجبة وقد عاودها إحساسها بأنها ماتت. ثم عاد فضرب حصانها الذي هزَّها هِزة قوية.

فتأجج في صدرها غضب المرأة البيضاء المدللة بكل ما فيه من عنف، فجذبت عِنان جوادها وأوقفته ثم التفتت بعينين تتقدان غضبًا إلى الرجل الواقف عند الشكيمة وصاحت قائلة: "قل لهذا الشخص ألا يلمس حصاني مرة أخرى". فالتقت عيناها بعيني الشاب فرأت

في غموضهما الأسود المتألق شررًا دقيقًا من السخرية كذلك الـذي يبـدو في عـين الحيَّة. فتحدث إلى رفيقه في المؤخرة في نبرات هندية خفيضة. وأنصت الرجل ذو العصا دون أن ينظر إليه. ثم أطلـق صـيحة غريبـة خفيـضة. ثـم أطلـق صـيحة غريبة خفيضة للحـصان وضربـه عـلى مـؤخره مـرة أخـرى فوثـب إلى الأمـام في الطريق الحجري بحركة تشنجية مبعثرًا الأحجار رافعًا المرأة المتعبة في مقعدها.

فطار الغضب إلى عينيها كالجنون وابيضَّ منخراها. وجذبت عنان جوادها في شراسة. ولكنها ما كادت تستدير نحوه حتى كان الشاب الهندي قد أمسك بعنان جوادها أسفل عنقه وجذبه إلى الأمام وهـو يعـدو مـسرعًا. فأُسـقط في يدها. وإذا بها تراودها إلى جانب غـضبها العـارم هـزة خفيفـة مـن الابتهـاج. فقد أدركت أنها ماتت.

كانت الشمس تميل إلى الغـروب وقـد فاضـت أشـجار الحـور الأخـيرة بضوء أصفر وهَّاج كان ينعكس على جذوع أشجار الصنوبر فتبدو أشواكه منتصبة لامعة وقد امتدت إلى الخارج في بهاء قـاتم كـما تألقَّـت الـصخور ببريق خارق. وخلال ذلك الـضياء أخـذ الهنـدي المحـاذي لـرأس الحـصان يواصل عدوه في غير عناء بينما تتأرجح عباءته السوداء وتتوهج في الـضوء القوي ساقاه العاريتان بحمرة غريبة وتتألق في زهوٍ قبعته المصنوعة مـن القش بكل ما ازدانت به من ريش وزهور فوق نهر شعره الأسود الطويل فبدت سخيفة إلى حد ما. وكن يطلق أحيانًا صيحة خفيـضة للحـصان ثـم

يهوي الهندي الآخر من الخلف على الحيوان بضربة من عصاه.

وتلاشى رويدًا ذلك الضوء العجيب فوق الجبال وبدأ الظلام يُرخي سدوله. وهبَّت عليهم نسمة باردة وأخذ هلال السماء يقاوم وهج الشمس في الغرب. وعلى الأرض سقطت ظلال ضخمة من المنحدرات الصخرية الوعرة. وكان الماء يندفع. ولكن المرأة لم تحس بشيء من ذلك سوى ما حلَّ بها من إعياء، إعياء لا يوصف، كما أحست بالريح الباردة التي أخذت تهب عليها من المرتفعات. لم ترَ كيف حلَّ ضوء القمر محل ضوء النهار. فقد حدث ذلك أثناء سفرها وقد أفقدها الإرهاق وعيها.

واصلوا السفر بضع ساعات على ضوء القمر. ثم توقفوا فجأة وتحادث الرجال لحظة في نبرات خفيضة.

فقال الشاب: "سنخيم هنا الليلة".

فانتظرت أن يعينها على النزول. ولكنه وقف ممسكًا بعنان الحصان فحسب. فأوشكت أن تسقط من فوق السرج من شدة الإعياء.

ووقع اختيارهم على مكان أسفل الصخور التي كانت لا تزال تبعث شيئًا من دفء الشمس. فقام أحدهم بقطع أغصان الصنوبر وأقام الآخر حواجز صغيرة من فروع الشجر على الصخور لحمايتهم، ووضع على الأرض أغصان البلسم الصنوبرية ليفترشوها كماضجع لهم. أما الثالث فقد أشعل نارًا صغيرة لتسخين كعك الذرة. وكان

ثلاثتهم يعملون في صمت.

وشربت المرأة بعض الماء. ولكنها لم تشأ أن تأكل... بل أرادت فقط أن تضطجع.

فسألتهم قائلة: "أين أنام"؟

فأشار الشاب إلى أحد المضاجع. فزحفت إلى الداخل حيث رقدت بلا حراك. ولم تعبأ بما قد يحدث لها فلشد ما كانت متعبة, ولشدَّ ما نأى بها ذلك عن كل اعتبار. ورأت الرجال الثلاثة من خلال أغصان التنُّوب وقد أقعوا حول النار وهم يمضغون كعك الذرة الذي كانوا يلتقطونه من الرماد بأصابعهم السوداء، ويشربون الماء من "قَرعة" وأخذوا يتحدثون في نبرات خفيضة متمتمة تتخلل أحاديثهم فترات طويلة من الصمت. وقد وضع سرجها وخُرجُها على الأرض غير بعيد من النار دون أن يفتحهما أو يمسسهما أحد. فلم يكترث الرجال لها أو لممتلكاتها. بل جلسوا القرفصاء هناك تعلو رءوسهم القبعات وهم يأكلون ويأكلون في آلية كالحيوانات وقد سقطت عباءاتهم السوداء، بحواشيها على الأرض من خلف ومن قدَّام، وتعرَّت سيقانهم السوداء القوية متربعة كسيقان الحيوانات وظهرت قمصانهم البيضاء القذرة ومآزرهم التي لم يكن يسترهم شيء سواها. أما عن اهتمامهم بها فلم يكن يزيد على ما يبدونه نحو قطعة من لحم الغزال عادوا بها من رحلة صيد وعلقوها داخل المأوى.

ثم ما لبثوا أن أطفأوا النار بعناية ودلفوا إلى الداخل. وأحسَّت

لحظة بالخوف والقلق وهي تراقبهم مـن خـلال سـتار الأغـصان عنـدما رأت أشباحهم السوداء تعبر المدخل وتمضي في هدوء. تُرى هل يهاجمونها الآن؟

ولكن لا! لقد بدوا وكأنهم قد سهوا عنها. كان حصانها مقيَّدًا. وأمكنهـا أن تسمعه وهو يحجل في إعياء. وساد السكون، سكون جبلي بارد ميت. فنامـت ثم استيقظت، ثم نامت دون أن تغيب عـن وعيهـا تمامًـا في خـدر مـن الـبرد والإعيـاء وكانـت ليلـة لـيلاء، طويلـة للغايـة بـاردة كـالثلج وأبديـة. ولم يفتـأ يخالجها شعور بأنها ماتت.

(2)

ولكنها ما إن أحست بحركة وسمعت صلصلة الصَّوَّان والصُّلب ورأت شبح رجل جاثم كالكلب فوق نار حمراء تصيتُ في غمغمة وهسيس حتى أدركت أنه مطلع النهار. عندئذ بدا لها أن الليل قد مضى مسرعًا للغاية.

وعندما تأججت النار خرجت من مأواها تراودها رغبة واحدة حقيقية في تناول قدح من القهوة هي كل ما تبقى لها من رغبات. وكان الرجال يُدفئون مزيدًا من كعك الذرة.

فسألتهم قائلة: "هل يمكن أن نُعدَّ قدحًا من القهوة"؟

فنظر إليها الشاب وخُيِّل لها أنها ترى في عينيه ذلك الشرر الدقيق الساخر. وهزَّ رأسه قائلًا: "نحن لا نشربها. وليس لدينا وقت لذلك".

وتطلع إليها الرجلان المتقدمان في السن وهما جالسان القرفصاء على عجزيهما في ذلك الفجر الشاحب المخيف وقد خلت عيونهما حتى من السخرية. خَلَت إلا من ذلك البريق اللاإنساني الحاد البعيد الذي لشدَّ ما كان يخيفها. كان الرجلان بعيدي المنال لا يسعهما مطلقًا أن ينظرا إليها كامرأة. وكأنها ليست امرأة. أو كأن بياض بشرتها

ربما ذهب بكل أنوثتها وتركها كأنثى النمل بيضاء عملاقة. هكـذا بـدت لهـما ولا شيء غير ذلك.

واعتلت السرج مرة أخرى قبل بزوغ الشمس ثم راحوا يصعدون المنحـدر الـوعر في الهـواء المـثلج. وأشرقـت الـشمس فلـم تلبـث أن أحـسَّت بـالحرارة الشديدة لتعرضها للضوء القوي العنيف في أماكن عارية مكـشوفة. وبـدا لهـا أنهم يصعدون إلى سقف العالم. وهناك في منأًى عن العالم بدت لهـم خطـوط من الثلج منعكسة على صفحة السماء.

وخلال ساعات الصباح بلغوا مكانًا عجز فيه الحصان عـن التقـدم. حيـث استراحوا قليلًا وكان يواجههم صخر حي بمسطحه الهائل المائل وقد بدا لامعًـا مصقولًا كصدر وحش من وحوش الأرض. كان عليهم أن يجتازوا ذلك الـصخر خلال شق مُقَلقل. فبدا لها أنهـا ظلـت تزحـف معذَّبـة عـلى يـديها وركبتيهـا سـاعات بطولهـا وهـي تنتقـل مـن شـقٍّ إلى فجـوة عـبر الـسطح المنحـدر لذلك الجبل الذي قُـدَّ مـن الـصخر الخـالص. ومـن أمامهـا ومـن خلفهـا سـار هنـديان بخطًـى وئيـدة وقـد انتـصبت قامتـاهما وارتـدى كلاهـما نعـلًا مـن الجلد المجدول. ولكنها لم تجسر عـلى الوقـوف منتـصبة القامـة وهـي تنتعـل حذاء الركوب. ولكنها لم تفتأ تتساءل طيلـة الوقـت عـما يـدعوها إلى الإصرار عـلى الزحـف عـبر تلـك المـسطحات الـصخرية والتـشبث بهـا وكـان طولهـا

يبلغ أحيانًا ميلًا كاملًا. لِمَ لا تلقي بنفسها وتنتهي من كل شيء؟! فقد كانت تشرف على العالم بأسره.

وعندما أشرفوا في النهاية على منحدر حجري نظرت خلفها فرأت الهندي الثالث قادمًا يحمل على ظهره خرجها وسرجها كلاهما معلَّق في حزام أحاط بجبهته وبيده قبعة وهو يخطو في بطء خطو الهنود الهادئ الوئيد الثقيل دون أن يتمايل في شقوق الصخر وكأنه يسير عبر خدش في دِرع الجبل الحديدي.

وكان المنحدر الحجري يؤدي إلى أسفل. فبدا الهنود وكأنهم قد استثارهم ذلك. فجرى أحدهم قدمًا في عدو بطيء مختفيًا عند المنحنى الحجري. وكان الطريق بعد انحنائه يتجه إلى أسفل حيث طالعهم أخيرًا في وهج الضحى تحت أبصارهم وادٍ تحيط به جدران من الصخر وكأنه خندق واسع محفور في الجبال. كن واديًا أخضر به نهر وأشجار ومجموعات من المنازل الخفيضة المستوية المتألقة. وهو صغير الحجم رائع الجمال على مهوى ثلاثة آلاف قدم تقريبًا. حتى الجسر المستوي فوق النهر والساحة التي تحف بها المنازل والمباني الكبيرة المكدسة على طرفيها المتقابلين والأشجار السامقة والمراعي ومساحات الذرة الصفراء الجافة وقطعان الغنم والماعز ذات اللون البني التي تُرى عن بعد فوق المنحدرات، والحظائر المسوَّرة بجانب النهر كانت... كلها تبدو صغيرة ساحرة رائعة الجمال

كـما يبـدو كـل شيء مـن فـوق الجبـال المطلـة عليـه. والغريـب أن البيـوت الخفيضة كانت تتلألأ بيضاء بطلائها الأبيض حتى بدت كبلورات من الملـح أو الفضة. فهالها ذلك.

وشرعوا في هبوطهم الحلزوني الطويل عند قمـة المنحـدر وهـم يتـابعون الجـدول الـذي كـان ينـدفع هاويًـا إلى أسـفل. وفي البدايـة وكانـت المنطقـة صخرية، ثم ظهرت بعد ذلك أشجار الصنوبر التي ما لبثـت أن حلـت محلهـا أشجار الحور بأغصانها الفضية. أما زهور الخريف ومنهـا مـا يـشبه الأقحـوان ومنها الزهور البيـضاء والعديـد مـن الزهـور الـصفراء فكانـت تنبـت بـوفرة. ولكنها لشدَّ ما نال منها الإعياء فاضطرت إلى الجلوس لتستريح. ورأت الزهـور النضرة المتألقة في غموض وكأنها أطياف شاحبة تهتز من حولها كما تبـدو بـلا شك لعيني الميت.

وأخيرًا بلغوا منطقة الحـشائش والمراعـي المنحـدرة يحـفُّ بهـا خلـيط مـن أشجار الحور والصنوبر. وثمة راعٍ عارٍ إلا من قبعته ومئزره القطني كان يـسوق غنمه البني بعيدًا في ضوء الشمس. وجلست هـي والهنـدي الـشاب في غيـضة من الأشجار ينتظران. أما الهندي حامل السرج فقد سبقهما إلى الأمام أيضًا.

وسمعا صوت أناس يتجهون نحوها. فـإذا بهـم ثلاثـة رجـال يرتـدون عبـاءات جميلـة اختلطـت فيهـا الألـوان الحمـراء والبرتقاليـة والـصفراء والسوداء وتعلو رؤوسهم أكاليل زاهية من الريش. أما كبيرهم فقد جُدل

شعره بالفراء واكتست عُباءته التي اختلطت فيها الألـوان الحمـراء والـصفراء والبرتقالية بعلامات سوداء غريبة مما جعلها أشبه بجلد الفهد. وأمـا الآخـران فلـم يَخـط المـشيب شـعرهما ولكـنهما كانـا متقـدمين في الـسن أيـضًا، وقـد تخططت عباءتهما ولكن إكليليهما لم يبلغا درجة كبيرة من الإتقان.

وتحدث الهندي الشاب إلى هؤلاء الكبار بكلمات قليلـة هادئـة. فأنـصتوا إليــه دون يحــيروا جوابًــا ودون أن ينظــروا إليــه أو إلى المــرأة بــل أشــاحوا بوجوههم بعيدًا وخفـضوا أبـصارهم إلى الأرض وأخـيرًا اسـتداروا نحـو المـرأة ونظروا إليها.

وكان الزعيم المُسن _أو رجل الطب كائنًا من كان_ ذا وجه بُرنـزي أسـود تعتوره الغضون وتخطه التجاعيد وقد أحاطت بفمـه بعـض شـعرات رماديـة متفرقة. كما تدلت عـلى كتفيـه جـديلتان طويلتـان رماديتـان ضُـفرتا بـالفراء والريش الملون.

ومع ذلك فلم يكن فيه مـا يلفـت النظـر سـوى عينيـه الـسوداوين فقـد كانت تنبعث منهما قوة نفاذة خارقة ولم يكن يتطرق إليه الشك في قـدرتهما الشيطانية التي لا تعرف الخوف. نظر في عينـي المـرأة البيـضاء نظـرة طويلـة نفاذة باحثًا عن شيء لا يدري كنهه. فاستجمعت كـل قواهـا لتلتقـي بعينيـه وتأخذ حذرها. ولكن ذلك لم يُجدها نفعًا. فإنه لم ينظـر إليهـا نظـرة مخلـوق بشري إلى آخر. ولم يلحظ قط مقاومتها أو تحديها بل كان يتجاوزهما بنظرتـه إلى شيء لا تدري كنهه.

وأدركت أنه لا أمل في الوصول إلى تفاهم بشري مع ذلك الكائن المسن. ثم استدار وقال بضع كلمات للشاب الهندي. فقال الشاب باللغة الإسبانية: "إنه يسألك عما تنشدين هنا"؟

ـ "أنا؟ لا شيء! جئت لأرى الحياة هنا فحسب".

فترجم له ذلك أيضًا. ثم أدار الرجل المُسن عينيه نحوها مرة أخرى. وتحدث إلى الشاب الهندي بلهجته الخفيضة المتمتمة.

وقال لها الشاب: "إنه يقول ولماذا تهجر بيتها حيث تعاشر الرجال البيض؟ هل تريد أن تحمل إله الرجل الأبيض إلى الشيلشوي"؟

فأجابت قائلة في تهور: "كلا. بل لقد هجرتُ إله الرجل الأبيض وجئت لأنشد إله الشيلشوي".

وما إن ترجم له ذلك حتى ساد صمت عميق. ثم تحدث الرجل المسن مرة أخرى في صوت ضعيف كما لو كان متعبًا.

وجاء السؤال: "وهل تنشد المرأة البيضاء آلهة الشيلشوي لأنها سئمت إلهها"؟

فردت قائلة: "نعم... لقد سئمت إله الرجل الأبيض".

وخُيِّل لها أن ذلك هو ما يريدون لها أن تقول... إنها تبغي أن تكون في خدمة آلهة الشيلشوي.

وما إن تُرجم جوابها حتى ساد صمت متوتر أحسَّت خلاله أن الهنود قد سرت بينهم هزة من النصر والابتهاج. ثم نظر إليها الجميع

بعيون سوداء نفَّاذة تألقت بنية قاسية طموع استغلقت على مداركها. ومما زاد في حيرتها أن نظرتهم خلت من الشهوة والجنس. بل لمعت بطهر مخيف يفوق إدراكها. وانتابها الخوف الذي كان يمكن أن يُشل قواها لولا أن شيئًا ما كان قد مات في داخل نفسها فلم تعد تملك سوى العجب البارد اليقظ.

وتحادث الرجلان المتقدِّمان في السن قليلًا ثم انصرفا وتركاها في صُحبة الشاب والزعيم المُسن. عندئذ نظر إليها الرجل المسن في شيء من القلق.

فقال الشاب الهندي: "سيجيئك الرجال بعربة".

وعندما جاءت العربة تبين أنها محفَّة تتألف من فراش صنع من نسيج صوفي أسود شُدَّ على عمود. وقد حمل العمود على كتفهما هنديان استرسل شعرهما. وبُسط على الفراش الصوفي على الأرض فجلست عليه ورفع الرجلان العمود إلى كتفيهما ثم حملاها وهي تتأرجح كأنها في جوال إلى خارج الغيضة في إثر الزعيم المسن الذي كانت عباءته المرقطة كجلد الفهد تتحرك على صورة غريبة في ضوء الشمس.

وأشرفوا على رأس الوادي حيث امتدت أمامهم تمامًا حقول الذرة التي نضجت فيها الكيزان. أما أعواد القمح فلم تكن على ذلك الارتفاع الشاهق بالغة الطول. ومن خلال حقول القمح امتد الممر الذي طالما وطئه الناس ولكنها لم تستطع أن ترى سوى هيكل

الزعيم المسن وقد انتصبت قامته في عباءته التي اختلط فيها السواد بلون اللهيب. وكان يخطو في هدوء وسرعة وقوة، وقد مال رأسه إلى الأمام لا ينظر يمينًا أو يسارًا بينما يتبعه حاملاها وهما يخطوان خطوًا موقعًا. وكان الرجل الذي يسير في المقدمة قد تهدل شعره على كتفيه العاريتين. أسود لامعًا ضاربًا إلى الزرقة ومسترسلًا كالنهر.

وعبروا حقول الذرة حتى بلغوا حائطًا كبيرًا أو سدًّا مبنيًّا من التراب والطوب اللَّبن. وقد فتحت أبوابه الخشبية. وما إن دلفوا إلى الداخل حتى وجدوا أنفسهم في شبكة من الحدائق الصغيرة المملوءة بالزهور والأعشاب وأشجار الفاكهة وكانت كل حديقة ترويها قناة صغيرة من الماء الجاري. ويقوم بين كل مجموعة من الأشجار والأزهار بيت صغير أبيض متلألئ خالٍ من النوافذ وقد أُوصد بابه. وكان المكان يتألف من شبكة من الممرات والجداول والجسور الصغيرة وسط حدائق مربعة مزهرة.

فساروا في أوسع الممرات... وكان طريقًا ضيقًا لينًا بين الأوراق والحشائش مهَّدته أجيال وأجيال من أقدام البشر. ولكنه لم يتعرض لعوامل التشويه من عجلات أو سنابك الخيل حتى بلغوا النهر الصغير الذي يتدفق ماؤه سريعًا متألقًا وعبروه فوق جسر صنع من الكتل الخشبية. وقد ران السكون على كل شيء... فلم يكن هناك مخلوق بشري واحد. وكان الطريق يمتد في ظل أشجار رائعة بديعة. ثم انتهى بهم فجأة إلى خارج الساحة المركزية أو ساحة القرية.

وكانت تلك الساحة على شكل مستطيل طويل من المنازل البيضاء الخفيضة ذوات السقوف المستوية كما كان هناك مبنيان كبيران على طرفي المستطيل يواجه كلاهما الآخر بانحراف ويتألف كل منهما من أكواخ مربعة طويلة تكدست فوقها أكواخ أخرى صغيرة أقل منها حجمًا. وكانت المنازل الصغيرة باهرة البياض فيما عدا أطراف الدعامات الخشبية الكبيرة المستديرة التي برزت من تحت أفاريز الأسطح المستوية وكذلك الأسطح المستوية ذاتها. وكان يحيط بكل من المبنيين الكبيرين من خارج الساحة سور كأسوار الحظائر يضم في داخله حديقة بها أشجار وأزهار ومنازل صغيرة متنوعة.

لم يُرَ أحد هناك. فمروا في صمت بين المنازل حتى بلغوا الساحة المركزية التي لشدَّ ما كانت عارية مُجدبة وقد مهدت الأرض أجيال لا حصر لها من أقدام المارة الذين كانوا يعبرونها من منزل إلى منزل. وكانت جميع أبواب المنازل الخالية من النوافذ تُشرف عل تلك الساحة العارية ولكنها كانت جميعها مغلقة. وقد وُضعت أكداس الحطب على مقربة من عتبات الدور كما كانت الأفران المبنية من الطين لا يزال ينبعث منها الدخان ولكن المكان خلا من كل أثر للحركة أو الحياة.

وسار الرجل المسن رأسًا عبر الساحة نحو المنزل الكبير القائم في الطرف حيث كان الطابقان العلويان يصغُر كل منهما عن الطابق

الذي في أسفله شأن منازل الدمى التي يبنيها الأطفال. وثمة درج حجري في الخارج كان يؤدي إلى سطح الطابق الأول.

وعند أسفل ذلك الدرج توقف حاملا المحفة وأنزلا المرأة إلى الأرض. وقال الشاب الهندي الذي يتكلم الإسبانية: "هيا اصعدي".

فصعدت الدرج الحجري حتى بلغت سطح المنزل الأول المبني بالطين وكن يصنع إفريزًا حول جدار الطابق الثاني. فسارت في أثر الهندي حول ذلك الإفريز حتى بلغت مؤخرة المنزل الكبير حيث هبطوا مرة أخرى إلى الحديقة الخلفية.

لم يلقوا أحدًا في طريقهم حتى تلك اللحظة. ولكن ظهر عندئذ رجلان عاريا الرأس وقد استرسل شعرهما المجدول وارتدى كل منهما قميصًا أبيض تجمع في مئزر. وانضم هذان الرجلان إلى الثلاثة القادمين عبر الحديقة حيث كانت أكمام الزهور الحمراء والصفراء تتفتح مشرقة. ثم أخذوا سبيلهم إلى منزل طويل أبيض خفيض. وهناك دلفوا إلى الداخل دون أن يطرقوا الباب.

وساد الظلام في الداخل حيث سُمعت تمتمة أصوات الرجال الخفيضة. وكان هناك رجال كثيرون بدت في الظلام قمصانهم البيضاء بينما اختفت وجوههم السوداء. كانوا يجلسون على كتلة كبيرة من الخشب القديم الأملس امتدت بمحاذاة الحائط البعيد. وفيما عدا تلك الكتلة الخشبية بدت الغرفة خاوية. ولكن لا. فقد

ظهرت عند طرف الغرفة في الظلام أريكـة عـلى شـكل فـراش اضـطجع عليهـا شخص ما ملتحفًا بالفراء.

عندئذ كان الهندي المسن ذو العباءة المرقطة الذي رافق المـرأة قـد خلـع قبعته وعباءته ونعليه ثم نحاها جانبًا، واقترب من الأريكـة حيـث تحـدث في صوت خفيض. ولم يُسمع جواب ما مـدة لحظـات. وإذا بـشيخ ابـيضّ شـعره وتدلى حول وجهه الذي بدا غامضًا في الظلام ينهض كالرؤيا من رقدته ويتكئ على أحـد مرفقيـه ثـم ينظـر في غمـوض إلى الجماعـة التـي سـادها الـصمت المتوتر.

ثم تكلم الهندي ذو الشعر الرمادي مـرة أخـرى وعندئـذ أمـسك الهنـدي الـشاب بيـد المـرأة وقادهـا إلى الأمـام. فوقفـت هنـاك في زي ركـوب الخيـل وحذائها الأسود وقبعتها ورباط عنقها الأحمر الصغير المثـير للـشفقة. وقفـت بجانب الفراش المغطى بالفراء حيث كـان الـشيخ الطـاعن في الـسن يـستوي منتصبًا وقد اتكأ على أحد مرفقيه غامضًا كالشبح كما استرسل شـعره الأبـيض في فوضى وكاد وجهه أن يكون أسود اللون، ولكنه كان مركّزًا على هدف بعيد لا يمت إلى هذا العالم بصلة. وقد مال إلى الأمام لينظر إليها.

كان وجهه طاعنًا في الـسن حتـى صـار كالزجـاج الأسـود وكانـت الشعرات القليلة البيضاء المجعدة النابتة على ذقنه وحـول شـفتيه لا يمكن أن تصدق العين وجودها. وقد تهدلت خصلات شـعره الطويلـة

البيضاء شعثاء بلا ضفائر على جانبي وجهه الزجاجي الأسود. وكانت عينا الزعيم الشيخ السوداوان أسفل حاجبيهما اللذين كانا في لون المسحوق الأبيض الباهت تنظران إليها وكأنهما ترمقانها من بعيدٍ بعيد بين الموتى وقد أبصرتا شيئًا لا تراه عين أخرى.

وأخيرًا فاه ببضع كلمات عميقة جوفاء وكأنه يخاطب الهواء المظلم. وترجم لها الشاب الهندي كلامه قائلًا: "إنه يسألك إن كنت تحملين قلبك لإله الشيلشوي"؟

فقالت بطريقة تلقائية: "قل له: نعم".

فساد الصمت فترة. ثم عاد الهندي الشيخ يتكلم وكأنه يخاطب الهواء. وانصرف أحد الحاضرين. وساد صمت كصمت الأبدية في الغرفة المعتمة التي لم يتسلل إليها الضوء إلا من خلال الباب المفتوح.

ونظرت المرأة حولها. فرأت أربعة رجال مسنين جالسين على كتلة الخشب بالقرب من الحائط في مواجهة الباب. كما كان يقف بالقرب من الباب رجلان آخران قويان لا يبدو عليهما انفعال ما. وكانوا جميعًا ذوي شعور طويلة يرتدون القمصان البيضاء التي تجمعت في مآزرهم وقد تعرت سيقانهم القوية السوداء وساد صمت كصمت الأبدية.

وأخيرًا عاد الرجل يحمل على ذراعه ملابس بيضاء وسوداء فتناولها الهندي الشاب ثم قدمها للمرأة قائلًا:

ـ "يجب أن تخلعي ملابسك وترتدي هذه".

فقالت: "إذا خرج الرجال جميعًا".

فقال في هدوء: "لن يؤذيك أحد".

فقالت: "لن أخلع ملابسي ما دمتم هنا أيها الرجال".

فنظر إلى الرجلين الواقفين بالباب. فتقدما بسرعة وأمسكا فجأة بذراعيها في قوة هائلة ولكن دون أن يُلحقا بها أذًى. ثم أقبل رجلان مُسنان وشقَّا حذاءها في مهارة غريبة بمدًى حادة ونزعا النعلين من قدميها ثم شقَّا ملابسها فسقطت عن جسدها. وما هي إلا لحظات قليلة حتى كانت تقف هناك بيضاء عارية. وتكلم الشيخ الجالس على الفراش فأداروها نحوه ليراها، وتكلم مرة أخرى فنزع الهندي الشاب المشابك والمشط من شعرها الأشقر الذي تهدَّل على كتفيها في خصلات متشابكة كالعناقيد.

ثم تكلم الشيخ مرة أخرى. فقادها الهندي إلى جانب الفراش. فإذا بالشيخ ذي الشعر الأبيض والوجه الزجاجي الأسود يبلل أنامله بفمه ويلمس ثدييها وجسدها ثم ظهرها برقة متناهية. وكانت تنتفض على صورة غريبة كلما انسحبت أنامله على بدنها وكأن الموت نفسه هو الذي يلمسها.

وتعجبت فيما يشبه الحزن لعدم إحساسها بالخجل وهي عارية.

فإنها لم تشعر إلا بالحزن والضياع. لأن أحدًا لم يُحس بالخجل. بل إن الكهول جميعًا قد توترت وجوههم السوداء بعاطفة أخرى عميقة حزينة استغلقت على إدراكها وحالت دون إحساسها بالاضطراب في حين علت النشوة وجه الهندي الشاب. أما هي فلم تشعر إلا بالغربة المطلقة وبفقدان السيطرة على نفسها وكأنها لا تملك جسدها.

وأعطوها الملابس الجديدة وتتألف من قميص أبيض طويل يبلغ الركبتين وثوب من قماش صوفي أزرق سميك مطرَّز بزهور بعضها قرمزي وبعضها أخضر اللون. وكان الثوب مثبتًا على كتف واحدة فقط ومحزومًا بوشاح مجدول من الصوف ذي اللونين الأسود والقرمزي.

وعندما تزَّيت على تلك الصورة اقتادوها بعيدًا وهي عارية القدمين إلى منزل صغير في الحديقة المسورة حيث أخبرها الهندي الشاب بأنه يمكنها أن تطلب ما تشاء. فطلبت ماء لتغتسل. فأحضره لها في جرَّة كما أحضر وعاء خشبيًّا طويلًا. ثم أوصد باب منزلها وتركها سجينة فيه. ولكن من خلال قضبان بوابة منزلها أمكنها أن ترى الزهور الحمراء في الحديقة وطائرًا مغردًا. ثم بلغ سمعها من سطح المنزل الكبير صوت طويل كئيب لقرع الطبول. كان نداؤها خارقًا مخيفًا. كما سمعت صوتًا مرتفعًا يهتف من فوق قمة المنزل بلغة غريبة في ترنيم بعيد خالٍ من العاطفة وهو يلقي خطبة ما أو يبلغ رسالة. فأنصتت إليه وكأنها بين الموتى.

ولكنها لشد ما كانت متعبة. فرقدت على مضجع من الجلود وجذبت فوقها "بطانية" من الصوف الأسود ثم نامت في استسلام تام.

وعندما استيقظت كان ذلك عند الغروب حين دخل عليها الشاب حاملًا صينية كالسلة تحوي طعامًا يتألف من كعك الذرة والزبد المزود بقطع من اللحم ولعله لحم الضأن، ومشروبًا يتكون من العسل وبعض ثمار البرقوق الطازجة. كما أحضر لها إكليلًا طويلًا للرأس يتألف من زهور حمراء وصفراء وينتهي عند الطرف بمجموعات من البراعم الزرقاء. ثم رشَّ الإكليل بالماء من إحدى الجرار وقدمه إليها بابتسامة. ولشد ما بدا رقيقًا مُنصفًا وقد ارتسمت على وجهه وعينيه السوداوين نظرة غريبة هي مزيج من النصر والنشوة فبعث ذلك في نفسها شيئًا من الخوف واختفى البريق من عينيه السوداوين بأهدابها السوداء المقوسة. وراح ينظر إليها وقد بدت عليه وقدة النشوة الغريبة الرقيقة التي لم تكن إنسانية تمامًا بل كانت لاشخصية على صورة مخيفة أشعرتها بالقلق.

قال في صوته الخفيض البطيء الرخيم الذي كان لا يفتأ يبدو متحفظًا وكأنه في حديث جانبي مع شخص آخر أو كأنه يَضنُّ بصوته أن يخرج إليها:

ــ "أتطلبين شيئًا"؟

فسألته قائلة: "هل سأظل سجينة هنا"؟

فقال في هدوء: "كلا. بل يمكنك غدًا أن تتنزهي في الحديقة".

كان لا يفارقه قط جزعه الغريب عليها واهتمامه بها.

قال وهو يقدم إليها قدحًا صغيرًا من الخزف: "أيعجبك هذا المشروب؟ إنه منعش للغاية".

فأخذت ترشف الشراب في فضول. وكان مصنوعًا من الأعشاب ومحلًّى بالعسل وقد تميز بنكهة غريبة باقية. وكان الشاب يراقبها في سرور.

قالت: "إنه غريب المذاق".

فرد عليها قائلًا دون أن تفارق عينيه السوداوين المركزتين عليها دائمًا نظرة النشوة الراضية: "إنه منعش للغاية". ثم انصرف وما لبثت أن انتابها الغثيان وأخذت تقيء في عنف وكأنها فقدت السيطرة على نفسها.

وبعد ذلك أحست بخدر شديد مهدِّئ يتسلل إليها وأحست بقوة في أطرفها المسترخية التي أثقلها الخدر. ورقدت على مضجعها تنصت إلى أصوات القرية وترقب السماء الضاربة إلى الصُّفرة وتشم رائحة الأَرز أو الصنوبر وهو يحترق. ولشد ما وضح لسمعها نباح الجراء وزحف أقدام بعيدة وتمتمة أصوات. ولشد ما تكشفت لها رائحة الدخان والزهور والمساء، ولشد ما وضح لها عن بعد لانهائي

ذلك النجم الوحيد الساطع وهو يتحرك فوق الشمس الغاربة فشعرت وكأن حواسها جميعًا قد انتشرت في الهواء مما جعلها تتبين صوت زهور المساء وهي تتفتح والصوت الحقيقي الجهير للسماوات عندما تتسابق أحزمة النطاق الجوي المترامية الأطراف وكأن المطر يُدَوِّي في الكون كالقيثارة أثناء صعوده وهبوطه.

كانت رهينة المحبسين، المنزل والحديق المسورة ولكنها لم تكد تبالي بذلك. ولم تدرك أنها لم ترَ امرأة قط إلا بعد مضي أيام. فلم تكن ترى سوى الرجال من كهول المنزل الكبير الذي خُيِّل لها أنه لا بد أن يكون معبدًا وأن الرجال كهنة فيه. فقد كانوا يتزينون دائمًا بالألوان الحمراء والبرتقالية والصفراء والسوداء ولا يفتأ يتسم سلوكهم بطابع الجهامة والشرود.

وكان يأتي لزياتها في منزلها أحيانًا رجل مسن يجلس معها في غرفتها في صمت مطبق فجميعهم فيما عدا ذلك الشاب، لا يتكلمون سوى الهندية. وكان الشيوخ يبتسمون لها ويجلسون معها ساعات بطولها ويبتسمون لها أحيانًا عندما تتكلم بالإسبانية ولكنهم لا يجيبونها مطلقًا إلا بتلك الابتسامة البطيئة التي تنبئ بالأريحية والخير كما كانوا يوحون لها بشعور من الجزع يكاد يكون أبويًّا. ولكنها كانت تلمح في عيونهم السوداء التي تتأملها بريقًا شرسًا رهيبًا لا يعرف الرحمة منزويًا في أعماقها. غير أنهم ما إن يحسوا بنظراتها حتى يخفوه في الحال خلف ابتساماتهم. ولكنها لمحته.

وكان لا يفتأ يحدوهم في معاملتهم إياها ما يخالج الكبار في معاملتهم للأطفال من جزع غريب ورقة بالغة لا ينبعان من أشخاصهم. ولكنها كانت تحس بشيء ما تحت ذلك القناع، شيء مخيف. حتى إنها كانت عندما ينصرف زائرها المسن بطريقته الأبوية الصامتة المتسللة تحس بصدمة من الخوف رغم أنها لم تكن تدري مصدر ذلك الخوف.

وكان الهندي الشاب يجلس إليها متحدثًا في حرية وكأنه يتوخَّى الصراحة التامة. ولكنها أحسَّت أنه هو أيضًا كان يخفي عنها الحقيقة. وربما كان لا يمكنه التعبير عنها. كان يرمقها بعينيه السوداوين النجلاوين فيما يشبه الإعزاز تخالطه مسحة من النشوة وكان صوته العذب الخدر البطيء يتعثر في إسبانيته البسيطة التي لا تلتزم القواعد. أخبرها بأنه حفيد ذلك الشيخ المُسن وأنه نجل الرجل ذي العباءة المرقطة وأنهما من الزعماء السياسيين الذين كانوا قبل مجيء الإسبان ملوكًا في قديم الزمان. أما هو نفسه فقد أقام في "مكسيكوسيتي" وفي الولايات المتحدة أيضًا. واشتغل ببناء الطرق في لوس أنجيلوس. بل إنه سافر حتى شيكاغو.

فسألته قائلة: "ألا تتكلم الإنجليزية إذن"؟

فرمقها بنظرة غريبة اختلط فيها الخداع بما في نفسه من صراع. ثم هزَّ رأسه دون أن يتكلم.

فسألته قائلة: "وماذا فعلت بشعرك الطويل عندما كنت في الولايات المتحدة؟ هل قصصته"؟

فهز رأسه مرة أخرى وقد ارتسمت في عينيه نظرة العذاب النفسي. وقال في صوت هادئ خفيض: "كلا. بل كنت أرتدي قبعة وأعصب رأسي بمنديل".

ثم لاذ بالصمت وكأنها ذكريات مؤلمة.

وسألته قائلة: "ألم يذهب غيرك من أبناء عشيرتك إلى الولايات المتحدة"؟

ـ "كلا. فلم يغترب سواي عن بلده زمنًا طويلًا. أما الآخرون فكانت إقامتهم هناك لا تتجاوز أسبوعًا واحدًا فهم لا يغتربون عن بلدهم لأن الشيوخ لا يسمحون لهم بذلك".

ـ "ولماذا ذهبت أنت"؟

ـ "هذه مشيئتهم، لأنني سأكون زعيمًا سياسيًّا".

كان حديثه لا تفارقه السذاجة التي تكاد تشبه صراحة الأطفال. ولكنها أحسَّت أن ذلك ربما كان من تأثير لغته الإسبانية. أو لعل الكلام كله في نظره لا حقيقة فيه. وعلى أية حال فقد أحست أنه يخفي عنها الحقيقة بأسرها.

كان يأتي ويجلس إليها طويلًا ـبل كان يثقل عليها أحيانًاـ وكأنه يريد أن يكون على مقربه منها. وسألته إن كان متزوجًا. فأجاب بالإيجاب... وأن له طفلين.

قالت: "أحب أن أرى طفليك".

ولكنه لم يجب إلا بتلك الابتسامة الحلوة التي تكاد تكون نشوى من تحت عينيه اللتين لا يكاد يتغير شرودهما الملُغز.

والغريب أنه كان يجلس إليها ساعات بطولها دون أن يبعث في نفسها قط إحساسًا بالذات أو إحساسًا بالجنس حتى بدا لها أنه عديم الجنس وهو جالس هناك غاية في الرقة والهدوء وقد حنى رأسه قليلًا إلى الأمام في خضوع واضح في حين تدفق شعره الأسود اللامع في عَذرية على كتفيه.

ولكنها ما إن تعيد النظر إليه وترى منكبيه العريضين القويين وحاجبيه الأسودين المستويين وأهدابه القصيرة السوداء العنيدة المقوَّسة التي تعلو عينيه المنكستين وخطَّ شاربه الفرائي الصغير فوق شفتيه الغليظتين السوداوين وذقنه القوي حتى تدرك أنه ذو ذكورة قوية مبهمة على صورة أخرى غامضة وما إن يُحس هو بأنها تراقبه حتى يرفع إليها بصره بسرعة وفي عينيه نظرة منزوية غامضة لا يلبث أن يحجبها بابتسامة حزينة إلى حد ما.

ومرت الأيام والأسابيع في نوع من الرضا الغامض. ولكنها كانت تقلق أحيانًا يراودها شعور بأنها فقدت السيطرة على نفسها وبأنها لم تعُد تملك زمام نفسها. بل كانت تحت سحر سيطرة أخرى. وكانت تمر بها أحيانًا لحظات من الرعب والفزع ولكن هؤلاء الهنود، كانوا

عندئذ يأتون إليهـا، ويجلـسون معهـا، ويفرضـون عليهـا مـن سـحرهم الـذي يتسلل إليها دون أن تحس بوجودهم الـصامت، وجـودهم الفيزيقـي القـوي الـصامت الخـالي مـن الجـنس. وكـان يبـدو لهـا أثنـاء جلوسـهم هنـاك أنهـم يجردونها من إرادتها ويتركونها مسلوبة الإرادة نهبًا لعـدم اكتراثهـا. ويحمـل إليها الشاب مشروبها المحلَّى الذي غالبًا ما يكون ذلك المشروب المقيئ ولكنها أحيانًا كان يحمل إليها أنواعًا أخرى فإذا بأطرافها الثقيلـة مليئـة بالخـدر وإذا بحواسها تبدو كأنها تطفو في الهواء منصتة صاغية. وأحضروا لها كلبـة صـغيرة أسمتها "فلورا". وخيل لها ذات مرة وقـد تخـدرت حواسـها أن تـسمع كلبتهـا وهي تحل في رحمها الدقيق حيث أخذت تتكون أجنتها. وفي يوم آخر أمكنها أن تسمع قعقة الأرض في دورانها فبدا ذلـك الـصوت وكأنـه دَوِي وتـرٍ هائـل عند انطلاق السهم.

ولكنها ما إن شعرت بالبرد عندما صارت الأيـام قـصيرة بـاردة حتـى أخـذ يراودهــا أحيانًــا انتعــاش فجــائي في إرادتهــا تحــدوها الرغبــة في الخــروج وفي الرحيل. وألحَّت على الشاب في طلب الخروج.

فسمحوا لها ذات يـوم بالـصعود إلى أعـلى سـطح في المنـزل الكبـير الذي كانت تقيم فيه حيث أطلَّـت عـلى الـساحة. وكـان يـوم الرقـصة الكبرى، ولكـن الجميـع لم يـشتركوا في الـرقص. فقـد وقفـت النـساء في مداخل الدُّور يراقبن الرقص وقد حملن أطفالهن بـين أيـديهن. ووقـف

في الجهة المقابلة عند الطرف الآخر من الساحة أمام المنزل الكبير حشد من الناس كما وقفت جماعة صغيرة متألقة على إفريز السطح في أعلى الطابق الأول أمام أبواب الطابق العلوي التي فتحت على مصاريعها. ومن خلال تلك الأبواب المفتوحة على سعتها أمكنها أن ترى النار تلمع في الظلام وأن ترى الكهنة وهم يتحركون هنا وهناك بأكاليلهم التي اختلط فيها الريش الأسود والأصفر والقرمزي وعباءاتهم الشبيهة بالأردية التي تألقت ألوانها السوداء والحمراء والصفراء وطالت حواشيها الخضراء. وثمة طبلة كبيرة كانت تقرع في بطء وانتظام وسط السكون الهندي الكثيف. في حين وقف الحشد في أسفل منتظرًا.

ثم بدأ يرتفع قرع الطبول وعندئذ انطلقت أصوات الرجال قوية عميقة وهم ينشدون لحنًا همجيًّا ثقيلًا كزئير الريح في غابة أزلية. وكان المنشدون عددًا كبيرًا من الراشدين وقد أخذوا يغنون في نفس واحد كالريح وخرجت من تحت المنزل الكبير صفوف طويلة من الراقصين، وقد تعرَّت أجسادهم البرنزية المذهبة، وتدفقت شعورهم السوداء، وعلت سواعدهم خصلات من الريش الأحمر والأصفر، وارتدوا مآزر بيضاء خشنة، وأحاطوا خصورهم بأحزمة عريضة مطرزة بالحمرة والخضرة والسواد. كانوا يميلون قليلًا إلى الأمام وهم يضربون الأرض بأقدامهم على إيقاع رقصهم الرتيب الذي استغرقوا فيه. وقد تدلى من أحزمتهم في الخلف فراء الثعلب

الجميل معلَّقًا من أنفه وهو يتأرجح موحيًا بـالترف والرفاهيـة في حـين أخـذ طرف ذنبه يتلوَّى فوق أعقاب الراقصين. وكان كل رجـل تـرقص خلفـه امـرأة وضعت على رأسها إكليلًا غريبًا متقنًا من الريش ومحار البحر وتزيـت بثـوب أسود قصير. وكانت المرأة تتحرك منتصبة القامة ممسكة بخصلات من الريش في كلتـا يـديها وهـي تهـز معـصميها بحركـة موقعـة وتـضرب الأرض في رقـة بقدميها العاريتين.

وهكذا أخذ صفُّ الراقصين الطويل ينتشر قادمًا من المنزل الكبير المواجـه لها. ومن أسفل منزلها الكبـير انبعثـت رائحـة البخـور الغريبـة وسـاد صـمت غريب متوتر ثم انطلقت فجأة عقائر الرجال مجيبة الغناء في صوت لاإنساني وانبثَّ صف آخر طويل من الراقصين.

واستمر الحال على هذا المنوال طيلة النهار فالطبول تُلحُّ في قرعهـا وغنـاء الرجال الكهفي الزائر العاصف لا ينقطع وجلود الثعالب لا تفتأ تهتـز خلـف سيقان الرجال القوية البرنزية المذهبة وهي تـضرب الأرض وشـمس الخريـف في سمائها الزرقاء الصافية تصب أشعتها على أنهار من الشعر الأسود والـوادي بأسره يرين عليـه الـسكون، وفـيما وراءه جـدران الـصخر والجبـل بـضخامته الهائلة الرهيبة وقد انعكس على صفحة السماء الصافية وفي أعلاه يفور الثلج ببياضه الناصع.

ظلت تراقب ذلك المنظر ساعات وساعات مـأخوذة بـه وكأنهـا مخدرة وأخيراً بدا لها أثنـاء قـرع الطبـول الملِّـح عـلى تلـك الـصورة

المخيفة والغناء البدائي العميق المتدافع والوقع اللانهائي لأقدام الراقصين من الرجال بأذنابهم الثعلبية وخطْو النساء الثقيل بقاماتهن المنتصبة كالطيور وثيابهن السوداء، بدا لها أنها تحس بموتها وتلاشيها. وكأنها لا بد أن تمحى من حقل الحياة مرة أخرى. كما بدا لها أنها تقرأ من جديد في تلك الرموز الغريبة الشامخة فوق رءوس النساء اللائي لا يتغيرن وقد استغرقن في الرقص mene mene tehcl Upharcin أما أنوثتها التي لشد ما كانت فردية شخصية فكان لا بد لها من أن تمحى مرة أخرى، وأن ترتفع من جديد تلك الرموز البدائية العظيمة، فوق استقلال المرأة الفردي المنهار. كان لا بد من القضاء مرة أخرى على الحساسية المرهفة عند المرأة البيضاء الراقية ووعيها العصبي المختلج. كان لا بد أن يُلقى بالأنوثة مرة أخرى في ذلك التيار الهائل الكبير الذي يتدفق باللاشخصية في الجنس والحب. ومن الغريب أنها رأت أنهم يعدُّون العُدَّة للقيام بتلك التضحية الضخمة وكأنها أوتيت بصيرة نفاذة. ثم عادت إلى منزلها الصغير وهي في غيبوبة النزع الأخير.

ومنذ ذلك اليوم كانت لا تفتأ تحس بحشرجة الموت كلما سمعت قرع الطبول في المساء وصوت الرجال الهمجي الغريب المرتفع وهم يغنون حول الطبول وكأنهم مخلوقات متوحشة تعوي في دعاء لآلهة القمر الخفية والشمس المتلاشية. كان في غنائهم شيء من صيحة الذئب الأمريكي الضاحكة الباكية، وشيء من ضُباح الثعلب المتهلل

وعواء الـذئب عـن بعـد في نـشوة حزينـة جامحـة وصرخـة البيومـا[3] الأليمـة المعذبة، وإصرار الـذكر البـشري القـديم في همجيتـه بمـا يميـزه مـن لحظـات الضعف ووحشيته الباقية.

وكانت أحيانًا تصعد إلى الـسطح المرتفـع بعـد هبـوط الليـل وتنـصت إلى جماعة من الشبان التفُّوا في ظلمة المساء حول طبلة فـوق الجـسر فـيما وراء الساحة تمامًا حيث يواصلون الغناء ساعات بطولها. وأحيانًا ترى نارًا مـشتعلة وفي وهجهـا يـرقص الرجـال كالأشـباح بقمـصانهم البيـضاء أو عرايـا إلا مـن مآزرهم وهم يـضربون الأرض بأقـدامهم سـاعة بعـد أخـرى في الهـواء البـارد المعتم داخل وهج النار حيث لا يفتؤون يرقـصون ويـضربون الأرض كـدجاج الهنـد. أو يـسقطون عـلى الأرض جالـسين القرفـصاء بـالقرب مـن النـار طلبًـا للراحة وقد ألقوا عباءاتهم من حولهم.

وسألت الهندي الشاب قائلة: "لماذا ترتدون جميعًـا نفـس الألـوان؟ لمـاذا تضعون جميعًا الألوان الحمراء والصفراء والسوداء عـلى قمـصانكم البيـضاء؟ ولماذا ترتدي النساء القمصان السوداء"؟

فنظـر في عينيهـا في فـضول وقـد علـت وجهـه تلـك الابتـسامة الخفيفـة المراوغة. ولكنها كانت تخفي وراءها خبثًا رقيقًا غريبًا.

ثم قال: "لأن رجالنا يمثلون النار والنهار. والنساء يمثلن ما بين نجوم الليل من فراغات".

---

[3] البيوما: حيوان أمريكي من فصيلة الفهد.

فقالت: "ألا تمثل النساء حتى النجوم"؟

ــ "كلا. فنحن نعتقد أن النساء يمثلن الفراغات التي تفصل بين النجوم".

ثم رماها بنظرة غريبة ولمعت في عينيه مسحة الهزء والسخرية.

قال: "إن الجنس الأبيض لا يعرف شيئًا. فهم كالأطفال لا تفارقهم اللعب. أما نحن فنعرف الشمس والقمر. كما نعتقد أن آلهتنا عندما تضحي المرأة البيضاء بنفسها من أجلها تأخذ في خلق العالم من جديد وتتحطم آلهة الرجل الأبيض".

فأسرعت تسأله قائلة: "وكيف تضحي بنفسها"؟

واستدرك هو نفسه بسرعة واستخفى بابتسامة ماكرة.

ثم قال مهدئًا من روعها: "تضحي بآلهتها وتلوذ بآلهتنا. هذا هو ما أعنيه".

ولكنها لم تطمئن. فأحست في قلبها بألم مثلج من الخوف واليقين.

واستطرد قائلًا: "إن الشمس تقيم في أحد طرفي السماء وفي طرفها الآخر يقيم القمر. ومن واجب الرجل أن يجعل الشمس طيلة الوقت سعيدة في مقرها من السماء، ومن واجب المرأة أن تجعل القمر هادئًا في مستقره منها. عليها أن تعمل دوامًا على تحقيق ذلك الهدف. ولا يمكن مطلقًا أن تدخل الشمس بيت القمر في السماء.

وكذلك لا يمكن أبدًا أن يدخل القمر بيت الشمس. ولذا فإن المرأة تطلب إلى القمر أن يدخل كهفها في جوفها. كما أن الرجل لا يفتأ يجذب الشمس إلى أسفل حتى تصير له قوة الشمس. ولهذا تدخل الشمس كهف القمر عندما ينال الرجل امرأة وهكذا يبدأ كل شيء في الوجود...".

أنصتت إليه وهي تراقبه عن كثب كما تراقب عدوًّا ينطوي كلامه على معنًى مزدوج.

ثم قالت: "إذن فلم لا تكون لكم أيها الهنود السيادة على الجنس الأبيض"؟

فقال: "لأن الرجل الهندي قد ضعف وتخاذل وفقد سيطرته على الشمس فسرقها منه الرجل الأبيض. ولكنه لا يمكنه أن يحتفظ بها... فهو لا يعرف السبيل إلى ذلك. لقد فاز بها ولكنه لا يدري ماذا يفعل بها، كالصبي الذي يمسك بدبٍّ سنجابي كبير ولكنه لا يقوى على قتله أو الفرار منه. فالرجال البيض لا يدرون ماذا يفعلون بالشمس، والنساء البيضاوات لا يدرين ماذا يفعلن بالقمر. فيغضب القمر على النساء البيضاوات كما تغضب البيوما عندما يقتل أحد صغارها. ويعض القمر النساء البيضاوات، هنا في جوفهن". ثم ضغط على أحد جنبيه وأردف قائلًا: "فالقمر غاضب في كهف المرأة البيضاء. والهندي يمكنه أن يرى ذلك". ثم استطرد قائلًا: "ولن تلبث الهنديات

أن يستعدن القمر ويحتفظن به هادئًا في مأواهن. ويستولي الهنود على الشمس فيفرضون سلطانهم على العالم أجمع. إن الرجال البيض لا يعرفون كُنه الشمس. ولن يعرفوا ذلك أبدًا".

ثم استغرق في صمت غريب متهلل.

وتلعثمت قائلة: "ولكن لم تمقتوننا على هذه الصورة؟ لماذا تكرهني"؟

فرفع بصره فجأة وقد أشرق وجهه بالنور واندلع منه لهيب ابتسامة مفزعة. ثم قال في رقة وهو ينظر في وجهها ببريق غريب:

ـ "كلا. نحن لا نكره أحدًا".

فقالت حزينة يائسة: "بل تكرهون".

وبعد لحظة من الصمت نهض وانصرف.

(3)

عندئذ حلَّ الشتاء في الوادي المرتفع وتـساقط معـه الـثلج الـذي كـان يذوب في شمس النهار وأقبلت ليالي الزمهرير. وواصلت المـرأة حياتهـا في نوع من الذهول يخالجها إحساس بأن قواها تفارقها رويـدًا رويـدًا وكـأن إرادتها تبارحها. كان لا يفتأ يراودها شعور بالاسترخاء والارتباك والتضحية ما لم يخدِّر عقلهـا ذلـك المـشروب المحـلَّى مـن عـصير الأعـشاب ويطلـق العنان لحواسها في حدة روحانية فتحس بأنها تنتشر في لذة داخل الإطـار الكوني المنسجم. وفي النهاية لم تعُد تتعرف على نفـسها حقًّـا إلا وهـي في تلك الحالة من الوعي عندما يراودها ذلك الإحساس اللذيـذ بأنهـا تنـزف دمًا داخل إطار الجمال والانسجام الكوني الأعلى. عندئذ كان يمكنها فعـلًا أن تسمع من خلال الباب نجوى الكواكب العديدة التي تراها منثـورة في السماء وهي تخاطب الكون بلغـة الكـمال أثنـاء حركتهـا ولمعانهـا وتطـأ أديم الـسماء كـالأجراس في تموجـات رائعـة يـسابق بعـضها الـبعض، ثـم تتجمع في رقصة أزلية تفصلها فراغـات مـن الظـلام. كـما كـان يمكنهـا أن تسمع صوت الثلج في يوم بارد ملبَّد بالغيوم وهو يغـرد ويُـصفر بـصوت خافت في السماء كـالطيور التـي تتجمـع وتطـير بعيـدًا في الخريـف، ثـم

يرفع عقيرته فجأة مودعًا القمر الخفي وينسل مبارحًا السهول الهوائية فيشيع فيها الدفء والطمأنينة. كانت هي نفسها تدعو الثلج المعلق في طبقات الهواء العليا أن يتساقط وتدعو القمر الخفي أن تهدأ ثائرته وأن يعقد الصلح من جديد مع الشمس الخفية كما تصفو المرأة في بيتها. بل كانت تشم عبير القمر وهو يسترخي نحو الشمس في سماء الشتاء عندما يتساقط الثلج في رفق واهن بارد معطَّر بينما يعود الصفاء بين الشمس والقمر ويمتزجان في تآلف وانسجام.

كانت تحس بتلك الكآبة التي تغشى هنود الوادي، ذلك الحزن العميق الزاهد المتقشف الذي يكاد يكون دينيًّا في منبته.

قال لها الهندي الشاب وهو ينظر في عينيها نظرة ذات مغزًى بعيد:

ــ "لقد فقدنا سيطرتنا على الشمس ونحن نحاول أن نستردها. ولكنها ثائرة علينا مستنفرة كالحصان الجامح. فعلينا أن نعاني كثيرًا".

فردت قائلة وكأنها مسحورة: " آمل أن تستردُّوها".

فلاحت على وجهه ابتسامة نصر.

وقال: "هل تأملين ذلك"؟

فأجابت قائلة كالقدر المحتوم: "نعم".

فقال: "إذن حسنًا، فهي لنا".

وانصرف متهللًا مسرورًا.

أحسَّت أنها منساقة نحو غاية مرموقة لا قدرة لها على تجنبها ولكنها بدت لها في النهاية ثقيلة مخيفة.

كان ذلك بلا ريب قرابة شهر ديسمبر فقد كانت الأيام قصيرة عندما اقتادوها مرة أخرى لتقف أمام الشيخ عارية من ملابسها لتلمسها أنامله الهَرِمة.

نظر الزعيم الشيخ في عينيها وقد تركزت في عينيه نظرة منعزلة بعيدة سوداء ثم تمتم لها بشيء ما.

وترجم لها الشاب عبارته مبينًا لها الحركة التي يجب أن تأتيها قائلًا:

ــ "إنه يريد أن ترسمي علامة السلام والوداع".

وقد سحرتها عينا الزعيم الشيخ السوداوان الزجاجيتان المركزتان اللتان كانتا تراقبانها في ثبات كعيني ملك الأفاعي فتقهران إرادتها. كما رأت في أعماقها أيضًا حنانًا أبويًّا واستعطافًا. وضعت يدها أمام وجهها بالطريقة المطلوبة ورسمت علامة السلام والوداع. فرد عليها مرة أخرى برسم علامة السلام ثم غاص بين وسائده الفرائية وخيل لها أنه سيموت وأنه يعلم ذلك.

وأعقب ذلك يوم احتفال فأخرجت أمام الناس جميعًا في عباءة زرقاء ذات حاشية بيضاء ممسكة بين يديها بريش أزرق. وتطيبت بالبخور أمام

الهيكل في أحد المنزلين ورُشت بالرماد. كما عاد فأطلق عليها البخور أمام الهيكل في المنزل المواجه كهنة مخيفون في ملابس زاهية تختلط فيها الألوان الصفراء والقرمزية والسوداء وقد اصطبغت وجوههم بطلاء أحمر قرمزي، ثم ألقوا عليها الماء. وفي تلك الأثناء كانت تحس إحساسًا غامضًا بالنار التي تعلو الهيكل وبقرع الطبول الكئيب الثقيل، وبصوت الرجال الحزين وقد رفعوا عقيرتهم بالغناء في قوة وعمق ووحشية وبالوجوه الحاشدة في الساحة في أسفل وهي تتمايل وبتشكيلات الرقصة المقدسة.

ولكن وعيها العادي عندئذ كان مخدَّرًا فكانت تحس بكل ما يحيط بها مباشرة وكأنه أطياف تكاد تخلو من المادة، غير أنها استطاعت بحواسها التي لشد ما أرهقت أن تسمع صوت الأرض وهي طائرة في رحلتها كالسهم المنطلق وحفيف الهواء في تموجات وطنين الوتر الهائل الكبير. وخُيل لها أن في طبقات الجو العليا سلطتين عظيمتين إحداهما ذهبية تجاه الشمس والأخرى فضية غير مرئية. تتجه الأولى كالمطر الصاعد إلى الوجود الذهبي نحو الشمس وتتجه الثانية كالمطر الهابط بلونه الفضي على سلم الفضاء نحو السحب المحلقة في تحفز فوق قمة الجبل الثلجية. ويقوم بينها وجود آخر ينتظر أن ينفض عن نفسه البلل والثلج الأبيض الثقيل الذي تجمع حوله في غموض. وفي الصيف ينتظر كالنسر المسفوع ليتخلص من عبء أشعة الشمس الثقيلة. وكان في لون النار. وهو لا يفتأ ينفض عن نفسه الثلج أو الحرارة الثقيلة كالنسر الذي يهز نفسه في نشاط.

وثمة وجود آخر غريب يقف مراقبًا عن بعد الفضاء الأزرق حيث لا يفتأ يراقب. وكان أحيانًا يرتطم بالريح أو يتألق في موجات الحرارة. في حين تبدو الريح الزرقاء نفسها وكأنها تندفع من خلال الثقوب إلى جوف السماء. ثم تندفع هابطة من السماء إلى الأرض. إنها الريح الزرقاء وهي تقوم بدور الوسيط والشبح الخفي الذي ينتمي إلى عالمين ويعبث بأوتار المطر الصاعدة والهابطة.

كان وعيها العادي الشخصي لا يفتأ يزايلها رويدًا رويدًا ولا تفتأ تدخل في ذلك الوعي الكوني العاطفي الآخر كما لو كانت مخدرة. فقد أخضعها الهنود لرؤاهم بطبائعهم الدينية المسرفة.

ولكنها سألت الهندي الشاب سؤالًا شخصيًّا واحدًا قائلة:

ـ "لم لا يرتدي اللون الأزرق أحد سواي"؟

ـ "إنه لون الريح. لون الشيء الذي يولِّي بعيدًا ولن يعود. ولكنه لا يفتأ يقيم هنا بيننا دائمًا كالموت. إنه لون الموتى كما أنه يقف بعيدًا حيث ينظر إلينا من بُعد ولا يستطيع الاقتراب منا. ولا نكاد نقترب منه حتى يبتعد. فلا يمكنه أن يكون قريبًا. أما نحن جميعًا فلوننا الأصفر والبني، وشعرنا أسود وأسناننا بيضاء ودمنا أحمر. فنحن الباقون هنا. أما أنتم ذوو العيون الزرقاء فإنكم الرسل القادمون من بعيد ولا يمكنكم البقاء هنا. وقد حان الوقت لعودتكم".

فسألته قائلة: "إلى أين"؟

ـ "إلى الأشياء البعيدة كالشمس وأم المطر الزرقاء لتخبروها بأننا الشعب الذي سوف يسود العالم مرة أخرى وأننا نستطيع أن نحمل الشمس إلى القمر مرة أخرى كما نحمل الجواد الأحمر إلى الفرسة الزرقاء إننا ذلك الشعب. فقد أبعدت النساء البيضاوات القمر في السماء ولم يسمحن له بالاقتراب من الشمس. ولذلك فإن الشمس غاضبة. والهندي مُطالب بأن يهب القمر للشمس".

فقالت: "وكيف"؟

ـــ "إن المرأة البيضاء لا بد أن تموت وتذهب كالريح إلى الشمس لتخبرها بأن الهنود سوف يفتحون لها الباب. وأن الهنديات سيفتحن الباب للقمر. فالنساء البيضاوات لا يسمحن للقمر بالهبوط من مرجانه الأزرق. في حين أنه كان يهبط بين الهنديات كالشاة البيضاء بين الزهور والشمس تبغي أن تهبط بين الهنود كما يهوي النسر على أشجار الصنوبر. ولكنها محتجبة خلف الرجل الأبيض كما احتجب القمر خلف المرأة البيضاء ولا يمكنهما الهرب. فاستبد بهم الغضب كما غضب كل شيء في الوجود. ويقول الهندي إنه سيهب المرأة البيضاء للشمس فتثب الشمس من فوق الرجل الأبيض عائدة إلى الهندي. أما القمر فستنتابه الدهشة عندما يرى الباب مفتوحًا ولن يدري أين يذهب. ولكن المرأة الهندية سوف تدعوه قائلة: "أقبل! أقبل! عُد إلى أرضي الخضراء. فلن تستطيع المرأة البيضاء الخبيثة

أن تعود إلى إيذائك". ثم تطل الشمس من فوق رءوس الرجال البيض فترى القمر وتخف مسرعة إلى الهنود من خلال أشجار التنُّوب. وهكذا تكون الشمس عن يميننا والقمر عن يسارنا نحن الباقين هنا ذوي الألوان الحمراء والسوداء والصفراء. فيمكننا أن نُسقط المطر من المراعي الزرقاء ونرفعه إلى أعلى من المراعي السوداء. كما يمكننا أن ندعوَ الريح لتأمر القمح بالنمو عندما نطلب إليها ذلك. وبأمرنا ينشق السحاب وتضع الشاة توأمين. ونمتلئ قوة كأيام الربيع. أما الشعب الأبيض فإنه سيكون شتاء قاسيًا بلا ثلج...".

فقالت المرأة البيضاء: "ولكنني لا أحجب القمر، فكيف يمكنني ذلك"؟

فقال: "نعم فأنت تغلقين الباب دونه ثم تضحكين وتعتقدين أن كل شيء رهن بمشيئتك".

ولم تستطع قط أن تفهم نظرته إليها. فلشد ما كان رفيقًا بها دائمًا على صورة غريبة ولشد ما رقَّت ابتسامته. ولكن ثمة بريقًا خاطفًا أخذ يتلألأ في عينيه. ونضحت كلماته بكراهية لا تلين، كراهية غريبة عميقة غير نابعة من شخصه. فقد وثقت أنه كان يحبها شخصيًّا، لحَدبه عليها وانجذابه إليها على صورة غريبة رقيقة هادئة. ولكن كراهيته إياها لم تكن شخصية بل روحانية _فكان يبتسم لها في إغراء_ ولكنها لو التفتت إليه في اللحظ التالية على حين غرة لرأت في عينيه وميض الكراهية الخالصة.

سألته قائلة: "هل يجب أن أموت وأقدم قربانًا للشمس"؟

فقال، وهو يضحك مراوغًا: "في وقت ما. في وقتٍ ما كلنا سنموت".

كانوا يعاملونها برقة. ولشد ما كانوا يحافظون على شعورها. والغريب أن الكهنة المسنين والزعيم الشاب كانوا على السواء كالنساء يسهرون على راحتها ويشملونها بعطفهم. فقد كان إدراكهم الرقيق الماكر يتميز بطابع نسوي إلى حد ما. أما عيونهم ببريقها الغريب وأفواههم المظلمة المطبقة التي إذا ما فتحت كشفت عن فك عريض وأسنان صغيرة قوية بيضاء فلشد ما كانت تتميز برجولة بدائية وقسوة فطرية.

وفي أحد أيام الشتاء وكان الثلج يتساقط، اقتادوها إلى غرفة فسيحة مظلمة في المنزل الكبير وكانت النار مشتعلة في إحدى زواياها على منصة مرتفعة أسفل مظلة من اللبِن. فرأت في وهج النار أجساد الكهنة أنصاف العراة كما رأت على سقف الغرفة وجدرانها رموزًا غريبة. وكانت الغرفة خالية من الأبواب والنوافذ فقد هبطوا إليها عن طريق سلم من السطح. وكانت نار الخشب العزيزي لا تفتأ ترقص كاشفة عن جدران مطلية برموز غريبة استغلقت على إدركها وسقف من الأعمدة كان يتكون منها زخرف غريب يتألف من الألوان السوداء والحمراء والصفراء. وتجاويف على شكل مشكاة أودعت فيها أشياء غريبة لم تستطع أن تتبينها.

وكان شيوخ الكهنة بالقرب من النار يؤدون بعض الطقوس في صمت هندي عميق. وقد جلست هي في مواجهة النار على بروز منخفض في الحائط وبجانبها رجلان ما لبثا أن قدَّما لها مشروبًا في قدح تناولته في سرور لأنها توقعت أن يجعلها في شبه غيبوبة.

ولشد ما أحست بكل ما يحدث لها وهي غارقة في الظلام والصمت، كيف نزعوا عنها ملابسها وأوقفوها أمام رمز ضخم غريب نُقِش على الحائط بالألوان الزرقاء والبيضاء والسوداء، وكيف غسلوا جسدها كله بالماء ومنقوع "الآمول amole" بل غسلوا شعرها أيضًا في رفق وعناية ثم جففوه بأقمشة بيضاء حتى صار لينًا لامعًا. وكيف أرقدوها على مضجع أسفل صورة كبيرة لا سبيل إلى حلِّ رموزها ملونة بالحُمرة والصُّفرة والسواد ثم ضمخوا جسدها كله بزيت طيِّب الرائحة ودلكوا جميع أطرافها وظهرها وجنبيها دَلْكًا طويلًا غريبًا منوِّمًا. فقد أوتيت أيديهم السمراء قوة خارقة، ولانت في نفس الوقت كالماء على صورة لم تستطع إدراكها. ورأت أن الوجوه السمراء المائلة إلى الأمام بالقرب من جسدها الأبيض قد اشتدت قتامتها بصبغة حمراء وخطوط صفراء حول الوجنتين كما تألقت العيون السوداء في استغراق بينما لم تفتأ الأيدي تعمل في الجسد الأبيض الرقيق.

لشد ما ارتفعوا عن أشخاصهم واستغرقوا فيما وراء وجودها. فقد أمكنها أن تتبين أنها لم تكن في نظرهم امرأة قط بل رمزًا روحانيًّا

ووسـيلة لنقـل عواطـف لا يـصل إليهـا إدراكهـا. وكانـت وهـي في حـال مـن الغيبوبة تراقب وجوههم الـسمراء المنحنيـة فوقهـا وقـد لمعـت عـلى صـورة غريبة بطلائها الأحمـر الـشفاف واكتـست بخطـوط صـفراء. وفي وسـط ذلـك القناع الحي الغريب الأسمر المضيء شخصت عيـونهم وانبعـث منهـا ومـيض ثابت لا يتغير، وانطبقت شفاههم المصبوغة بالحمرة في جهامة شاملة حزينـة مشئومة. وأمكنها أن تقرأ في وجوههم حزنًا هـائلًا عميقًـا وجهامـة التـصميم المطلق وثبوت النية على الانتقام والفرحة الوليدة التي تخالج السائرين عـلى طريق النصر. رأت في وجوههم تلـك الإحـساسات كلهـا وهـي راقـدة تـدلكها أيديهم السمراء الغريبة الغامضة فتـضفي عليهـا تألقًـا مـبهمًا. وخيـل لهـا في النهاية أن أطرافها ولحمها بل حتى عظامها تنتشر في ضباب وردي حلَّـق فيـه وعيها كوميض الشمس في سحابة حمراء.

كانت تعلم أن الوميض لـن يلبـث أن يخبـو، وأن الـسحابة لـن تلبـث أن تتحول إلى الشهية. ولكنها الآن لا تصدق ذلك. كانت تعلم أنها ضحية، وأنهـم بكل ذلك العمل المتقن إنما يعدونها للتضحية. غير أنها لم تبالِ بذلك بل تلـك كانت بغيتها.

وبعد ذلك ألبسوها ثوبًا قـصيرًا أزرق واقتادوهـا إلى الـشرفة العليـا حيـث قـدموها إلى النـاس. فـرأت الـساحة في أسـفل وقـد احتـشدت بالوجوه السوداء والعيون اللامعة التي خلت من كـل أثـر للـشفقة بـل

تهللت بفرحة غريبة فحسب. وما إن رأوها حتى أطلقوا صيحة خافتة اقشعر لها بدنها. ولكنها لم تكد تعبأ بها. ولم يتبقَّ سوى اليوم التالي. فنامت في إحدى غرف المنزل الكبير. وعند الفجر ألبسوها عباءة كبيرة زرقاء مهدَّبة الحاشية ثم اقتادوها إلى الساحة في الخارج بين الجموع الصامتة التي اتشحت بالعباءات السوداء وقد تناثر على الأرض الثلج الأبيض الناصع. وبدا الناس بوجوههم السوداء وعباءاتهم البنية القاتمة وكأنهم سكان عالم آخر.

وثمة طبلة ضخمة كانت تقرع في بطء. في حين أنه استغرق كاهن مُسِنٌّ في إلقاء خطبة منبرية من فوق أحد المنازل. ولكن المحفة لم تصل إلا عند الظهيرة حين أطلق الناس تلك الصيحة الحيوانية الخافتة التي لشد ما تأثرت لها. وكان الزعيم الشيخ يجلس في المحفة الشبيهة بالجوال وقد ضفر شعره الأبيض بجديلة سوداء رصِّعت بأحجار الفيروز الكبيرة. وكان وجهه أشبه بقطعة من الزجاج الأسود. رفع يده مشيرًا فتوقفت المحفة أمامها. ثم ركَّز عليها عينيه الهرمتين وخاطبها بصوته الأجوف بضع لحظات. ولكن أحدًا لم يترجم لها ما قال.

ثم جاءت محفة أخرى وضعت فيها. وتقدمها أربعة من الكهنة بملابسهم الصفراء والسوداء والقرمزية وأكاليلهم المصنوعة من الريش وتبعتها محفة الزعيم الشيخ. ثم بدأ قرع الطبول الخفيفة. وانطلقت جماعتان من المنشدين يغنون معًا إحدى أغانيهم. بصوت ذكري

همجي، وأخذ الرجال أشباه العرايا ذوو البشرة الذهبية الحمراء يكونون صفَّين ويخطون خطوات الرقص وهم في مآزرهم يزينهم ريش الطقوس وقد تدفقت على ظهورهم أنهار شعورهم السوداء. وهكذا خرجوا من الساحة المغطاة بالثلج في صفَّين طويلين باذخين. من الذهب الأحمر القاني والسواد والفراء وهم يتمايلون في صلصلة خافتة يُحدثها اهتزاز القواقع وشظايا الصوَّان الصغيرة ويتلوون فوق الثلج في جماعتين من الرجال كسِربين من النحل لا ينقطع غناؤهما حول الطبول.

أخذوا يتحركون في بطء إلى خارج الساحة تتبعهم محفتها بحاشيتها الراقصة من الكهنة المريشين الملونين على صورة مخيفة. كان الجميع يرقصون حتى حملة المحفَّة الذين أخذوا يخطون خطوات الرقص في رفق ومهارة. وغادروا الساحة مارِّين في طريقهم بأفران كان يتصاعد منها الدخان وهم يتجهون في بطء نحو أشجار التنُّوب الفضية السامقة التي انعكست كالدنتلا الفضية الرمادية في عُرْي وروعة على السماء الزرقاء فوق الثلج. وكان النهر المنخفض يندفع بين أنياب الجليد. وقد غطى الثلج جميع مربعات الحدائق داخل الأسوار، أما المنازل البيضاء فكانت تبدو عندئذ ضاربة إلى الصفرة.

كان الوادي بأسره حتى جدران الصخر القاتم يتلألأ بالثلج الخالص على مدى البصر على صورة تفوق الاحتمال. في حين أنه لم يفتأ يتلوَّى صفٌّ طويل من الراقصين وهو يهتز في بطء وبذخ بحركة

برتقالية سوداء عبر المهد المستوي لحوض الثلج. ودوَّى قرع الطبول مسرعًا في دقاته بينما حمل الهواء البللوري المتجمد زئير الهمج المرتفع وهم ينشدون أغنيتهم أشبه ما يكون بالكابوس المقيم.

جلست تطل من محفَّتها بعينين زرقاوين واسعتين شاخصتين في ذهول وفي أسفلهما هالتان ممتقعتان من أثر إعيائها المخدَّر. كانت تعلم أنها ذاهبة إلى حتفها وسط الثلج المتألق على أيدي هؤلاء الهمج المترفين. وبينما كانت تحملق في بريق السماء الزرقاء فوق الجبل الكئيب المخطَّط بالثلج حدَّثت نفسها قائلة:

ـ "لقد متُّ بالفعل. فأيُّ فرق هناك بين موت أعانيه وموت أدانيه بعد قليل. ولكنها أحسَّت بالغثيان في روحها وبالإعياء في جسدها.

واصل ذلك الموكب الغريب الجرار طريقه في رقص لا ينقطع وهو يتحرك رويدًا عبر السهل وقد كساه الثلج ثم دلف إلى المراقي التي تحف بها أشجار الصنوبر. كانت ترى الرجال ذوي البشرة النحاسية القاتمة وهم يخطون قُدُمًا خَطْو الرقص بين جذوع الأشجار النحاسية الشاحبة. وأخيرًا دخلت هي أيضًا بمحفتها المتمايلة بين أشجار الصنوبر.

أخذوا يواصلون السير في صعود عبر الثلوج المتراكمة تحت الأشجار وهم يمرون في طريقهم بجذوع رائعة أشبه بالأسلحة النحاسية البيضاء الباهتة في حين أخذ حفيف الراقصين وخطوهم

واهتزازهم يخترق الغابة والجبل. كانوا يتابعون حوض جـدول جفَّـت مياهـه كما في الصيف وذلـك لتجمـد منابعـه. وبـدت شـجيرات الصفـصاف البرنزيـة القاتمة الدكناء وقد تشابكت أغصانها كالشعر الثـائر الأشـعث وبـدت أشـجار الحور الباهتة منعكسة على الثلج كالبدن البـارد. ثـم ظهـرت للعيـان صـخور ناتئة قاتمة.

وأخيرًا أمكنها أن ترى الراقصين وقد توقفوا عـن التقـدم، وأخـذت تقـترب رويدًا رويدًا من قرع الطبول وكأنها تدنو من عرين تسكنه حيوانات غامضة. ثم أشرفت من خلال الأشجار على مدرَّج غريب حيث قام في مواجهتها جـدار هائـل مـن الـصخر الأجـوف تـدلَّى أمامـه كالنـاب عمـود ضـخم مـن الجليـد يتساقط منه الماء. وكان الجليد ينصبُّ فوق الصخرة من الهاوية في أعـلى ثـم يقف معلَّقًا في الهواء متقاطرًا من عُليا السماء يكاد يبلغ الأحجـار الجوفـاء في أسفل حيث ينبغي أن تترقرق بركة الجدول. ولكنها كانت جافة.

وعلى جانبي البركة الجافة تشكَّلت صفوف الراقصين واسـتمر الـرقص بـلا انقطاع منعكسًا على خلفية من الشجيرات.

ولكنها لم تـشعر إلا بتلـك القمـة الجليديـة المقلوبـة المدببـة التـي تعلقـت بـشفا الهاويـة المظلمـة في أعـلى. ومـن خلـف ذلـك الحبْـل الجليدي الضخم رأت أشـباح الكهنـة وهـم يتـسلقون كـالفهود سـفح الصخرة المجوفة إلى حيث الكهف الـذي كـان أشـبه بالحِجـاج المظلـم

وقـد حُفِـر إلى الـداخل عـلى شـكل فجـوة أو فوَّهـة في وسـط الـصخرة الشامخة.

ولم تكد تُدرك ما يحدث لها حتـى كـان حملـة محفَّتها يترنحـون بهـا في مواطئ الأقدام وهـم يتـسلقون الـصخرة. وتـوارت هـي أيـضًا خلـف الجليـد المعلَّق على ستار لم تنشر بل تدلى كالناب الضخم. وعلى مقربة منهـا في أعـلى بدت فوهة الكهف الغائر في جوف الصخر المظلم. راحت ترقبها وهي تتمايل صاعدة إلى أعلى.

وكـان الكهنـة في بهـاء ريـشهم وعبـاءاتهم المُهدَّبـة الحـواشي يقفـون في انتظارها على الإفريز وهم يراقبون صعودها. وانحنى اثنـان مـنهم ليمُـدَّا يـد المساعدة إلى حامل محفتها. وأخيرًا بلغت إفريز الكهـف وكـان بعيـدًا خلـف عمود الجليد في أعلى المدرج المجوف الذي اكتنفته الشجيرات في أسفل حيث أخذ الرجال يرقصون بينما تجمـع أهـل القريـة عـلى بكـرة أبـيهم في صـمت وسكون.

كانت الشمس تميل إلى الغرب منحدرة في سماء الأصيل، وكانت تعلـم أن ذلك اليوم هو أقصر أيام السنة وآخر أيام حياتها. فأوقفوها في مواجهة عمود الجليد ذي الألوان المتغيرة الذي كان ينصبُّ أمامها عن بعدٍ معلقًـا في الهـواء على صورة عجيبة.

وأعطيت إشارة ما فتوقف الرقص في أسفل وران عندئذ سـكون مطبـق. ثـم ناولوهـا جرعـة مـن المـشروب. وقـام كاهنـان بنـزع

عباءتها وثوبها فوقفت هناك في شحوبها الغريب بين عباءات الكهنـة الملونـة فيما وراء عمود الجليد حيث أشرفت على جماهير الشعب الأسود بعيدًا عـن متناول أيديهم. وانطلقت من الحـشد في أسـفل صرخـة همجيـة خافتـة. ثـم أدارها الكاهن فوقفت مولية ظهرها للعـالم المكـشوف وقـد استرسـل شـعرها الأشقر الطويل على مرأًى من الناس في أسفل فصاحوا مرة أخرى.

كانت تواجه الكهف الغائر إلى الداخل حيث كانت النار تتأجج مهتـزة في أعماقه. وقد خلع أربعة من الكهنة عباءاتهم وكادوا يحاكونها في عُريها. كـانوا رجالًا أشداء في عنفوان شبابهم. وقفوا خافضين وجوههم المصبوغة السمراء.

وأقبل الكاهن الشيخ من ناحية النار حاملًا مبخـرة. كـان عاريًـا وفي حـال من النشوة الهمجية. أخذ يطلق البخور على ضحيته مرتلًا تعاويـذه في نفـس الوقت بصوت أجوف. ومن خلفه جاء كاهن آخر عارٍ من ملابسه وقد أمسك بسكينين من الصَّوان.

وعندما تم تبخيرها أرقدوها على حجر كبير مستوٍ. وكان الرجـال الأربعـة الأشدَّاء يمسكون بها من ذراعيها وساقيها وقد مُدَّت إلى الخـارج ومـن خلفهـا وقف الشيخ كالهيكل العظمي يغطيـه زجـاج أسـود ممـسكًا بـسكين، وقـف يراقب الشمس شاخصًا كالمذهول. ومن خلفه وقف كاهن آخر عـارٍ ممـسكًا بسكين.

كانت تدرك كل ما يدور حولها ولكنها لم تختلج إلا قليلًا. استدارت نحو السماء ونظرت إلى الشمس الصفراء وهي تغوص في الأفق وقد وقف عمود الجليد كالشبح بينها وبين الشمس. ولاحظت أن الأشعة الصفراء كانت تملأ الكهف حتى منتصفه ولكنها لم تبلغ المذبح حيث كانت النار تتأجج عند الطرف القصي من الفجوة المجوَّفة على شكل قمع.

نعم. كانت الأشعة تزحف مستديرة في بطء. وكلما زاد احمرارها توغلت داخل الكهف حتى إذا ما أوشكت الشمس على المغيب اتجهت بكامل ضوئها خلال عمود الجليد إلى أعماق الكهف حيث تبلغ أقصاه.

عندئذ أدركت أن ذلك هو ما ينتظره الرجال. حتى أولئك الذين كانوا يمسكون بها وهي راقدة قد مالوا بظهورهم والتوتْ رءوسهم إلى الخلف ليراقبوا الشمس في حماس متألق ورهبة وحنين. وقد تركزت على الشمس عينا الزعيم الشيخ كمرآتين سوداوين وكأنهما لا تبصران شيئًا ولكنهما تحويان ردًّا مخيفًا على كوكب الشتاء المحمر. وكانت عيون الكهنة جميعًا مسلطة في تألق على الكرة الفلكية الهابطة وسط السكون المتجمد المحمر في أصيل الشتاء.

ولشد ما بدا القلق في عيونهم، القلق الرهيب والقسوة والوحشية وكانت وحشيتهم تبغي شيئًا وكانوا في انتظار تلك اللحظة. وقد

تحفَّزت وحشيتهم للوثوب في خضم النشوة. نشوة النصر الروحانية. ولكنهم كانوا في قلق.

أما عينا الشيخ وحده فقد خلتا من القلق. بل كانتا تراقبان الـشمس ومـا وراءها في سوادهما وتركيزهما وكأنهما مكفوفتـان. ولـشد مـا أضـفى علـيهما تركيزهما الأسود الخاوي قوة، قوة بعيدة ولكنهـا عميقـة بعيـدة الغـور تبلـغ قلب الأرض وقلب الشمس. راح يراقـب الـشمس الحمـراء في سـكون مُطبـق حتى ترسل شعاعها من خلال عمود الجليد. وعندئـذ يـضرب الـشيخ ضربتـه، ضربته القاضية مؤدِّيًا التضحية وهكذا تدين له السيادة والسيطرة.

تلك السيادة التي ينبغي أن يفرضها الإنسان والتي تنتقـل مـن جـنس إلى جنس.